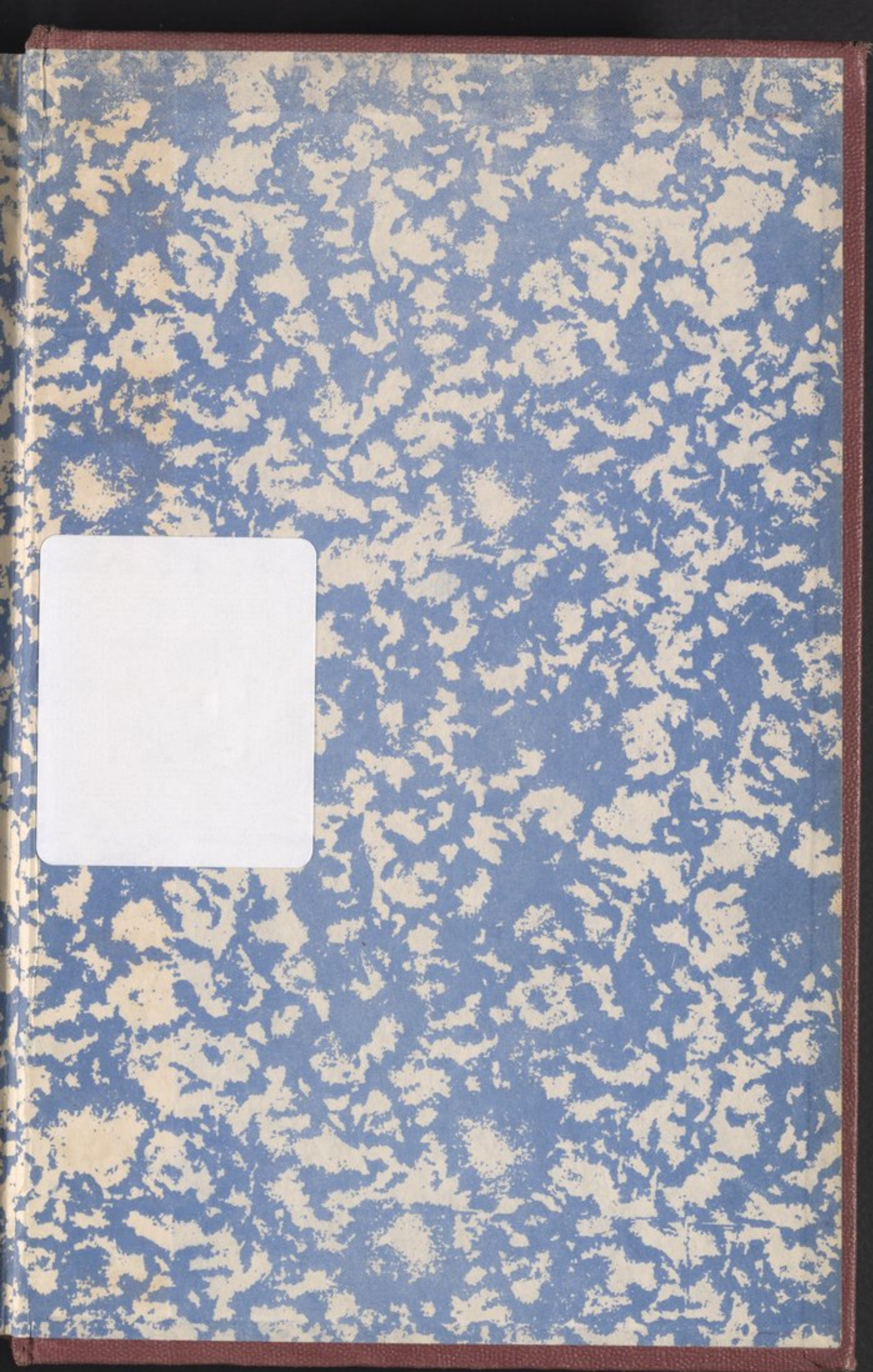


AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY



3 8534 01034 4699





04-135390

DC
705
24x
1931

ذِكْرَاتُ بَارِيسَ

صُورُهَا فِي مَدِينَةِ النُّورِ مِنْ صِرَاعِ بَيْنِ الْهَوَى وَالْعَقْلِ وَالْهُدَى وَالضَّلَالِ

بقلم

دكتور في الآداب من الجامعة المصرية

ومن جامعة باريس

وحائز دبلوم الدراسات العليا في الآداب

من مدرسة اللغات الشرقية في باريس

ورئيس قسم اللغة العربية بالجامعة الأمريكية

وأستاذ بالليسيه فرانسيه بالقاهرة

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى سنة ١٣٥٠ هـ - ١٩٣١ م

يُطْلَبُ مِنَ الْمَكْتَبَةِ الْبُخَّارِيَّةِ الْكَبِيرِ بِأَوَّلِ شَارِعِ مُحَمَّدٍ عَلَى بُمْبُصَرِ

لِصَاحِبِهَا : مصطفى محمد

المطبعة الرحمانية بمصر

914.436

M 88 P

٩١٤، ٤٣

٩١٤، ٤٣

مؤلفات زكي مبارك

١

الأخلاق عند الغزالي

٢

La Prose Arabe au IV^e siècle de l'Hégire

٣

البدائع

٤

حب ابن أبي ربيعة وشعره

٥

Etude sur la Lettre Vierge شرح الرسالة العذراء

٦

الموازنة بين الشعراء

٧

مدامع العشاق

٨

أثر الشعر في ربط الشعوب

٩

سرائر الروح الحزين

١٠

النثر الفني في القرن الرابع

تحت الطبع

2/237

التهنئة

الى الصديق الذى وصل جناحى وراش سهمى
الى الأستاذ « عبد القادر صحرى » أهدي هذا الكتاب
زكى مبارك

مصر الجديدة فى ١٨ أغسطس سنة ١٩٣١

مقدمة

أيها القارىء!

كنت عودتك إلف المقدمات الطوال ، كالذى فعلتُ في
تقديم كتاب «حب ابن أبي ربيعة» وكتاب «مدامع العشاق»
ولكنى لا أجد ما أقول في تقديم هذا الكتاب غير السطور الآتية:
عرفت باريس وأهل باريس معرفة قلما تُقدَّر لإنسانٍ سواي ،
ولم يكن ذلك فقط لأننى اتصلت بها نحو خمسة أعوام . وإنما
كان ذلك لأننى وصلت إليها بعد يأس وبعد شوق . وكانت كل
زَوْرةٍ تبدو لعينى وكأنها الأولى والأخيرة ، فكنت أنتهب
محاسنها في شرهٍ ونهمٍ كما يفعل الصبُّ المولع وهو يودّع حسناء
ستمضى إلى حيث لا يعرف من أقطار الشمال أو الجنوب . ويا طالما
ودعت من أسراب الحسان! أضيف إلى هذا أنى يوم دخلت باريس
كنت أعرف من دقائق اللغة الفرنسية ما لا يعرفه إلا الأقلون ،
وكنت قبل ذلك ألفتُ تلك اللغة ألفة شديدة ، حتى كان لا يتكلم
بها جماعة فى جدٍّ أو هزل إلا تعقبت ما يقولون تعقب الدارس
الفاحص الذى يدرك مظهر وما بطن من أسرار الحديث (وهذا
كل ما عندى من عيوب الفضول) فكان ذلك معواناً على فهم
ما طبع عليه الفرنسيون من شتى الغرائز وإخلال
طالت إقامتى فى باريس ، وكانت لأغراض علمية سدّد الله

فيها خطايَ وهداني سواء السبيل . ولكن دراساتي لم تحل بيني
 وبين التأمل فيما يقع في مدينة النور من صراع بين الهوى والعقل
 والهدى والضلال . فأنشأت كثيرا من القصائد والرسائل في
 أغراض مختلفة بعضها من وحي العقل وبعضها من وحي الوجدان
 وقد عدت إلى تلك الثروة الأدبية فأضفت جزءاً منها إلى
 أصول كتابي «سرائر الروح الحزين» وجزءاً إلى مواد الطبعة الثانية
 من كتاب «البدائع» والباقي هو هذه الأقباس التي أقدمها اليوم
 يقول المسيودي كومنين: إن الكريم لا يذكّر البلاد التي رحل
 عنها إلا مصورةً بصورة من عرف فيها من كرام الناس . وكذلك
 تبدو باريس على البعد ممثلةً في شمائل انسانين اثنين هما المسيو
 بلانشو وابنة خاله كريمة الجنرال بونال . والمسيو بلانشو - سكرتير
 اتحاد الطيران في باريس - آية من آيات النبيل والخلق العظيم؛
 وابنة خاله الأنسه سوزان مثال أعلى لسلامة الذوق وكرم النفس
 وحياة الوجدان . ويعلم الله ما ذكرت هذين الانسانين إلا غلبني الدمعُ
 وقهرني الشوقُ وصهرني الحنين . وستظل باريس قبلة روحي
 ما بقيت في النفس ذكري ما بقيت عندهما من عطفٍ ورعاية وحنان
 تلفتُ حتى لم يبق من دياركم دُخانٌ ولا من نارهنَّ وقودُ
 وإن التفات القلب من بعد طرفه طوال الليالي نحوكم ليزيد
 بعد هذين الانسانين تتمثل باريس في صور الاساتذة الكبار

الذين انتفعت بعلامهم هناك أمثال دُوميك و مَرُسيه وديموميين
و كولان و ماسينيون و تونلا و ديبويه و ميشو و شامار و مورنيه
و بعد أولئك وهؤلاء تتمثل باريس في صور تلك الوجوه
الصباح التي رأتها عيناى وألفها قلبي ثم أقصتني وأقصتها ضرورات
الحياة إلى حيث لا أمل في تراسل أو تلاق، برغم ما قيدنا من
العناوين ، وما حددنا من المواعيد

يا أخت ناجية السلام عليكمُ قبل الرحيل وقبل عذل العذل
لو كنت أعلم أن آخر عهدكم يوم الفراق فعلت ما لم أفعل
واليوم يتلفت القلب إلى باريس فتقبل الذكريات أفواجا
في عنف وطغيان فتغرق الروح في كوثر النعيم المتخيّل المرموق ، فإذا
عسى أن أفعل للنجاة من ذلك الطوفان ؟ أأفزع إلى صفحات هذا
الكتاب ؟ كيف ولم يكن إلا ظلالا خفيفة لما لقيت في باريس من
مُتَع الحياة ، وهو مع هذا لم يحو كل الذكريات : لأن أطيّب
الذكريات لا يكتب ولا يقال ، وإنما تقلّبه النفس في هدآت الليل
كما يفعل الشحيح وهو يقلّب كنزه المدفون

رباه! ماذا أبقيت لي من باريس ؟ ألا تراني أروح إلى السيما الناطق
في صَبوة وجنون أسمع كيف يتكلم الباريسيون وأنظر كيف
يحدّون وكيف يلعبون ؟ إلى اللقاء يا باريس ! إلى اللقاء يا مدينة المجد
والحب والجمال ! إلى اللقاء يا وطن المسيو بلا نشو والآنسة بونال !

بن الحب والمجد

لم تنسني فتنة الدنيا وزينتها ما في شمائلك الغراء من فتنة
أطوف بالحسن تصيبني بدائعه كما يطوف معننى القلب بالدمن
فلا تثير مغاييه ونضرته في ظل ذكراك غير الهمم والحزن
آمنت بالحب لولا أنت ما جمحت منى الضلوع إلى أهل ولا وطن

يا من تحيرت لأدري أيسعدني غرامه أم هواه محنة المحن
ما ضر لو نعمت عيناي أو شقيت قبل الفراق بمرآى وجهك الحسن
لولا مثالك في باريس ألمه في طلعة البدر أو في نضرة الفن
ما صافح النوم أجفاني ولا احتملت جوانحي ما أثار اليبس من شجن

جنت على الليالي غير ظلمة إني لأهل لما ألقاه من زمني
فما رأيت من الأخطار عادية إلا بنيت على أجوازها سكني
ولا لحت من الآمال بارقة الا تقحمت ما تجتاز من قنني
أحلت دنيائى معنى لا قرار له في ذمة المجد ما شردت من وسني

١٢ يونيه سنة ١٩٢٧

ثورة الوجد

نسيتم العهد واسترحتم
فليت ما راضكم فتمتم
وليتنى إذ يئست منكم
من لوعة الحافظ الأمين
أراح بعد النوى جفوني
كبحت في غربي شجوني

* *

ولى خداعُ المنى وقرت
فما بكأى على حبيب
ألقيتُ بالنفس من هواه
لم تقضَ في حبه ديونى
وقلتُ أرتادُ من صباه
فى لجة السحر والفتون
فما تذوقتُ من جناه
مطامحُ الواجدِ الحزين
ملاعِبُ الطيش والجنون
إلا صدَى النوح والالين

* *

يا روعةَ البدرِ فى سماء
تناس ما شئت سوف تحبو
وسوف تبلى على الليالى
وفتنةَ الزهر فى الغصون
أستغفرُ الحبَّ سوف يبقى
حرارةَ الدمع فى الشئون
على صُروفِ الاسى حنينى
غرائبُ السحر فى العيون

باريس فى ٣ يوليه سنة ١٩٢٧

الى باريس

قبل الرحيل

بعد شهور طوال أسهرتُ فيها ليلي ، وأشقيتُ فيها نهاري ،
صحت مني العزيمة على العودة الى باريس . وكانت نشوة فرح
تشبه نشوات الطفل حين يحدثه أهله عن سفر سعيد ، وكدت
أكتب الى خالصائي : أيها الاصدقاء ، أنا عائد الى باريس ! ولكني
توقرت ، وكتمت فرحي ، وأقبلت أعدّ ما لم أكن أعدّته من
المفكرات والمذكرات . . والملابس ! وانطوت الأيام بسرعة
خاطفة ، ومضيت الى «سِنْتريس» لتوديع أبي وأهلي وأصدقائي ،
وكان مني ما تعودته من الجمود حيال تلك الدموع الحار التي
يسكبها الوالد — لا عدمته — كلما أسأمني الى رفق الله ولطفه في
سفر بعيد . ومضت في السيارة وهي تحمل مني قلباً راضته الأيام
بعد الجموح ، وعلمته كيف يحمد ويتحجّر أمام أهوال الفراق .
وجاء صباح السبت الأخير من يونيه ، وإذا أنا أمضي بأقدام
ثابتة الى محطة « باب الحديد » ، وفي انتظاري أصدقاء قلائل جداً
ثلاثة أو يزيدوني ! وغاب عن ذلك اليوم أصدقاء كنت آمل أن
أراهم هناك . وهم القطار بالقيام فسدت المسافرين الآخرين : لأن

مودعيهم كانوا من الجنس اللطيف الذي يحسن التوديع ، ويقدم
اليه أصلح وقود من التقيل ، ثم التلويح بالناديل البيض !
واكتفيت من مودعي الفضلاء بعبارات : فتح الله عليك ،
وجعلك من السالمين الغانمين ! .

فاللهم تقبل من عبادك الصالحين !

في الباخرة :

مرت الساعات بين القاهرة والاسكندرية وأنا مقسم
الفكر ، منتشر الروية ، أنظر تارة في الصحف ، وأخرى الى
ما تمر به من الحقول ، حتى أسلمنا القطار الى الباخرة في غير عناء .
ونقلت أمتعتي الى مكاني في السفينة ثم جاءت ساعة الغداء فشغلنا
عن توديع الاسكندرية ، إن كانت تحتاج منا الى توديع ،
وهيهات ! فقد تبادت بنا مظالم الحياة وكدنا لا نعرف ما الوطن
وما فراقه : إذ كنا في بلادنا غرباء ، والمظلوم في وطنه غريب
ووضعت المائدة ، وأقبلت أتخير مكاني بين المسافرين
والمسافرات ، فلمحت مكانا خاليا بين سرب من الضباء . فبادرت
الى احتلاله . وإذا صديق من زملائي الفرنسيين يقول : ماذا
تريد يا مسيو مبارك ؟ هذا مكان مشغول !

ماذا أريد ؟ ! ماذا أريد ؟ !

الخيث يعلم ما أريد ، ولكنها الأثرة والغيرة واللؤم ،

كل أولئك حمله على إقصائي عن المكان المنشود !
 ورجعت أتلفت علني أجد مكاناً طيباً بين جيرة يحقق لهم
 القلب ، وتهفو اليهم الجوانح ، فلم أجد بعد البحث الطويل .
 وانتهى بي المطاف عند طرف من المائدة فيه اثنتان من العجائز ،
 وفيه رجل مصرى . أما العجائز فالقاريء يدرك أن الأنس بهن
 محال . والرجل المصرى ، ما حاجتنا اليه ، وقد تركنا في مصر خمسة
 عشر مليوناً غير آسفين ! على أن المصرى في مثل هذه الأحوال
 قد يكون هو « الانسان » الذي عناه الشاعر حين قال :
 عوى الذئب فاستأنست للذئب إذ عوى

وصوت إنسان فكدت أطيّر
 وكذلك مرت أيامي في الباخرة والملائكة مستريحون لم
 يكتبوا فيما أظن سطرأً واحداً في صحيفة السيئات ، وأحسبهم
 يتورعون عن تقييد تلك الخواطر « البريئة » التي كانت تمضي
 في التحسر على مافات من مجاورة الحسان ! على أن الغنى في بعض
 الأحوال قد يكون أظهر من الرشد . وقد يكون الإثم الجارح
 أسلم عاقبة من التقى المصنوع !

رجال الدين :

في أكثر المرات أجد في سفرى طوائف من الراهبين
 والراهبات . ولى في كل مرة ملاحظات وتأملات ، ومشاهداتي

في هذه المرة أمتع وأنفع ، وإلى القارىء البيان :
 الجنس اللطيف لطيف دائماً ، فالراهبة أعقل من الراهب
 وأبعد من الفضول ، كتابها في يدها دائماً ، تقرأ آياته في تقى
 وإخلاص . وقد لاحظت أن بين الراهبات فتيات يقظ من
 وجوههن ماء الحسن ، ويترقق في أعطافهن ماء الشباب ، وفيهن
 من سحر الجفون آيات يينات ، فبدالى أن الله عز شأنه أخذ
 يتخير لنفسه أطيب الجمال ، ورأيت أن التقوى لا تصلح إلا من مثل
 تلك الوجوه الملاح . وليس من العنف في شيء أن نصارح القارىء
 بأنه لا خير في تقوى كثير من الناس ، لأن أكثرهم لا يتقى الله
 إلا حين يعجز عن الإثم والفسوق : فهي تقوى ضرورة ورياء ،
 لا تقوى بر وإيمان . وبعض الأتقياء لئام لا يهونون عن الغنى إلا
 حسداً لأهله على ما آتاهم الله من نعم المال والجمال والشباب ،
 ولو أنهم ظفروا بسبب من أسباب الفتك لودعوا التقى وهم
 فرحون . وحسن السلوك عند أشباه الأبرار أشبه بسلوك العبيد
 فهو في جملة ضرب من الصعلكة ولون من ألوان الموت ، وهم
 يعلمون ذلك ، ولكنهم يتكلفون الرضا بحظهم من الصلاح !
 الراهبة أعقل من الراهب ، كذلك أقترض ، فقد كان معنا
 في الباخرة راهب شنيع الإسراف ، لا يرضيه نبذ المائدة ، لأنه
 شراب عادى يبذل بسخاء للجميع ، فكان يطلب لحسابه أجود

أنواع الشراب ، ثم يدعو من حواليه من الشواب النواهد الى
التفضل بمشاركته في ذلك الورد المباح ! يفعل ذلك ، وأنا أنظر
اليه وملء جوانحي حقد وضغن ، فهو يفعل كل ما يريد ويظل
قديساً ، وأنا لا أفعل شيئاً ثم يهاجني ذلك الزميل الفرنسى اللئيم
قائلاً : ماذا تريد يا مسيو مبارك ؟ !

هذا وحق الله من نكد الزمان وسوء حظي !
والنفاق نعمة عظيمة عرف قيمتها اللئام فأوغلوا فيها ، وافتنوا
في جمع أسبابها . والصراحة محنة اقتنع أصحابها بأنها أساس الرجولة
والنبيل ، فأسرفوا في العناد حتى لا أمل في ردهم الى الحد المعقول .
وأنا والله غير نادم ، فليظفر من شاء من الأخبار ، والرهبان ،
والأشياخ ، بما شاء من طيبات الحياة ، تحت ستار التقى والدين ،
فتلك كلها حظوظ سافلة لا يفرح بها الا الضعفاء الذين يعرفون
أن مصارحة الجمهور عبء ثقيل لا ينهض بأثقاله إلا الأقوياء الأشداء
فتاة تشكو الفراق :

كان ذلك حظي من رفقة المائدة ، ولم يكن بد من السعى
الحثيث للترويح عن النفس ، وقد وصلت بعد جهد الى التعرف
الى فتاة كانت تغنى في مسرح . . . بالقاهرة ، وهى فتاة ناهد
حسناء ، رشيقة القد ، مشرقة الجبين ، وفي عينيها النجلاوين بقايا
خطيرة من سحر هاروت وماروت الذى ورد ذكره فى القرآن ،

وفي صوتها غنة موسيقية كأنها غنة الظبي الوليد ، ولا ناملها رقة
 جذابة تفيض بالكهرباء ، وفي خطراتها تكسروتنّ أين منهما
 الغصن المطلول ، ولها رفق بارع في إذكاء نار الحب والوجد فيمن
 تختار من أصحاب القلوب ... هي فتاة فرنسية تعودت اللهو
 بالأشخاص ، وبالأشياء ، وبالأوطان ، فلم يعد يهمها من تلقى
 ولا من تفارق ، ولم تعد تفكر أي أرض تسكن ، وإلى أي وطن
 تعود . ولكنها فيما تقول وقعت أخيراً في أشراك الحب ، بعد إذ
 سخرت بآلاف المحبين ، وبعد إذ بذلت في مرضاتها التضحيات
 الخطيرة بلا حساب . أما الإنسان الذي استطاع أن يكوئها بناره ،
 وأن يردّها وهي صاغرة إلى زمرة الأتقياء : فهو شاب مصري
 فقير ، لا يجد أسباب اللهو في أحياء القاهرة ، ولكنه يملك فقط
 عينيّن ساجيتين ، وشباباً قوياً ، وجاذبية تميد لهولها الجبال

كم ساعة قضتها تلك الفتاة وهي تبث إلى شكواها من
 مرارة الفراق ، وكم لوعة ثارت في صدرى من حنينها إلى سواى ،
 وكم خلوة حلوة على ظهر السفينة استمعت فيها إلى أنفاسها الحار
 وهي تتكلف أسباب الصبر الجميل !!

أيها العاشقة الحسناء !

أنا أيضاً ... شاب فقير !

باريس في ٣ يولييه سنة ١٩٣٠

الحب الاثيم

في باريس

الانسان في عُرْف المناطق حيوان ناطق ، لأن ارسططاليس
عرّفه كذلك . وفي مقدورنا أن نقول : الانسان حيوان مخدوع .
وكنّت أحب أن أقول : حيوان مغرور ، ولكنني وجدت التعبير
الأول أدق وأصدق في تحديد ذلك الحيوان الخادع المخدوع الذي
اسمه إنسان !!

الانسان حيوان مخدوع : لأنه يخدع نفسه بما يسميه
« تجارب واختبارات » فالرجل الذي تستهويه امرأة فاجرة
فتقوده إلى بؤرة من بؤر الفساد في باريس ثم تسرق ما يملك من
عين أو نقد يرجع إلى بيته أو مثواه وهو يخدع نفسه بعبارة
« هذه تجربة » أو « ماذهب من مالك ما وعظك » على حد
المثل الذي كنا نعطيه لتلامذة المدارس الثانوية ليضاف إلى
موضوعات الانشاء . والشاب الذي يحمله جنون الشباب على
غشيان المواخير القذرة ثم يحمل مرضا يعيا في برئه الأطباء ،
يجرّ رجله على شواطئ السين وهو يدمدم : « هذه تجربة ،
هذا اختبار لمكاره الحياة » وذلك كله خداع في خداع ، والرجل
هو الخادع وهو نفسه المخدوع

لا أذكر أن فكرة تملكنتي وسيطرت عليّ كما استبدت
 بي هذه الفكرة : فأنا موقن أن غنيمة التجارب ضرب من الافلاس
 أو هي الافلاس ، وإلا فنافع التجارب إذا كنا سنظل طول
 حياتنا عبيداً للأهواء والشهوات ، وسخرية في يد الهوى القاهر ،
 أو النزق الغلاب

هذه تجربة ! إى والله ! ولكن متى تنفع ؟ وهذا اختبار ،
 ولكن متى يفيد ؟

التجارب المرة تنفع صاحبها في شيء واحد ، ذلك بأنها تعطيها
 لونا من ألوان الآنين تكبر به قيمته عند من يستمعون لأحاديث
 البؤس والشقاء . والحكماء في العالم كله قوم أفنوا أنفسهم
 وخسروا شبابهم وثروتهم ، ثم أقبلوا يتحدثون إلى الناس بما
 يجب أن تتحلى به مجموعة الحيوانات التي تتكوّن منها فصيلة
 الإنسانية . ونحن حين نستمع لأقوال الحكماء في صمت وخشوع
 لا نفعل ذلك اعترافاً بفضل الحكمة ، ولكننا نقبل عليها بأنفس
 مهددة بنفس المصير الذي تخوّفنا منه حكماء الحكماء : فالواعظ
 يبكي نفسه حين يعظ ، ولكنه يوهننا بأنه يبكي اشفاقاً بنا ، ورحمة
 لنا ، وخوفاً علينا ، ونحن نوهمه أننا نبكي لبكائه ، ونزل عند
 حكمته ، والواقع أننا نبكي أنفسنا حين نسمع أخبار من أشقتهم
 الرذيلة وأفناهم الإسراف ، لاننا ننحدر إلى نفس الهاوية ، ونهوى

إلى ذلك القرار الذي يعز منه الخلاص

*
*

طالما تحدث الناس عن الحب في باريس ، ولذلك رأيت أن
أكتب هذا المقال لأن أكثر المتحدثين عن الحب في باريس
يخوضون فيما لا يعرفون ، وهذه فائدة جديدة للتجارب أستطيع
بها أن أستطيل على القراء فأدعي العلم وأصمهم بالجهل البسيط ،
راجيا أن لا تجرحهم هذه الكلمة ، وأن لا يستكثروا على رجل
أشقته دنياه ، وحمله شبابه على أن يطاء جمرات الشهوات ، أن
يعزى نفسه بكلمة « جربت » و « شاهدت » إلى آخر ما في
القاموس مما يتصل بهذه التعابير !

الحب في باريس نوعان : حب شريف ، وحب أثيم
والحب الشريف الذي يعرفه الباريسيون غير الهوى العذرى
الذى يجد القارىء آثاره فى كتاب (مدامع العشاق) فنحن نعرف
أن الهوى العذرى آية من آيات الوجد المزمز عن الآثام والشهوات
ونعرف أن العشاق العذريين قوم يجدون لذتهم الباقية فى النوح
والحنين ، ويجادون غذاءهم الروحى فى التغنى بمثل هذه الأبيات :
سقى بلداً أمست سُلَيْمى تحلُّهُ من المزن ما تروى به وتسيمُ
وإن لم أكن من قاطنيه فإنه يحل به شخص على كريم
ألا حبذا من ليس يعدل قربه لدى وإن شطّ المزار نعيم

وَمَنْ لَامَنِي فِيهِ حَمِيمٌ وَصَاحِبٌ
 الْهُوَى الْعَذْرَى الَّذِي تَحْدُثُ عَنْهُ الْعَرَبُ وَأَنْطَقَ الشُّعْرَاءُ
 بِأَجْمَلٍ وَأَرْوَعَ مَا أَوْحَى الْحُبُّ النَّبِيلُ مِنْ آيَاتِ الشَّعْرِ الْوَجْدَانِي
 هُوَ غَيْرُ الْحُبِّ الشَّرِيفِ الَّذِي يَعْرِفُهُ الْبَارِيسِيُّونَ ، وَأَكْثَرُ
 الْأَلْفَافِ مَقُولٌ بِالتَّشْكِيكِ لَهُ عِنْدَ كُلِّ قَوْمٍ مَدْلُولٌ !
 لَكِنْ مَا هُوَ ذَلِكَ الْحُبُّ الشَّرِيفُ ؟

هُوَ الَّذِي يَجْرِي بَيْنَ فَتَى وَفَتَاةٍ ، أَوْ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ ، لَغَرَضٍ
 غَيْرِ مَادِيٍّ ، وَتَقَعُ حَوَادِثُهُ فِي الْأَوْسَاطِ الْمَعْرُوفَةِ بِالْإِسْتِقَامَةِ وَحَسَنِ
 السَّمْعَةِ . وَهُوَ حُبٌّ مَعْقَدٌ كُلُّ التَّعْقِيدِ لَا يَفْهَمُهُ إِلَّا مَنْ رَاضُوا
 أَنْفُسَهُمْ عَلَى مَكَارِهِهِ ، وَاصْبَرُوا بِنَارِهِ . وَهَذَا النَّوْعُ مِنَ الْحُبِّ
 يَخَالِفُ الْهُوَى الْعَذْرَى ، لِأَنَّهُ يَسْتَبِيحُ أَشْنَعَ الذُّنُوبِ وَالْآثَامِ .
 وَلَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ يَجْرِي فِيهِ الْأَرْقُ ، وَتَسِيلُ مِنْ أَجَلِهِ الْمَدَامِعُ ،
 وَتُعْرَفُ فِيهِ نَكَائَاتُ الْوَشَاةِ وَالْعِذَالِ ، وَتَتَّخِذُ مِنْ أَجَلِهِ الرُّسُلُ ،
 وَتُدَوِّنُ لَهُ الْمَكَاتِبَاتِ . وَعَلَى الْجُمْلَةِ هَذَا النَّوْعُ مِنَ الْحُبِّ هُوَ الَّذِي
 خَلَقَ شُعْرَاءُ فَرَنْسَا وَكُتَابُهَا وَفَنَانِيهَا وَفَلَاسَفَتُهَا أَيْضًا . وَلَا يَوْجَدُ
 فِي فَرَنْسَا رَجُلٌ عَبَقْرِيٌّ لَمْ يَمْسَسْهُ الْحُبُّ بِعَذَابِ أَلِيمٍ

وَهَذَا الْحُبُّ شَرِيفٌ لِأَنَّهُ يَقَعُ غَالِبًا فِي ظُرُوفِ قَاهِرَةٍ
 لَا يُمْكِنُ مِنْهَا الْفِرَارُ ، فَفِي فَرَنْسَا نِسَاءٌ جَمِيلَاتٌ حَبَّتْهُنَّ الطَّبِيعَةُ
 بِأَكْرَمِ مَا تَهَبُّ مِنَ أَلْوَانِ السَّحْرِ وَالْفُتُونِ . وَالْمَرْأَةُ الْجَمِيلَةُ فِي فَرَنْسَا

خطر على عالم القلوب ، وأقسى الأفتدة يلين ويتفجر بالعطف والحنان أمام تلك الظباء الأوانس اللأنى يخطر من حين إلى حين في الأحياء المرحاة الجذلة التى تفيض وتزخر بأسباب الطيش والجنون . ونحن والله أرق أكباداً من أن نرمى عشاق الجمال القاهر بالفسق والفجور . فهم قوم مساكين منحهم الله عيوناً تنظر ، وقلوباً تشعر ، وأكباداً تتوجع ، وأحشاء تتفتت ، وقال لهم كونوا شعراء فكانوا ، وهو سبحانه يقول للشئء كن فيكون ، فكيف بالإنسان الذى تغنيه الإشارة ، وتكفيه اللوحة ؟ إنه يفهم جيد الفهم أن الجمال خلق ليعشق ، فليس بعيداً أن يسرف فيعبد الجمال من دون الله

هذا النوع من الحب طبيعى لا يمكن حربه ولا دفعه لأنه فى الفطرة ، ولا يمكن أن يقال إنه خاص بفرنسا من دون الأمم فهو حظ مشاع بين جميع الشعوب . ولكل أمة منه نصيب . حتى مصر ! وإنى لأحسب أنه ألزم للإنسان من ظله ، وأنفع له من الماء والهواء

أما الحب الذى انفردت به باريس فهو الحب الأثيم ، وهو الحب الذى تغلب فيه الدعارة والفجور ، وهو حب له ظاهر خلاب جذاب لأنه يشبه الحب الشريف من بعض الوجوه ،

ففيه أيضاً تعاطف وتراحم وحنان . وإنك لتدخل حدائق باريس في المساء فتجد مئات العشاق متعاقبين فوق المقاعد مظلمين بالأشجار المورقة ، ومحروسين بالحشائش الخضر . وكم من مرة تأملت هذه المناظر المريبة وأنا وافر الإعجاب بما يملك أهل باريس من أسباب الحرية المطلقة التي لا نجد قبساً من شعاعها في مصر . ولكن ماذا تخفي هذه المناظر ، ماذا تخفي ، ماذا تخفي من عوامل الضعف والتدهور والأخطا ؟ !

إن في باريس طوائف من الفتيات ألباهن الفقر والعوز إلى مرافقة الشبان ، أو حملتهن أزمنة الزواج على الإسراع بالتعرف إلى الرجل الذي جبن عن مجابهة تكاليف الحياة الزوجية الشريفة ، وقنع بما تحمله إليه المصادفات من غنائم الإثم والفسوق ، هؤلاء الفتيات الفقيرات خطر على باريس وزوار باريس . وهن خطر محقق على الشبان المصريين والشرقيين الذين حرمتهم التقاليد الإسلامية من الأنس بالمرأة الفاجرة ، فكم من شاب مصرى أسلم شرفه وعرضه لامرأة بَغْيٍ في أول ليلة دخل فيها باريس ، وكم من شاب مصرى جاء باريس ليتعلم فضل جاهل ثم عاد إلى أهله يحمل أشنع وأوبأ ماعرف الطب من جراثيم الأمراض . والفرنسيون يعلمون علم اليقين أن عاصمتهم موبوءة ، وأن الحى اللاتينى حى الطلبة بنوع خاص هو مهد الوباء ، ومن أجل ذلك

رأيت منهم من يتباهى بأنه لم يعد إلى ذلك الحى منذ كان طالباً .
ومن الأساتذة من لا يعرف من ذلك الحى غير السوربون
والمعاهد الملحقة بجامعة باريس

وبعد ذلك فلمن أكتب المقال ؟ إن ذلك الحيوان المخدوع
الذى اسمه إنسان سيعمل نفسه دائماً ويخدعها بما يسميه التجربة ،
فهل أستطيع أن أقترح فقط على صديقنا الدكتور الديوانى مدير
البعثة المصرى فى باريس أن يضع نظاماً يفرض فيه الكشف
الطبى على الطلبة المصريين من حين إلى حين ، عليهم يتقون الله فى
أنفسهم فيفرون من أوباء الحب الأثيم ؟

باريس فى ١٥ سبتمبر سنة ١٩٣٠

مصر فى باريس

أصبحت مدينة الطلبة عنواناً على مجد الأمم : فلكل
أمة دار يأوى إليها أبناؤها المغتربون : فلا مريكا وبلجيكا واليابان
دور فى مدينة الطلبة . حتى الأرمن لهم دار ! أما مصر فمuskوت
عنها فى تلك البقعة الجميلة . وقد اقترح بعضهم مرة فى مجلس النواب
على وزير المعارف أن يفكر فى إنشاء دار مصرىة بمدينة الطلبة
فى باريس ، ولكن قيل يومئذ إنه من الخير للطلبة المصريين أن
ينبشوا فى الأوساط الفرنسية

وهم قد انبشوا بالفعل . ولكن أين ؟ فى الحانات والقهوات !

الحب في باريس

وفي ليفربول

صديقي « ن... » شاب جميل الوجه ، طيب القلب ،
 سليم الذوق . عرفته لأول مرة في القاهرة في صيف سنة ١٩٢٥
 وقد فرقتنا الأيام بعد ذلك ، فذهب إلى ليفربول ، وبقيت أنا
 موزع الجهد ، مقسم القلب ، بين القاهرة وباريس
 وفي هذا اليوم صادفته هائما في حديقة لكسمبور ،
 فتعانقنا وتبادلنا أطيب التحيات ، وسألته وسألني عما لقي
 وما لقيت ، ودعوته إلى لحظة نقضها في قهوة داركور أمام
 السوربون

جلسنا ، وتحدثنا ، وشربنا

لكنني لاحظت أن صديق سنة ١٩٢٥ غير صديق سنة ١٩٢٩
 فقد كان الصديق الأول في سداجة ، وطهارة ، ونبل ، وإخلاص .
 أما الصديق الثاني فهو إنسان مداور ، ماكر ، خيث ، محتال ،
 لا تصل إلى قلبه إلا عن طريق النفاق
 ابتداء فلعن باريس ، وأهل باريس ، ومحبي باريس . فقلت :
 استثن من فضلك ! فأجاب : العفو يا به !

باريس في رأيه مدينة دعارة وفسق ومجون وشهوات،
وليس فيها على حد تعبيره إلا فاسق أو ختال، وقد انطلق
كالقذيفة يصف الفرنسيين بأشنع ما حوت القواميس من
قيح الصفات والنعوت، ثم اندفع يقابل بين الأخلاق الانجليزية
والأخلاق الفرنسية، فكان الانجليز في رأيه ملائكة، وكان
الفرنسيون شياطين. هنالك ابتسمت، وقلت: الآن يا صديقي
اطمأنت عليك!

فقال: وكيف؟

قلت: كنت في شك من أمرك، فقد كنت أخشى أن
تعيش في بلاد الانجليز بدون فائدة، كما هو حظ كثير من أعضاء
البعثات المصرية، أما الآن فقد عرفت أنك استفدت!

قال: هذا غريب. أنت لم تختبرني حتى تعرف إلى أي

حد وصلت

قلت: بلى، قد اختبرتكم، وإن لم أوجه اليك سؤالاً، ولم
أسمع منك جواباً، فإن حملتك الشعواء على الأخلاق الفرنسية
تدل أو ضح دلالة على أنك أشربت أخلاق الانجليز وسجايهم.
وقد علمتني التجارب التي كوت يدي، وأشاطت دمي، وأياستني
من صفاء الطبيعة البشرية، وأقنعتني بأن الانسان حيوان ليث،
علمتني تلك التجارب أن أجهر الناس صوتاً في الدفاع عن الفضيلة

هم المنافقون ! وأنت يا صديقي تتأفف من هواء باريس ، وتعلن أن جوها مشبع بأوزار الغواية والفسوق ، وفي هذا دليل على أنك أصبحت انجليزيا صميما ، ونحن نرسل أبناءنا إلى انجلترا ليتخلقوا بالأخلاق الانجليزية ، فلم تضع إذن الدنانير اليومية التي أنفقت عليك ، فطالب البعثة في كل يوم دينار ، كأنه ابن الملك في أساطير الأولين !!

قال الصديق ، وعلى وجهه بوارد الألم والغیظ : أوضح . فاني لا أدرك تماما أيّ هدف ترمي ، ولا أيّ وجه تريد . قلت : يجب أن تعلم أن الانجليز أقدم الناس عهداً بالنفاق . وأنا لا أتكلم عنهم من الوجهة السياسية فقد يكونون في السياسة صرحاء ! إنما أتكلم عن الأخلاق : الانجليز يعملون كل شيء ، ويكتمون كل شيء : يقترفون أشنع المنكرات ، ويظهرون دائماً سيما الطهر والعفاف . والويل كل الويل لمن يفتضح أمره بينهم فانه لا محالة مطرود منبوذ . وهم في هذا يعملون كما كان يعمل الاسبرطيون قديما : فقد كانوا يعاقبون السارق لا لأنه سرق ولكن لأنه لم يعرف كيف يخفي السرقة ويمشي في ثياب الأبرياء . قال الصديق : هل عاشرتهم ياسيدي حتى تحكم عليهم هذا الحكم ؟

قلت عاشرتهم قليلا ، ولكني قرأت أكثر ما نقل من مؤلفاتهم

إلى الفرنسية واقتنعت كما اقتنع كثير من أحرارهم ومفكرهم
بأن الحواضر الانجليزية أوكار خبت ورياء، وأن لندن بوجه
خاص تضم إلى جنباتها أخطر ما عُرِف من أساليب الإثم
المستور !

وأنت يا صديقي تمثل نفس الدور أصدق تمثيل ، فأنت
تركت ليفربول لتقضى إجازتك في باريس ، والشيطان يعلم لم
جئت باريس ، ونصيحتي لك أن تعيش في فرنسا بنفس فرنسية
لا انجليزية : فالفرنسيون تضيق صدورهم بالنفاق ، ويحتقرون
المنافقين . وهم حين يحبون يحبون في صراحة ، وحين ينفضون
ينفضون في وضوح ، وقليل منهم من يحسن المداورة ويميل إلى
التضليل .

لكن صديقي لم تغنه هذه الخطبة ، واستمر يقبّح الأخلاق
الفرنسية ، ويمجّد الأخلاق الانجليزية

فما الحل ، وكيف السبيل إلى هدايته ؟
آه ! لقد اهتديت إلى الحل .

فما هو ؟

كأس من يكون ! فإن لم تغن الكأس الاولى فكأس ثانية
وثالثة حتى تصفو نفسه ، ويخلو رأسه من عقارب النفاق ،

ويعود طفلاً محبوباً كعهدي به لا يشارى ولا يمارى ولا يكذب
ولا يمين

يا غلام! هات كأساً من يكون!

جاءت الكأس مترعة، ونظر إليها الصديق نظرة غزلة،
ثم شربها فتقطبت لها أسارير وجهه، وتطلقت أسرار قلبه،
ودعوت بكأس ثانية فكاد من طرب يهيم، وخلته ينشد وهو
نشوان:

جمعت بالكأس شملى الله يجمع شملك
بحق رأسك دغى حتى أقبل نعلك

وعُدنا نتكلم عن باريس وصراحة الباريسيين. فقال: أنا
الآن معك، فباريس هي المدينة الوحيدة التي يعيش فيها المرء
على فطرته، يحب ما يحب، ويغض ما يغض، في صراحة وجلاء.
وأنا معك أيضاً في أن الانجليز منافقون. ولكنى أحب أن تعلم
أنهم ليسوا جميعاً سواء

قلت: كيف؟

قال: نحن نعيش في ليفربول. والحرية فيها تكاد تكون تامة،
ويكفى في بيان ذلك أن أقص عليك النادرة الآتية:

قامت في الجامعة مناظرة موضوعها:

« أيهما أحب إليك: أن تكون أحييت مرة وأخفقت،

أو أن تكون خلى القلب من نعيم الحب وعذابه ؟ »
 وقد أعطى الطلبة لأنفسهم مذاهب من الآراء لا حد لها
 في المفاضلة بين الوجهتين . ثم قام في الختام مدير الجامعة وقال :
 « تتكلمون عن الحب ؟ هذا جميل ! ولكنى أرى أننا مقبلون
 على جفاف ، فقد كنت ألمح في شرفات الجامعة الطلاب والطالبات
 أزواجاً أزواجاً يتهادون التحيات والقبلات في خفرو حياء ، وكنت
 أتعلمى حتى لا أفرق بين حبيبين يتناجيان . أما اليوم فقد عدت
 أمشى في أرجاء الجامعة بخطاً مسروقة ولا تقع عيني على محب
 ولا محبوب

أيها السادة ! الحب في خطر ! أنقذوا سمعة الجامعة ! »
 قصّ صديقي هذا الحديث ، ثم نظر فرآنى أفكر ، فقال :
 ما خطبك ؟ قلت لاشيء ! لقد تذكرت أن هذه المناظرة أُلقيت
 هذه السنة في الجامعة المصرية فمن المحتم أن يكون اقترحها أحد
 الأساتذة الأنجليز ، ومن المرجح أن يكون قد استقدم من
 ليفربول : فنحن نأخذ بقاياكم في العلم والحب ، لو تعلمون .
 وعند هذا الحد كانت صفت نفس الصديق ، وتحلل حقه
 المزعوم نحو باريس ، وسألنى عن بعض الناس في مصر . فقلت :
 إنهم بخير ، ولا غيب فيهم إلا أنهم انجليز أو أشباه الانجليز ،
 وأنت تعلم ماذا أريد !

باريس في ٢٥ يونيه سنة ١٩٢٩

صيد القاهرة

أم صيد باريس ؟

صديق ...

كتبت إلى تسألني أن أصف لك ألوان الحياة في باريس ، وألوان الحياة لها في نفسك معان غريبة تشوق النفس وتثير الوجد ؛ فباريس عندك مدينة الفتنة واللهو والمرح والمجون ، وشارع عماد الدين الذي تقضى فيه ليلك وشطرا من نهارك يجب أن يكون في لجبه ، وضوضائه ، صورة مصغرة جداً لشوارع باريس ، وقد ضاق عليك ذلك الشارع البهيج فيما أظن ، فأنت تريد أن تحيا حياة أوسع وأطيب ، ولو عن طريق الخيال ، متأسيا بالشريف الرضى إذ يقول :

فاتني أن أرى الديار بطرفي فعلى أرى الديار بسمعى
وأنا والله عاذرك ، فقد أتيح لى أن أواجه الحياة في مغانى القاهرة والاسكندرية ودمياط والمنصورة وأسيوط ، ثم رأيتها جميعا أضيق من سمّ الخياط ، وما عسى أن يطيب العيش بين أقوام لا يفرقون بين الهزل والجد ، ولا يحلو لهم غير القيل والقال ، وهم في أنفسهم أصغر من أن يقدرُوا نضرة السراء ، أو

قسوة الضراء ، فمن حقتك علىّ وأنا صديقك الذى يأسى لقلق نفسك
وبلبلة خاطرك أن أتخفك ببعض الصور الناطقة من حياة باريس ،
ولكن ماذا أقدم لك يا صديقي ؟ وماذا أختار من بين ما أرى
وما أسمع ؟

تكاثرت الضباء على خراش فها يدرى خراش ما يصيدُ
لكن اسمع ، اسمع ، فقد وجدت الجواب ! ..

أنت بالطبع تعيش فى مغانى القاهرة عيشة خالية من كل
معانى السعادة خلوة القاهرة المسكينة من أودية الصيد ! هذا
مفهوم جدا ، ولا موجب للمواربة لأننا بحمد الله لم نرزق مثقال
ذرة من نعمة النفاق التى يرتع فى ظلالها المنافقون . وكل حظك
فىما أظن لا يتعدى المناوشات الصغيرة فى طريق الاهرام أو
طريق السويس وأحيانا فى شارع شبرا المتواضع حين يخلو
جيبك من بقايا تلك الاوراق المكدودة التى تقلبها بين يديك مرة
ومرة ، وثالثة ، أول يوم من الشهر ، ثم تتفقدتها فلا تجددها فى
صبيحة اليوم التالى . أليس كذلك ؟ بلى وما أحسبك من المكابرين !
ولكن مارأيك فى أن ذلك الصيد الذى تظفر به فى
بعض غدواتك أو روحاتك أطيب مساغا وأحمد عاقبة من صيد
باريس . لا تلو وجهك يا صديقي ولا يثقل عليك كلامي فانا أقول
الحق . إن صيدك فى القاهرة خلوة وديع لا يحمل المسدس ولا

يحسن الضرب بالرصاص . هل فهمت الآن ؟ إن صيدك يكاد يُجنُّ
من الفرح حين يقع في الشباك . وقد يتأبى ويتمنع ، ولكنه
يتمنى أن يظل سجين الفخ أبداً أبدياً . وقد يكون صيدك
مسلحاً ، ولكن بأي سلاح ؟ سلاح الطرف الغضبيض الذي
يحمل في تكسره ما بقي من سحر هاروت وماروت . وقد يطمع
صيدك . ولكن فيم يطمع ؟ في نزهة قصيرة بالسيارة في حراسة
القمر وعلى شواطئ النيل . فان نفحته بشيء من بقايا فضلك فأنت
في عينيه أكرم من أقلت الأرض وأظلت السماء

أما صيد باريس فيختلف عن ذلك الصيد أشد الاختلاف .
ولكن هل في باريس صيد ؟ لقد بحثت كثيراً هذه المسألة ،
نظرتها أولاً في أمهات الكتب وفي المعاجم والقواميس ،
واختبرتها ثانياً في المسارح والمشارب والحدائق والشوارع والميادين ،
وسألت عنها الناس ، من جميع الأجناس ، وانتهيت بعد البحث
الطويل إلى الحقيقة الآتية :

« ليس في باريس صيد . ليس في باريس إلا ظباء هرب
منها قانسوها »

هذه هي الحقيقة التي لا يمتري فيها إلا كل مغرور مفتون ،
وأي لذة وأي فتنة ، وأي سحر بقي لتلك الظباء الغوادر اللاتي
أضناهن كيد الليل ومكر النهار ؟ إن الفتاة لا تجدك إلا بعد

أن تكون قد ألفت جميع ضروب الختل والخداع : وفي صدر كل فتاة باريسية خاطر يوسوس وقلب يخون ، ويندر جداً ألا يكون في جيبها سلاح محشو بأسباب الحتف والهلاك . ففي كل جريدة وكل نشرة وكل مجلة أخبار مزعجة بشعة مخيفة عن ضحايا الحب الأثيم . وإذا كنت تجد أحياناً في الصحف المصرية صدّى لحوادث الفتيات الفاتكات فذلك وشّل قليل جداً إذا أُضيف إلى هذه المجازر البشرية التي تقع في باريس مدينة النور فيما يزعمون ولك أن تسأل يا صديقي عن سر هذا الوباء الخلقى الذي يفتك بالناس في باريس ، وتوضيح ذلك سهل : فإن جمهرة الفتيات اللائي تتكوّن منهن عصابات الإثم والغواية ينشأن عادة من طبقات فقيرة . والطبقات الفقيرة هنا هي طبقات العمال . والعامل الفرنسي في الأغلب رجل خشن جاف تشقيه مهنته ويضنيه عمله . فإذا شبت له طفلة ألحقها بعمل من الأعمال يكون غالباً في دار من دور التطريز ، وفي تلك الدور طبقات مختلفة من النساء يعرفن جميعاً كيف ينظم الهندام الفتان ، وكيف يكون للمرأة اللبقة أصحاب وأخدان . وكذلك تقضى الفتاة يومها في بيئة لينة تقتل الوقت بالعمل وبالتحدث عما وقع لفلانة مع فلان ، والفتاة الحديثة طُلعة متشوّفة تصنى لكل حديث ، وتتطلع إلى كل قادم ، وتتأمل كل حركة ، وتميل مع كل ريح . فإذا جاء المساء عادت إلى مأواها فوجدت

أمها في ثيابها الخَلقة ، ولقيت أباهَا كعادته قدر الثياب عابس
الوجه لا يعطف ولا يلين ، ثم تُقدِّم المائدة فتراها باردة لا طعم لها
ولا لون ، لأنها مائدة عمال فقراء يتقاسمون اللقمة ويتناهبون
الحساء ، فترجع الفتاة إلى ذاكرتها تستحضر ما سمعت طول
اليوم من وصف المآدب والموائد حيث كان النساء العاملات
يعددن بإسهاب وإطناب ما كان من ترف وفتنة ورفاهية مع
الأصدقاء والخلان

ومن تلك اللحظة تتسع الهوة بين الفتاة وبين أهلها فهي
بينهم في سجن مظلم لا نوافذ له ولا أبواب ، وتمر الأيام تلو الأيام
وهي تفكر وتدرس وتقارن بين حالتها التعسة وحالات رفيقاتها
اللاتي يمرحن في بحاجج النعيم . وتسأل نفسها : أياكون هؤلاء
الرفيقات من بيوتات أغنى وأقدر على جلب أسباب المرح والرغد
والإقبال ؟ ثم يتضح لها بعد البحث أن النشأة تكاد تكون واحدة
وأن هؤلاء اللاهيات المرحات لا يمتزج عنها إلا بشيء واحد ، شيء
واحد فقط لا أكثر ولا أقل ، وذلك الشيء الواحد ما هو وما
عسى أن يكون : هو الصديق !

الصديق ! نعم هو الصديق الذي يغيِّر الفتاة من حال إلى
حال ، وهو من أمرها على كل شيء قدير ، ولكن كيف السبيل
إلى هذا الكنز الثمين ؟ كيف ؟ كيف ؟ ذلك ما تحار فيه الفتاة ، لأنها

لا تزال في أول عهدھا بالحياة ، وهي ككل فتاة ناشئة تحمل في صدرھا بقايا طيبة من عناصر الحجل والحياء ، وكذلك تقضى عدة أسابيع أو عدة أشهر وهي فريسة الهواجس والبلابل والتأملات السود ، لأنها أضعف وأوهن من أن تصارح أمھا أو رفيقاتھا بتلك الحاجة الملحة : حاجة الفتاة الشقية العذراء الى الصديق

وفي أثناء هذه الأزمة الخطيرة تتأمل وهي في دار من دور السينما فإذا فتي يسارقها النظر ويهدى اليها طيف ابتسامة ، فتعود المسكينة إلى نفسها فإذا قلبها يخفق ، وبصرها يزيغ ، وتدمدم في فرح مشوب بالخوف : هذا صديق ! ثم تجرؤ رويداً رويداً فتبادله النظرات والبسمات في هدوء متكلف مصنوع ، لأنها صارت كالثمرة الناضجة تنتظر أول هزة لتودع الدوح وتهوى إلى الأرض ! ويتلاقى العاشقان على الباب ، فيقول الفتى : مدموازيل ! فتجيبه الفتاة : مسيو ! ويقف الأمر لأول مرة عند هذا الحد . فإذا مضت الفتاة إلى بيتها قضت الليل كله أرقّة مهتاجة لا تعرف السبيل إلى القرار . هذا فتي رشيق حلو الشمائل مليح الهندام ، يظهر انه تلميذ في مدرسة ثانوية أو طالب في إحدى كليات الجامعة ، أو موظف ناشئ في إحدى المصالح العمومية ، ألا يكون هذا هو الصديق المنشود ؟

وفي اليوم التالي تبكر الفتاة إلى نفس الملهى عليها تجد رفيق

الأمس ، وما أشد سرورها حين تراه ينتظرها على الباب وهو
في رُواء آنق وأروع ، وقد أخذ زينته ، ومَوَّج شعره ، وأصلح
من هندامه ، وأحضر لها باقة من الزهر النضير .

هذا يا صديقي شعر بديع يقع على قلب الفتاة موقعاً أخذاً
يأسر منها العقل والحواس . . ثم تمضى الأيام في فتنة متصلة أنت
أعرف بما لها من دقائق وتفصيل ، إلى أن يقع الخطر ، وهذا
الخطر يبدو لأول وهلة بسيطاً مأمون العواقب لأنهما قد تواعدا
على الزواج . ولكن كيف يكون ذلك والفتى قد نشأ في بيئة غنية
وقد أرسله والداه ليتم دراسة الطب أو الحقوق في باريس ، ومن
الصعب إن لم يكن من المستحيل أن يعينه أهله على الزواج من
فتاة فقيرة ليس لها مهر ولا ثروة ، والمهر والثروة هما أساس
الزواج في أوروبا وخاصة في باريس

وكذلك يفترق العاشقان بعد أن تكون الفتاة قد ألفت نفسها
إلى الأبد في هاوية الشقاء . ومن هنا ينشأ الحقد الخالد حقد الفتاة
للعوب على كل قتي جميل ، فان سمعت أن فتاة باريسية سلبت
عاشقها ما يملك ، أو ضربته بالمسدس ، أو طعنته بالسكين ، فاعلم
يا صديقي أنها تنتقم من عاشقها الأول ، وكل عاشق هو في عينها
صورة مكررة لذلك الغادر الختال . . .

افهم هذا واقنع بصيد القاهرة ، واذكر أخاك بخير ، والسلام .

باريس في ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٣٠

شهداء السنين

شهداء السنين؟ إى والله! وكم للسين من شهداء
 إننا لا نتحدث فى هذا المقال عن ضحايا الحب، ولا عن
 الصرعى الذين تنقل الجرائد أخبارهم صباح مساء، فان باريس من
 بين مدن العالم تمتاز بهذه المآسى الشنيعة المزعجة التى تقع بين العشاق
 فى كل حى من أحيائها العديدة. ولعل السرف فى هذا يرجع إلى أن
 أهل هذه المدينة شديدا الحساسية، سريعو التأثر والانفعال.
 والباريسى بطبعه رجل قلق كثير الوسواس والشجون. ويزيد فى
 هذا سيادة النظام الخطر: نظام المخادنة، وهو نظام لا يقصر شره على
 الأعزاب وحدهم، وإنما يتعداهم إلى الأزواج: فليس من المستغرب
 هنا أن يكون لكل زوج خلية ولكل زوجة خليل. والقوم قد
 درجوا على الشر حتى لا يرجى لهم شفاء، فحوادث الحب والخيانة
 هى كل مايجرى فى المسارح ودور السينما، وكل مايجرى أيضا فى
 الدراسات الأدبية التى يتلقاها الشبان فى المعاهد والجامعات. ولنظام
 المخادنة خيره وشره: فهو خير لانه شبه دواء لهذا الجنون المستعز
 جنون الشباب، وهو شر مستطير لانه يخلق من الفساد الخلق
 والاجتماعى أمراضا كثيرة أسرها الموت الذريع كما هبت رياح الشقاق

لا تتكلم هنا عن ضحايا الحب ، وإنما تتكلم عن شهداء الفاقة
 والبؤس ، فإن باريس لم تستطع ولن تستطيع أن تصير أهلها جميعاً
 سعداء ، وكيف يمكن ذلك ونحن في عصور لا تعرف ما القناعة
 وما الزهد وما الرضا بالقليل ، وقد عفت منها جميع الرسوم الدينية
 التي كانت تحمل الناس بقوة العقيدة على الرضا بأرزاقهم وحظوظهم
 في الحياة ، ومن النادر أن ترى كنيسة مزدحمة بأسراب المؤمنين
 والمؤمنات ، حيث تلقى العظات والكلمات الحكيمة للتأسي بالأنبياء
 والقديسين ممن قضوا أعمارهم ينتظرون ما تسوق إليهم الرحمة
 الإلهية من صنوف البر والاحسان . إنما يعيش أهل باريس
 في التطلع بعضهم إلى بعض وحسد من يجد لقمته في الصباح
 وحسائه في المساء ، وقد يتشوفون إلى من تواتيه الظروف فينحدر
 إلى الحانة يعب ما طاب له من ألوان الشراب . تلك هي حياة
 أهل هذه المدينة التي تأكل أبناءها كما تفعل القطعة المجنونة ،
 وليس في الدنيا مدينة يموت فيها الإنسان جوعاً إذا نفدت دراهمه
 غير باريس ، وتشبهها لندرا وبرلين في هذا الجانب المظلم . فليس
 ازدهار المدن في الواقع إلا مُتعة للأغنياء والموسرين ، أما الفقراء
 فلهم من المدن المزدهرة حظ البأساء والضراء

في باريس طائفة كبيرة من أهل البطالة والفراغ ، وهذه
 الطائفة كثيرة التطلع والتشوف إلى حوادث الطريق ، فهذه

الملاهي الوقتية التي تسوقها الحوادث هي كل ما يملكون من أسباب التسلية . وكذلك تراهم يتجمعون تجمع النمل في لحظة واحدة إذا تصادمت سيارتان ، أو سقط كلب تحت الترام ، أو قبض البوليس على رجل متشرد ، أو وقف بائع متجول في ناحية يعرض ما عنده من طرائف الأشياء ، وهؤلاء الناس يسميهم الباريسيون « بادو » badaud ولهم فيهم قصص وأحاديث

كنت أمس في الساعة الحادية عشرة صباحاً أمشي على شاطئ السين فأراغني إلفتي يلقى بنفسه في الماء . وسرعان ما تجمع الناس وفي دقائق معدودة جاء البوليس وجاء رجال الاسعاف ، وفي هذه الأثناء مرت بالخاطر أخيلة كثيرة وأطياف شتى من صور الحياة : من عسى أن يكون هذا الفتى ؟ ومن أي طبقة ؟ وما هي محتته ؟ وكيف استسلم إلى هذا المصير الفاجع ؟ وكيف بدا له أن يودع باريس ؟ وكيف كان حقه على الوادعين والوداعات ، والآمنين والآمنات ، قبيل اللحظة التي أقدم فيها على هذا الجرم الفظيع ؟ وما الذي كان يرباله من نعماء هذه الدنيا وبأسائها ، حين حملته رجلاه إلى هاوية الفناء ؟ وكيف كان شعوره بالموت والحياة ، والعدم والوجود ؟ وفيمن كان يفكر ؟ وإلى من كان يحن ويشتاق ؟ وعلى من كان يعتب ؟ وكيف كان يتمثل ظلام المهلاك ؟

مرت هذه الأسئلة بالخاطر مرّ الطيف ، ثم رفعت بصرى
أتأمل ما أُمّى ، فاذا رجال الاسعاف قد نزلوا فى فُلك صغير
يبحثون هنا وهناك عن جثة الغريق ولكنهم لا يهتدون ، وبعد
لحظة تراءى للمتجمهرين شبح على الماء فأهابوا بالبحارة ، فضى
بعضهم فى فُلكه حتى أدرك ذلك الشبح . ولكنه لم يجد إنساناً
إنما هى لفافة من الورق تطفو على وجه الماء ، فعاد البحار يبحث
فى مكان آخر ، وبعد عشر دقائق عثرت أسنان الملاقط على جثة
الغريق فرفعوه ، وما كاد يبدو وجهه حتى حسبه الناس ينوس ،
ورجوا أن يكون فيه رمق من الحياة ، وزادهم طمعا فى نجاة ما بدا
من بريق شعره ، ونضارة جسمه . وجاء الطبيب فخلع عن المسكين
ملابسه ، وشرط أذرعته فخرج الدم يتصبب ، وبدأت عملية
التنفس الصناعى فى مهارة ونشاط

وكان الناس يشاهدون هذا المنظر فى تطلع لا يصحبه ألم
ولا حزن . أما أنا فقد وقفت ذاهل اللب أنظر ما سيكون ، ولعل
هذا يرجع إلى أننى كدت أغرق فى عهد الحداثة لولا أن أتاح الله لى
مروءة ذلك الفلاح الصالح المرحوم أحمد الصواف ، وقد أنقذت
بنفسى أربعة من الغرق ، أعانى الله على إنقاذهم من تلك الميته الشنعاء
ميته الاختناق

منظر محزن يخلع القلوب . رأيت أن أنظر فيه أخلاق الناس

في باريس ، وقد أدهشني أن رجال الاسعاف كانوا يتضحكون أحياناً وهم يجرون عملية التنفس ، وزادت دهشتي حين رأيت المشاهدين يتبادلون بعض النكت في طمأنينة وهدوء ، وبلغ الأمر أن فاه بعضهم بكلمة مضحكة فأغرق الناس في القهقهة بشكل مخجل مريب ، حتى كاد البوليس يفرق جمعهم ، ثم تركهم في غيهم يعمهون

ومضت ساعة كاملة في عملية التنفس والصريع ملقى على وجهه يقاسى جسمه الفاني ألواناً من الإجهاد ، وطال بي الوقوف وقرصني الجوع فضيت أتناول الغداء ، ولا أدري كيف عدت بعد ذلك لأرى مصير الغريق ، وقد رأيت الناس لم يتفرقوا ، ورأيت رجال الاسعاف ماضين في عملية التنفس بنفس النشاط الذي ابتدؤوا به فلما دقت الساعة الثانية وكان قد مضى على عملية التنفس أكثر من ساعتين عرفوا أن لا أمل في ذلك الصريع الذي سقط شهيداً البأساء في باريس

وسرعان ما جاءوا بنعش صغير حملوا فيه جثة الميت ، حملها رجلان اثنان وتبعهما الناس وهم يتزاحمون كأن لم يروا من قبل ميتاً يحمل على الأعناق ، وسرت مع السائرين أنظر ما سيكون فرأتهم يدخلون به المستشفى الذي يسمى (بيت الله) فعجبت كيف صحت التسمية لذلك المستشفى الذي يتلقى على الرحب والسعة من لم يبق لهم غير رحمة الله

وقد خفت حركة الناس حين وصلوا بالميت إلى ذلك المكان
إذ رأوا أن ملاحقته هنالك ضرب من الفضول المرذول ، وأقبل
عدد من السيدات في الثياب البيض ثياب التمريض فتلقين الميت
بعض التسيّحات والدعوات

كان ذلك الحادث أمام كنيسة نوتردام وكان مفهوماً بالطبع
أن الغريق من أهل ذلك الحى . ومع ذلك لم يُرَ أحد يهتم بالميت
فلا أهل ولا أصدقاء ، ولم يُرَ فى الحاضرين من يقول : هذا هو
المسكين فلان الذى كان يعمل فى مخزن فلان
فكيف وقع ذلك ؟

الجواب حاضر : ذلك أن باريس تستقدم إليها العمال الفقراء
من جميع الأقاليم الفرنسية : ثم تتركهم بلا ناصر ولا معين
وفى باريس منازل لا يواءم البائسين فيها ما يسمونه « منازل
الحبال » وسميت كذلك لأن فيها حبلاً يضع عليها البائسون
ثيابهم ثم ينامون على البلاط : بأجر مقبول هو ثلاثة مليمات فى
الليلة ، وفيها ما يسمى « بيت الشعب » وهو بيت كبير جداً ينام
فيه الفقراء ويتناولون لقمة فى الصباح وحساء فى المساء : بأجر
مقبول أيضاً هو ثمانون قرشاً فى الشهر . ولكن أظن أن جميع
الشبان البائسين يصبرون على مواجهة الحياة فى بيت الشعب

ومنازل الجبال ؟ هيهات ! فقد غرست في أنبائها روح الترف ،
وعلمتهم كيف يشورون على أوضاع الاجتماع ، كما غرست فيهم روح
السخرية ، وعلمتهم كيف يشهدون مصارع المتحرين في
هدوء مطبوع

باريس ! أيتها الطاحونة العاتية ! أيتها الدنيا الغادرة ! كم فيك
من قلب مفطور ! وكم فيك من دم مطلول ! ومع ذلك لا تزالين
أمل الآمل وأمنية المتمنى ، وماوى ماند وشرد من ألباب الشعراء
وعباقره الفنون

٢٠ أكتوبر سنة ١٩٣٠

حديث المائدة

كنا خمسة على المائدة وكانت ربة الدار تسأل كل واحد عما عمله
في يومه ، فابتدأ أحدنا وقال :

في هذا اليوم تغديت في فرساي ، في مطعم أنيق لم تقع العين
على مثله ، فأكلنا كيت وكيت ، وشربنا زيت وزيت ، وأخذ يعدد
أصناف الطعام والشراب بشكل شائق جذاب ، حتى كاد لُعاب
الحاضرين يسيل شوقا إلى ذلك الطعام الموصوف

قلت : ومن الذى هداك إلى ذلك المطعم ياسيدى ؟ فأجاب :
إنه قسيس ، ولا يعرف قيمة الطعام غير رجال الدين ! فهم وحدهم
أهل الخبرة الدقيقة بمختلف المطاعم وحانات الشراب !

ماذا يملك

رئيس الجمهورية الفرنسية

صديقي ...

لقد ظلمتني حين كتبت تسألني أن أفصل لك بعض الأنظمة الدستورية في فرنسا الحاضرة ، فانا رجل حُبب إليّ أن أهتم بالماضي من حياة الشعوب . وهذا نفسه جانب من جوانب الضعف في حياتنا العلمية والأدبية ، وهو ضعف يكاد يُقصر شره على أمم الشرق . فالمصريون مثلاً يعرفون من أخبار الأمويين والعباسيين ما لا يعرفون من أخبار الفاطميين والمماليك ، حتى إذا وصلت إلى العهد الأخير الذي تكوّنت فيه مصر الحديثة وجدت سواد المتعلمين يجهل ذلك العهد تمام الجهل . ومن أجل هذا كانت حماستنا للدراسة التاريخ حماسة فاترة ، لاننا نبدأ بدراسة مالا تمسنا دراسته ، وننتقل بأذهاننا وعقولنا الى أجيال بعيدة لا تربطنا بها غير روابط ضعيفة أصبحت على أهميتها في ضمانة التاريخ . ولو أننا ابتدأنا فدرسنا حياتنا السياسية والاجتماعية والأدبية لكان نشاطنا أوفر ، وإحساسنا أعمق ، وفهمنا أدق . لان العصر الحاضر أقرب إلينا ، وأعلق بنفوسنا وعقولنا وقلوبنا وحواسنا . وهو لذلك جدير بأن يجعلنا أكثر

استعداداً لفهم العصور التي خلقتها وكونته ووصلت به الى صورته الحاضرة . وإنك لتعلم أنه لولا اهتمام الشبان في مصر بمتابعة الحوادث اليومية لكان من الممكن أن تجد عددا كبيرا من طلبة المدارس الثانوية يجهلون كيف ابتدأت النهضة الأخيرة في سنة ١٩١٨ . وأنا حين أقول (١٩١٨) متأكد أن بعض الشبان سيتلفت ويقول : « هذا خطأ ، إن النهضة المصرية الأخيرة ابتدأت سنة ١٩١٩ » ويندر جدا أن تجد من الشبان من يميز جيدا كيف ابتدأ مصطفى كامل وكيف انتهت حياة محمد فريد : لأن الكتب المدرسية لا تعنى بذلك ، وهي حين تُعنى به تذكره مقتضيا مخطوفا لا يغنى ولا يفيد . وقل مثل ذلك في الشؤون الأدبية ، فإن الشبان يعرفون عن امرئ القيس وزهير ، على بعد العهد ، مالا يعرفون عن البارودي واسماعيل صبري ، وقد لقيت في باريس شابا من « البوسنة » يحفظ قصيدة امام العبد في مناجاة الاهرام ! فحدثني بربك كم شابا في المدارس الثانوية يعرفون من هو امام العبد وكيف ناجى الاهرام ! وعساك لا تجد من يعرف « امام العبد » غير من ساجلوه واكتووا بأهاجيه مثل شوقي وحافظ ومطران

وهذا الجهل الذي نرمي به شبانا مصدره أنهم يكتفون في الأغلب بما يتلقونه في المدارس الثانوية . وأساتذة تلك المدارس يحدثون الطلبة عن كل شيء إلا ما يختص بالعهود الأخيرة ، وعساك

تذكر مهرجان شوقي : فقد كان من المقرر أن تلقى عنه محاضرة
في الجامعة المصرية ، وكانت الكلمة للدكتور طه حسين ، أفتذكر
ماقال ؟ لقد ألقى محاضرة عن الأخطل ، بحجة أن الجامعة لا يدرس
فيها غير الأموات من الشعراء !

وهذا الإحجام عن دراسة العهود القريية والحاضرة له سبب :
ذلك أننا في مصر تغلب علينا الوساطة الشخصية ، ونكاد نقع صرعى
لما وشات الأحزاب . فهناك كتب عن « التربية الوطنية » لمدارس
المعالم عرض فيها المؤلفون لحداث العهد القريب ثم أغفلوا عامدين
اسم « سعد زغلول » لان اسمه قد يثير حقد بعض الناس ! !

وبعد فهذه مقدمة ضرورية طويت فيها السبب الذي
أحجمت من أجله عن موافاتك بما سألت . وأنا محدثك اليوم
عما يملك رئيس الجمهورية الفرنسية لانه على أى حال « مسيو »
كما يقول الباريسيون ، ولا تنتظر منى تفصيلا طويلا لاني رجل
ملول ، ولا أقول هيوب : فقد أقدمت يوم جد الخطب غير وجل
ولا هباب ، وما عهد الثورة يبعيد

ولتعلم أولا أن غرام فرنسا بالنظام الجمهورى غرس في نفوس
أبنائها الحق على العهود الملكية . وهذا الحق قد أفسد عقول كثير
من أساتذة التاريخ . حتى رجال السوربون . فمن النادر أن يتكلموا
عن ملوكهم بعبارات الاحترام . والغالب عليهم أن يخوضوا

في أحاديث ملوكهم خوفاً أثيراً . وقلّ منهم من يفرق بين الحياة الاجتماعية والحياة الشخصية ، حتى أنك لتدرك أنهم لا يصلحون أن يكونوا أساتذة تاريخ . والفرنسي كما تعلم من أذكى الناس ، وهو يوجّه ذكائه أحياناً توجيهها خطراً حين يؤرخ الملوك ، ويكفي أن أذكر لك أن بعض أساتذة السوربون أخذ مرة يعدد مثالب ملك من ملوكهم الماضين ثم ختم محاضرتة بالعبرة الآتية إذ قال :

« وبعد هذا كله لا ينبغي لنا أن ننسى أن ذلك الملك أتى بحسنة غطت على جميع سيئاته : وهي أنه تفضل فمات !! »

وهذه العبارة تريك إلى أي حد يبرع أولئك القوم في إلقاء النكتة . . . وقد انقضى عهد الملكية بخيره وشره ، ولم يبق له من الأناصر إلا أقلية ضئيلة لا يحسب لها حساب ، أفندري ما نصيب رئيس الجمهورية في فرنسا الحاضرة ؟

اسمع واعجب أيها الصديق

إن رئيس الجمهورية الفرنسية يشابه تمام المشابهة ذلك الخليفة

العباسي الذي قال

أليس من العجائب أن مثلي يرى ما هان ممتنعاً عليه

وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شيء في يديه

فهو يملك كل شيء ، وليس بيده شيء . إن رئيس الجمهورية

الفرنسية له حقوق تفوق حقوق الملوك . فهو بحكم الدستور

الفرنسي يملك من السلطة أكثر مما يملك ملك الانجليز وملك
البلجيكي ؛ وهو مع هذا أضعف من أصغر فلاح في انجلترا أو
بلجيكا . وأصغر فرنسي يملك من الحرية الشخصية ما لا يملك ذلك
الرئيس . . . وإليك بعض البيان :

رئيس الجمهورية الفرنسية يملك حل البرلمان ، فالنواب
والشيوخ يعيشون تحت رحمته : إن شاء أبقى عليهم ، وإن شاء
مزقهم شراً ممزق ، وتركهم يخطبون وداد الناهبين من جديد ،
وياله من عبء ثقیل !

ولكن مهلاً ! فإن ذلك الرئيس بحكم الدستور لا يملك حل
مجلس النواب إلا إذا صادق مجلس الشيوخ ، وهيهات أن يصادق
الشيوخ على حل مجلس النواب ، لأن النواب إليهم الأمر في انتخاب
الشيوخ ، وبذلك تتلاشى سلطة رئيس الجمهورية على البرلمان
رئيس الجمهورية له حق العفو : فييده أن يعفو عن حكم عليهم
بالإعدام أو قضي عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة ، فهو بذلك سيد
ترجي رحمته ويخشى غضبه

ولكن عفواً ! فإن رئيس الجمهورية لا يملك حق العفو إلا
إذا اقترحتة اللجنة الخاصة بذلك في وزارة الحفانية

وعلى هذا ضاع فضله في إنقاذ من أشقاهم القضاء . وقد يحدث
أن يقتنع هو ببراءة بعض المتهمين ، ولكنه مع ذلك لا يملك أن

يتدخل أو يتعقب ، لأن الدستور لا يجوز له ذلك ، وهو الدستور
من الخاضعين

رئيس الجمهورية هو الذي يرأس مجلس الوزراء فلا يُقضى
بشيء إذن وهو غائب

ولكن رويداً ! فان الوزراء هم الذين يُعدون كل شيء ،
ويقضون في كل شأن . وليس لرئيس الجمهورية أكثر من شرف
الحضور ، وليس له بحكم الدستور أن يناقض الوزراء ، وله فقط
أن يبدى ملاحظاته . وللوزراء أن يخالفوه إن شاءوا ، وأن
يوافقوه إذا أرادوا . وقد كان يقع حين كان بوانكاريه رئيساً
للجمهورية ، وكان كلنصو رئيساً للوزارة ، أن لا يفكر رئيس
المجلس في دعوة رئيس الجمهورية : فكان بوانكاريه لا يعلم بموعد
انعقاد المجلس إلا حين تصله برقيات هافاس !

رئيس الجمهورية مطلق التصرف في جميع أعماله ومشئاته
يؤلى من يشاء ، ويعزل من يشاء ، ويعطى ويمنع كيف أراد
ولكن هذا كله لا قيمة له ، وليس فيه أثر للحرية
الشخصية إذا لاحظنا أن الدستور الفرنسي ينص على أن أعمال
رئيس الجمهورية وتصرفاته لا تعمل عملها المنشود إلا إذا وُضع
إمضاء الوزير المختص بجانب إمضاء الرئيس
ولا تدهش إذا قلت لك إن رئيس الجمهورية الفرنسية

لا يملك حق مخاطبة الجماهير . فان سألت ما معنى ذلك فاني مخبرك
بأن رئيس الجمهورية ليس له أن يُعدّ الخطب التي يلقيها في الحفلات
الرسمية ، وإنما يكتبها الوزراء بأنفسهم ثم يقدمونها إليه مطبوعة
وفي أكثر الأحيان يجلس الرئيس من الوزير مجلس التلميذ من
الأستاذ حيث يُريه الوزير المواطن التي يخفض فيها صوته
والمواضع التي يتكلم فيها بشدة وفقاً للقاعدة المأثورة : « لكل
مقام مقال » !

ولك أن تسأل بعد ذلك : إذا كان هذا مركز رئيس
الجمهورية، فما الموجب لبقائه ؟

وأجيبك بأن الفرنسيين أنفسهم يسألون هذا السؤال ،
ومنهم من فكر في إلغاء هذا المنصب اكتفاء بقوة البرلمان
ولكن هل معنى ذلك أن النواب والشيوخ يعيشون في فرنسا
عيش الحكام المستبدين ؟

لا . لا . فان الفرنسيين يكرهون السيطرة والاستبداد
وقسوتهم على نوابهم وشيوخهم شديدة ، ورقابتهم عليهم قاسية .
وقد حدثنا بعض الأساتذة أنه كان أستاذاً بإحدى المدارس
الثانوية فقدم أحد النواب لزيارته في مكتبه وأخبره أنه يقترح
بصفته أباً لتلميذ لا بصفته نائباً أن يتفضل الأستاذ فينقل ابنه
إلى فرقة أعلى . فرفض الأستاذ الاقتراح بحجة أن ذلك الابن

جاهل وكسلان . وهنا ثار الزائر وقال : بصفتي نائباً أفرض أن
ينقل ابني إلى فرقة أعلى من فرقته . فغضب الأستاذ وانتهر
النائب وطرده من مكتبه . وفي اليوم التالي - بعد مفاوضات
سرية - جاءت إشارة من وزير المعارف بنقل ذلك التلميذ إلى فرقة
أعلى : فثارت هيئة المدرسين واحتجوا على الوزير وكشفوا مهزلة
ذلك النائب المختال !!

وقد عقب الأستاذ على هذه القصة بأن فرنسا لم تكن
لتطرد الملك المسؤول لتقع تحت سيطرة ٥٠٠ ملك غير
مسئولين !

والخلاصة أن رئاسة الجمهورية الفرنسية نكبة على كبار
الرجال : فقد يكون الرجل من أنفع الناس لأُمَّته ، ثم ينتخب
رئيساً للجمهورية فيُشَلَّ نشاطه سبع سنين . وقد حُرمت فرنسا
من عبقرية بوانكاريه أيام الحرب ، لأنه كان سجيناً طليقاً في قصر
الألزيه ، وأنت تعرف ما يقاسى القائد المغوار حين يحال بينه
وبين الميدان

ماذا يملك رئيس الجمهورية الفرنسية ؟ ماذا يملك ؟
إنه لا سلطان له إلا بفضل ماضيه ، إن كان من أصحاب الماضي
النبيل ، إنه لا يملك إلا كلمة الخير يقدمها خالصة إلى الوزراء ،
وقد يكون سلطانه لا حدَّ له إذا كان ممن رُزقوا قوة العقيدة

وحرارة الاخلاص ، فان الفرنسيين أهل كبرياء وعناد ، ولا
يطيعون إلا راضين مقتنعين

« وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون »

باريس في ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٣٠

كان ياما كان

تحدث بعض الناس في هذه الأيام عن وصول العرب إلى
أمريكا قبل كريستوف كولومب ، وهي مسألة تحتاج إلى تحقيق
طويل ، والذي لا شك فيه أن العرب فرضوا سيادتهم على عدد عظيم
من الأمم القديمة ، وملكوا ناصية السياسة والمدنية بلا مزاحم نحو
ثلاثة قرون ، وهي مدة ليست قليلة في سيادة الشعوب

كل هذا جميل ، ولكن ينبغي أن نلاحظ أن هناك أعجوبة أخطر
من أعجوبة العبور إلى أمريكا قبل أن يعرفها الاسبان ، أو يدري
القارئ ما هي تلك الأعجوبة ؟

تلك هي احتلال فرنسا وإنجلترا وإيطاليا لأكثر أقطار الشرق
الأدنى في أقل من أربعين عاما

لقد آن أن نفكر في الحاضر ، وأن نعرف أن احتلال العرب
لجزء من أوروبا وتفكيرهم في فتح أمريكا لا يغنيان شيئا في هذه
الفضيحة الشنيعة فضيحة الصبر على الاستعباد

وبيد الأمم الشرقية محو هذا العار ، لو فكرت جدًّا في الخلاص
وزهدت في المجد المكذوب الذي يمثل هذا البيت :

وتفرقوا شيعاً فكل قبيلة فيها أمير المؤمنين ومنبر

زفرات

لم أقضِ منك مُرادى ولا شَفِيتُ غليلى
 يافِتْنى فى مُقامى ومُحْنى فى رَحلى
 ضَلَلْتُ، والحبُّ تيهٌ إلى النجاة سبيلى
 فمن سِوَاكَ نصيرى ومن سِوَاكَ دليلى
 أحبُّ فيك عذابى يا هاجرى وذُبولى
 وتستطيبُ جُفونى على الشَّهاد عويلى
 يا طيفُ أنت كتابى على النوى ورسولى
 فصِفْ لظلامِ قلبى مدامعى ونُحولى
 وانتقلْ إليه شَكَاتى فى حُبهِ وذُهورى
 وما جَنَاهُ رقيبى وما جَنَاهُ عذولى
 وصِفْ غليلَ فؤادى لريقهِ المعسول
 وما تُجَنُّ ضلوعى للحظهِ المكحول
 ربَّاهُ مَنْ لا سِيرَ مُصَفِّدٍ مَكْبُول
 يهيمُ بينَ رُسومِ من المني وطُلُول
 حَبَسْتُ وَقَدْ حَشَاهُ على غريرِ مَلُول
 مُصرَّدُ العطفِ ضارٍ على العقوقِ مَطُول

سهره في قهوة الجامع

صديقي الأستاذ أحمد الزين

تحيتي اليك من هذه الديار التي طالما تشوقت اليها ، وحننت
إلى ربوعها العامرة ، وقرأت أخبارها فيما تُرجم عن حياتها إلى
اللغة العربية

وبعدُ فقد كنت سألتني أن أكتب اليك ، ووعدتك مخلصاً
بذلك ، وهأنا أفى بالوعد ، فسامحني أولاً أن لم أقل « هأنذا » فإنها
ثقيلة ولم يلتزمها إلا المتكافون ، وأنت تعرف إلى أي حد يُملّني
التكلف ؛ ويشغل على التزام ما لا يلزم في الكتابة وفي الحديث .
لقد ذكرتُك يا صديقي ؛ ولكن حاشا أن يمر ببالك قول

عنتره العبسي

ولقد ذكرتُك والرماح نواهلُ

مني ويبيض الهند تقطر من دمي

فوددت تقبيل السيوف لأنها

برقت كبارق ثغرك المتبسم

لا تذكري هذا لأنك تعرف أولاً أن الله كتب علينا أن

نعيش في سلام هو شر من الحرب : فلا رماح ولا سيوف ؛

وتعرف ثانياً أنه ليس فيك أى سمة من سمات الملاحاة حتى نذكر
بسماتك العذاب ، وهذا لا يجرحك بالطبع ، لأنه ما حاجتك
إلى الجمال وقد وقفت حياتك على مغازلة الصحف البالية فى دار
الكتب المصرية . إنما يحتاج إلى الجمال أديب متأنق تقضى عليه
تكاليف الحياة بأن يلتقط الأسرار فى صالات الرقص وأبهاء
الوزراء ، أمثال فلان وفلان ، وقد أراحك الله من كل
ذلك ، فاحمده حمد المخلصين على أن منحك فقط بنية متواضعة
وذهنا ثاقبا ، ولسانا فصيحاً يصل بك إلى ما تريد ، أو بعض
ما تريد ، فى عصر لا تغنى فيه بلاغة القلم ولا فصاحة اللسان .

لقد كنت نسيبتك يا صديقى ، ولم يذكرنى بك إلا قهوة
الجامع فى باريس ، فقد سافر خاطرى الى قهوة الحامية الجديدة
بالقاهرة . حيث تقضى سهراتك فى صحبة أصدقائنا الأساتذة
محمد الهراوى وحسن القاياتى وكامل كيلانى ومحمد عبد المطلب .
وحيث تشربون مالد وطاب من قهوة أبى الفضل لاقهوة أبى نواس .
وأنا لا أتهمكم يا صديقى بأنكم تؤثرون قهوة أبى الفضل لأنها
رخيصة ، كلا ، معاذ الله أن يمر بخاطرى ذلك ، فأنا أعرف أنك
لا تعاقر الراح لأنها لا تتناسب على الأقل مع رجل معمم يحمل
إجازة الأزهر الشريف ، وصديقنا الهراوى رجل محتشم أشد
الاحتشام ، والسيد حسن القاياتى من سلالة أبى هريرة رضى الله

عنه ! وأخونا كامل كيلا نفي مشغول بتدبير صحته ؛ وهو عافاه الله
مهذّم لا يخاطر بحياته في منازلة الصهباء . يبقى الشيخ عبد المطلب
وهو رجل لو رآته الكأّس لوّلت هاربة الى حيث لا تعود ، فليس
منها وليست منه ، مهما حشر نفسه في زمرة الشعراء ! وبهذه
المناسبة تستطيع أن تطمئن على أخيك من هذه الناحية ، فأنا أيضاً
لا أشرب الراح ، أو على الأصح لا أشربها الا مُشعّشة مقتولة
لا ترخي المفصل ، ولا تزيغ البصر ، ولا يسرى روحها الى قرارة الأسرار
وليس لي منها يعلم الله صبّوح ولا غبّوق الا حين أبكي عهداً سلف ،
أو أطرب الى عهد مأمول . وقد صحا القلب ، والحمد لله ، فلم تبق
داعية الى معاقرة الشراب ، وتذكّر الأحياء . وأغرب ما عرّ بخاطري
في هذه اللحظة حديث الشيخ يوسف الدجوى حين كان يقول
في دروسه بالأزهر إنه لا يشرب إلا الماء ويلق على ذلك بقوله :
والماء مع هذا شراب الحمير ! وكنت إذ ذاك أعجب كيف يتحسر
مثل هذا العارف بالله على أن لم يرزق من الشراب إلا ما يشاركه
فيه الحمير . ثم عرفت بعد ذلك أن الكلام قديم ، وأنه يرجع الى
الأخطل الشاعر النصراني المعروف . وهذا الكلام له معناه على
كل حال ، فأكثر الناس يتنسكون كارهين ، ولا يعزيهم إلا
ما يرجون أن سيكون من الرحيق المختوم في دار النعيم . والرحيق
المختوم سر لا يعلمه إلا الله ، فقد كان أبو نواس يصف قهوته بأنه

ختم عليها من عهد نوح . وستعرف بعد عمر طويل إن كان مصيرك
إلى الجنة كيف يقول شعراؤها في ذلك الختم الذي ورد ذكره
في القرآن الشريف ، على أنه سيكون هناك أيضا رحيق غير مختوم ،
ستكون هناك أنهار كاملة من عتيق الشراب ؛ وستنسى يا سيد أحمد
تلك القهوة السوداء التي تتصبّح بها كل يوم في دار الكتب
المصرية ، والتي يلقانا بوجهها البني القاتم صديقنا الأستاذ أحمد زكي
العدوي كلما زرناه في مكتبه حتى كدنا نقتطع عن زيارته فراراً
من وجهها الآدم المحبوب !

وأعود فأقول : إني ذكرت في قهوة الجامع ، وذكرت
معك قهوة الحامية ، وهي قهوة سخيصة لا هي بالجديدة ولا هي
بالقديمة ، ولا أعرف لأي سبب هجرتم من أجلها قهوتكم الأولى
التي كانت تسمى « قهوة الآداب » وقد كان يُظن أنها سميت بذلك
من أجل حضراتكم ، ولعنة الله على العقوق ! هي قهوة سخيصة
لا تحفظ شيئاً من تقاليد الماضي . وخير منها في هذا المعنى قهوة أحمد
عبد في حي سيدنا الحسين ^(١) . وليس فيها أيضاً شيء من سمات
الحاضر ، فليس على جدرانها صور ولا خرائط ولا لوحات فنية ،

(١) في هذه القهوة كان يسهر الوراق الشهير الحاج مصطفى محمد صاحب
المكتبة التجارية الكبرى ليستشير أهل الفضل في إحراق كتاب « الأخلاق
عند الغزالي » وكان ذلك قبل سفره إلى بيت الله الحرام !

وليس فيها قانون ولا عود ، ولا يخطر ببال أهلها أن يضعوا فيها معدات السينما ، أو يستقدموا لها - ولو مرة في السنة - بديعة ، أو نعيمة ، أو أم كلثوم ، ومن المحتمل فقط أن يكون صديقنا الاستاذ رامى يطر فكم هناك ببعض أغانيه وتغريداته : فعهدى به رخم الصوت مخضرم الملامح ، فيه بقايا من اللطف والليناس ! ! على أن فى إنشادك الشعر يا صديقى مُتعة كافية لقضاء السهرات فى مرح وطرب ، وهذا لا يمنع أن أقترح عليكم أن تهجروا الى مقصف حديقة الأزبكية ، فانكم ان فعلتم ذلك دلتم على ان المصرى يميل بطبعه الى المهاجرة ، وأنه ليس كالماء الآسن الذى يفسده الركود .

أما قهوة الجامع فى باريس فهى تختلف عن قهوتكم أشد الاختلاف ، هى قهوة عربية بكل معانى الكلمة ، وتذكر القادم عليها بقهوات القاهرة وبغداد والاستانة والقيروان ، فحيثما رفعت بصرك فمناظر عربية وإسلامية طريفة لا تقص فيها ولا تحريف . وأنت حين تجلس فى قهوة الجامع تروى الموسيقى الشرقية التى تطالعك بأجمل الألحان . وفى القهوة مغنون بعضهم من تونس ، وبعضهم من بغداد ، وفيهم مغن من الاسكندرية ^(١) ، وقد سمعت فى الليلة الماضية طائفة من القصائد وطائفة من المواويل والأدوار المصرية والمغربية ، وليتك كنت معى لتعرف كيف يحيا ابن هانىء

(١) هو العواد الشيخ عبده درويش

الأندلسى حين يردد المغنى قوله فى ترجيع مملوء بالعطف والحنان :
حسبوا التكحل فى جفونك حلية

تالله ما بأكفهم كحلوك
ودعوك نشوى ماسقوك مدامة

لما تمايل عطفك اتهموك

والدور الذى مطلعته « على روحى أنا الجانى » والدور الذى
فيه « امتى أشوف أنس الجميل » وقد طربت الى هذه الأغانى
حتى كدت أقترح عليهم أن يغنونى « صيد العصارى باسمك » أو
« يا نخلتين فى العلالى يا بلحهم دوا » أو « الفؤاد ناوى ونادر ، إن
جفاك ما عاد يعود لك » لولا أن صديقا أفهمنى أن مثل هذا
الاقتراح له ثمن فى مثل هذه القهوة ، وأنا كما تعلم فقير أو بخيل !
وبهذه المناسبة أرى من واجبى أن ألومكم على التهاون فى
الأنس بالموسيقى ، فأنا لا أذكر أنى رأيتكم مرة فى حفلة غناء
تهز رأسك وتقول : الله ! الله ! ولم أر الهراوى أيضا يظرب لمثل
ذلك ، ولعله يتوقر عن تشجيع الغناء ، وإن كان يشجع الكتاب
والمؤلفين ، والسيد حسن القاياتى يجلس دائما فى ركن مظلم إن
ذهب الى حفلة ساهرة ، وأخونا كامل ترك تقاليد الجميلة حين
كان يفتش عنا بحماسة لاحدا لها لنسمع معه أغانى الأنسة ملك

أوعبد اللطيف البنا أو صالح عبد الحى . والشيخ عبد المطلب
لا يطربه المغنى إلا إن رفع عقيرته وصاح :
أمن تذكر جيران بذى سلم

مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

وانصرفكم عن الموسيقى والغناء هو سبب تخلفكم فى الشعر
فقد أصبحت شياطينكم مستأنسة لا تقزع إلى واديهما الأول
وادی الجن وادی عبقر الذى نسبت إليه العبقرية ، كما أن السر
فى نبوغ شوقى هو تهالكه الفاضح على الموسيقى والغناء ، ولولا
السهرات الطروبة المجنونة التى يقضيها شوقى فى بيئات اللهو
والطرب والتمثيل والغناء لمات شيطانه منذ أزمان ! وقد كانت
تكونت فى مصر عصابة لقتل شوقى ، وأعدت لذلك « نبوتا »
غليظا اسمه الديوان ، ومع ذلك مات الديوان وانهزمت العصابة
وبقى شوقى يطغى كالحية النضناض . إني لألومكم على ترك
الموسيقى لوما عنيفا ، ولا ألوم نفسى لأنى تركت الشعر وتركت
معه عالم الأحلام . وصناعتي الآن كما تعرف : مؤلف كتب ،
ومنشئ مقالات ، ومدرس ، وهى أثافٍ ثلاث . والله المستعان
وهو حسبنا ونعم الوكيل !

وينجذب الناس الى قهوة الجامع فى باريس لعدة أسباب :
منها القهوة التركية البديعة التى تنقلك الى عالم غير عالمك

في لطف ساحر أخاذ، ومنها الشاي المنعنع الطريف الذي يذكر
بقول السيد عبد العظيم القاياتي :

وعسجد الشاي يُجَلَى في أكْوَسٍ من لُجَيْنٍ

هذا يروق لقلبي وذا يروق لعيني

ومنها النساء الجميلات اللاتي يطفن بأركان القهوة بعد
العشاء فيسحرن السامرين . وأكثر هؤلاء الجميلات يردن من
ألمانيا والنمسا وأمريكا في طلب الحب والغرام . وهن يذكرنني
بموسم السياحة في مصر حين تهبُّ أرواح الشتاء ، وموسم
السياحة في مصر شيء لا تعرفه ياسيد احمد ولا يعرفه أحد من
زوار قهوة الحامية ، هو موسم بديع تجلب فيه إلى مصر
عرائس العالم القديم والجديد ، ومن الفرض الواجب على كل
غانية مُترَفَة أفاض الله عليها من نعمة المال والجمال أن تزور مصر
في الشتاء التماساً لبركات سيدي (أبي الهول) صاحب الأنف
المجدوع ! ولا تكون السيدة أنيقة حقاً حتى تستطيع أن تقول
وهي تحاور أترابها الساحرات : « حينما جلست في سفح الهرم
أمام أبي الهول » أو « حينما ركبت الجمل وطففت حول الأهرام »
أو « حينما ركبت الحمار وتوجهت إلى مقبرة توت عنخ آمون »
الخ . الخ . والسيدة التي لم تتمكن ظروف الحياة من التحدث
بمثل ذلك تتوارى خجلاً وحياء إذا خاض النساء في حديث

مصر وما فيها من عجائب وغرائب . موسم السياحة هذا
يا صديقي فرصة عظيمة للشبان المصريين يعرفون به طرائف
الحسن المجلوب من وراء البحار ، ويقضون بسببه ليالى سعيدة
لم يشهد مثلها خوفو ولا عمرو بن العاص . وأخوك يعرف هذا
الموسم معرفة جيدة ، وليس معنى ذلك أن لى فيه حوادث
وتجارب سعيدة أو شقية ، كلا ، فأنت تعرف أن حملى ثقیل ،
وأن أعمالى لا تمكننى من اقتناص أمثال هذه الفرص الشوارد ،
وقد يمضى العام ولا أعرف كيف طعم السهر فى مغانى القاهرة ،
ولكن عندى فى هذا الموضوع كتاب معتبر خط يد اسمه
« منحة الفتاح ، فى حوادث السَّوَّاح » وهو كتاب ممتع لم يدع
صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها من حوادث السائحين
والسائحات ، وما يقع للشبان المصريين مع الامريكيات
والألمانيات . وفى النية طبعه ونشره تعميما للفائدة ، وإن كنت
أخشى أن يصرف الطلبة عن الاستعداد للامتحانات ، وتنظيم
المظاهرات ، ومصر الآن فى دور جدى خطير من حياتها
السياسية والدستورية والاجتماعية . على أنه لا مانع على كل حال
أن يأخذوا من كل شىء بطرف ، مجارة لأمثالهم فى الأمم الحية
المستقلة ، ونحن بحمد الله أحياء ومستقلون . أليس كذلك ؟ !

كل مافى قهوة الجامع جميل ولا عيب فيها إلا أن اسمها قهوة الجامع ، وأنها بالفعل فى جناح من مباني الجامع . فاذا ركب انسان سيارة وقال : إلى الجامع ، فإن السائق لا يعصى به إلا إلى القهوة ، وأكثر السائحين والسائحات لا يفرقون بين الجامع والقهوة : حتى لا أخشى أن يظن أكثرهم أنه هكذا تكون مساجد المسلمين ، وفى هذا عار وخزى يندى له جبين الرجل الغيور . فما الذى يضر الجماعة الذين يديرون شئون الجامع لو نقلوا هذه القهوة إلى نقطة بعيدة عنه إن كان لابداً لهم من قهوة عربية فى باريس ؟ !

كل ما عندهم فى المحافظة على الآداب أن يضعوا لوحة على أركان القهوة فيها هذه العبارة :

Une tenue très correcte est exigée

ومع هذا نجد للعشاق حركات وإشارات ينفر منها الذوق ، ويمجها الطبع ، ولا تجمل مطلقاً بمحل يتصل بيوت من بيوت الله .

إن باريس تحتل كل شيء ، وأهلها لا ينجلون من شيء ، ولكنى لا أحسبهم مع ذلك يفهمون أن من السائغ المقبول أن تتصل بأما كن العبادة أجنحة دنيوية خاطرة يجرى فيها اللهو

واللعب ، مهما قيل إن الغرض منها شريف ، وأنه لا يقع فيها
إلا اللهو المباح ...

أقد كنت أصلي في المسجد ثم أنتقل إلى القهوة متمثلاً
بقول الشاعر :

ولله مني جانبٌ لا أُضيعُهُ ولله مني والخلاعة جانبٌ
ولكني لا أستطيع الصبر على السمعة السيئة التي تطفئ
بها القهوة على كرامة الجامع^(١)
وبعد فاني أرجو أن يقع خطابي من نفسك موقع القبول ،
وأن تبلغ تحياتي إلى صديقنا عبد الله حبيب وسائر زملائك
الفضلاء. والسلام.

باريس في ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٣٠

(١) ونحن مع هذا نعتذر للصديق الحميم الحاج طاهر الصباغ مدير قهوة
ومطعم الجامع في باريس : فتلك ملاحظة أثبتناها لوجه الله والحق

الحديث ذو شجون

ما فرطنا في الكتاب من شيء^(١)

وردت هذه الكلمة الجامعة في القرآن المجيد . ولرجال الدين فيها تأويلات طريفة : فقد سئل بعضهم كيف يصح أن يكون القرآن لم يفرط في شيء وهو لم يتكلم عن الأسلاك البرقية وخطوط سكة الحديد ؟ فأجاب : لقد أشار الكتاب العزيز الى كل ذلك بقوله « ويخلق ما لا تعلمون »

ولقد مرَّ بالخاطر هذا التأويل حين قرأت ما كان بين معالي وزير الأوقاف ودولة النحاس باشا : فقد استطاع الامام أن يقرأ على المصلين (أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى ، أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى ، أرأيت إن كذب وتولى ، ألم يعلم بأن الله يرى ، كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية : ناصية كاذبة خاطئة ، فليدع ناديه ، سندع الزبانية ، كلا لا تطعه واسجد واقترب)

(١) كتبت هذه الفكاكة بمناسبة خطاب حلى عيسى باشا إلى مصطفى النحاس باشا يلفت نظره إلى ما يقع من المظاهرات حين يتوجه لصلاة الجمعة

والشيخ الكارم حين تخير هذه الآيات كان يرمى بالطبع الى أن القرآن لم يفرط في شيء ، حتى الرد على وزير الأوقاف !
غير أنه من المستظرف أن نشير الى أن الآيات القرآنية لها مع حامى باشا عيسى تاريخ عجيب : فقد كان وزيراً للمواصلات فى إحدى الوزارات السابقة ، وماتت قرينة الأستاذ الشيخ شاكر ، فذهب الوزير للتعزية ، ولكنه لم يكذب خطأ أرض السراشق حتى صاح القارئ : (والخيلى والبغال والحمير لتركبوها) فقال بعض الحاضرين : شكر الله سعيك يا وزير المواصلات !

شئ ثقیل

وبمناسبة صلاة النحاس باشا نرجح أن ستفكر بعض الدوائر الوزارية فى مسابقة المصلين . وعلى ذلك ينتظر أن يتكرر الدرس الذى أخذه رشدى باشا عن سعد باشا ، رحمة الله على الجميع !
وتفصيل ذلك ان السلطان فؤاد (جلالة الملك) لما تولى السلطنة فى أيام الحرب أخذ يصلى الجمعة بمواظبة فى مساجد القاهرة ، وكان من المفروض أن يصحبه رئيس الوزراء ووكيل الجمعية التشريعية ، وهناك اضطرب رشدى باشا لأنه كان قليل العلم بأركان الصلاة . فلما التقى مع سعد باشا قال له :
« الحقنى يا سعد ، الله يسترک ، أنت يا حبيبي كنت

في الأزهر وصليت على الأقل مليون صلاة ، وما أظن أنك
نسيت ، فأرايك فيمن يريد أن يتتلمذ لك حتى يتعلم فروض
الصلاة ؟ »

وكانت ضحكات وفكاهات ، فقد أخذ سعد باشا يعلم زميله
الفاتحة والتحيات ، ولكن ذلك لم ينفع ، لضعف ذاكرة رشدي
باشا ، ولصعوبة الموضوع !

وأخيراً قال سعد باشا لزميله : ما عليك ، أنت ستصلي
بجوارى وتصنع كما أصنع ، وهذه كل الحكاية

وقد ذهبوا بالفعل للصلاة ، غير أنه لسوء الحظ كان الامام
يطيل الركوع والسجود ، فقال رشدي باشا بالفرنسية وهو
ساجد : شئ ثقيل !

وفي ذلك الحادث الطريف قال حافظ بك ابراهيم :
سعدٌ يصلي ورشدي ؟ آمنت بالله ربّي !
وذاك فتحٌ جديدٌ قد جاء من غير حرب
يارب أبقِ فؤاداً حتى يصلي أَلنبي
والإشارة في البيت الأخير الى اللورد اللنبى وستبقى
المشكلة على ما كانت عليه : ففي الوزراء من نسي تقاليد الصلاة ،
ومنهم من لا تخطر له في بال إلا أن قرأ أن مظاهرة قامت بعد
صلاة الجمعة في حي سيدنا الحسين !

لوعة السباعي

للأستاذ محمد السباعي فضل كبير على أكثر أدباء اللغة العربية ، وترجمته لكتاب الأبطال كانت ولا تزال من أبدع ما تزدان به مكاتب المتأدين ، ولا أدري لم لا يطبع ذلك الكتاب طبعاً يتناسب مع ما يستحقه من الخطر والجلال

لم أر الأستاذ السباعي الى الآن، ولكن صديقنا الأستاذ العقاد، آنس الله وحدته^(١)، كان يحدثنا عنه أحاديث عجيبة لا يمكن أن تنشر في صحيفة سيارة، ويكفي أن نشير الى أن ميدان السيدة زينب كان من الأماكن المختارة لمخاطراته الغرامية!

وقد تعودت ان أقرأ خواطر الأستاذ السباعي وأنا أبتسم لأنني أقدر ما وراءها من القلق والاضطراب ، وكنت أقترض دائماً ان الرجل يلهو في خواطره الوجدانية ، الى أن رأيته يقول :
« ناشدكم الله يا أهل هذا الجيل اذا وقعت كلمتي هذه

في أيديكم مصادفة فلا تهزأوا بها ، ولا تسخروا منها ، ولا تهملوني بأني أشتكي آفة موهومة ونكبة خيالية ، محتجين بأن العواطف من كواذب الاحساسات ، وأن آلام الحب أوهام وأحلام ، وأن التعقل والتروى خير ملكات النفس وأصح وظائفها ، وأنه

(١) كان الاستاذ عباس العقاد سجيناً عند كتابة هذا المقال

لا حقائق في هذه الحياة الا البورصة والسمسرة والبنك والأسهم
والسياسة والنقابات ومائدة الطعام ومائدة القمار وصحة البدن
وقوة العضلات، الخ »

المسألة إذن جدّ في جدّ، والأستاذ السباعي في خطر ،
ولكن كيف السبيل الى إنقاذه وشباب هذا الجيل لا يكاد أحدهم
يظفر بقطعة حب حتى يأخذها ويجري الى السطوح !

على أن الأستاذ السباعي لا يعدم سبيلا الى السلوة والعزاء
أليس هو الذي يقول :

« أيتها المحاولة ستر جمالك ! حرمتنا سورة الحسن منظومة
في صحيفة محياك فقر أناها في صحيفة الطبيعة منشورة ، فأنت لم
تحتجبي ما دمنا نراك في الصباح المنير ، والجدول المنير ، فهلا
منعت النجم لمعانه ، والبرق سريانه ، والنهر جريانه ، والطير
ألحانه ؟ »

الحمد لله ! الآن اطمأنت على الأستاذ السباعي ، فلا شقاء
ولا غناء ، وقديماً علل نفسه بمثل ذلك من قال :

أليس الليل يجمع أم عمرو وایانا فذاك لنا تدان
نعم وأرى الهلال كما تراه ويعلوها النهار كما علاني
وقد مرت بي أزمت تشبه أزمت الأستاذ السباعي ،
وسأجتهد في الاكتفاء بنور الصباح ، ولمعان النجم ، وسريان

البرق . ولكن ، وأسفاه ! أنا أعيش الآن في بلاد لا يرى فيها
شمس ، ولا قر ، ولا نجم ، ولا برق . فكيف العزاء ؟
أتريد الحق ياسيد سباعي ؟ العشق نعيم على أن تكون لك
حبيرة كتلك التي زعمت أنها تزورك سرّاً في بعض الأحيان ، أما
الطواف بالديار ، وتقبيل الآثار ، فهو في عالم الحب يشبه أزمة
القطن في عالم الاقتصاد ، فما أحوجك إذن الى صدق باشا جديد !

تزوج يامسيو راسين

على أن الأستاذ السباعي يحملنا في بعض خواطره على
الاقتناع بأنه صار من عباد الله المخلصين إذ يقول :
« الحمد لله على تقطع أسباب الأمل . هذا الغدر والغش
والخيانة هو قصارى حظ الإنسان من المرأة التي يهوى ...
هذه عكارة الكأس بعد رشفك رحيقها ... هذا هو الشمع الذي
تنهى إليه بعد أخذك العسل من قرص الخلية ، هذه جيفة
الحب القذرة »

وقد ذكرتنا هذه الكلمة ما كان من شأن راسين الشاعر
الفرنسي : فقد كان المعروف أنه ترك التأليف المسرحي غضباً
من تحامل النقاد على رواية فيدر . ثم ظهر بعد البحث أنه كان
يتهيأ في سريرة نفسه للرجوع إلى الحياة الدينية ، فقد كان

له رؤساء روجيهون يكرهون التمثيل والممثلين ، وقد صبر على
مغاضبتهم له طوال أيام الشباب . فلما أخذ عوده في الذبول فكر
في هجر التأليف المسرحي والرجوع إلى حظيرة الكنيسة .
وكذلك ذهب إلى رئيسه الروحي يطلب إليه أن يُعده حياة
الرهبان . ولكن رئيسه كان يعرفه كما يعرف نفسه ، وكان
يقدر أنه سيظل طوعا أو كرها زير نساء ، وأنه لن يتوب عن
جولاته في ميادين باريس . وإذ ذاك قال له : خير من هذا كله
أن تتزوج يامسيو راسين !

فما رأى الأستاذ السباعي فيمن يطلب إليه أن يكتب
مقالا عنوانه : تزوج يامسيو راسين !

٩ فبراير سنة ١٩٣١

جواب الاستاذ السباعي

الى الأستاذ النابغة الدكتور زكي مبارك
قرأت بمزيد الشكر والاعجاب كلمتك التي ديجتها غنى
يراعتك الرشيقة فطرحت عن كاهلي عباً من الهم ما كان لشيء
خلافها أن يريحني من فادحه ، وأطفأت عن كبدي مُشواظاً من
الكمد ما كان لغيرها أن يحيرني من قادحه ، ولا عجب ياسيدي
فكثيراً ما كنت أشعر أثناء قراءتي بدائع مُلحك ونفائسك
بائتلاف بين طبعك وطبعي ، وامتزاج بين روحي وروحك ،
ولقد طالما وددت لو التقيت بك فتحدثنا وتسامرنا ، ولكن
قضى الله ألا يحصل التعارف بيننا الا ونحن على طرفي الكرة
الأرضية وبيننا المهامه البعيد والآكام ، والتنايف الفحيح والآجام
وسهول ووديان ، وبحار وخلجان ، وألاً يصلك صوتي أو يصلني
صوتك الا بعد أن يحوب شطري قارتين ، ويقطع دقي عالمين ،
ويعر بالجم العديد من أجناس الناس وصنوف البشر وشتى
المدنيات واللغات والثقافات ، فحيا الله رسالتك تلك الزكية
المباركة التي

تخطت إلى الهول مشياً على النوى

وأخطاره لا يبعد الله ممشاها

سیدی ! لقد مضى على شهور وأيام ، بل دهور وأعوام
وأنا أبکی مصاب الإنسانية في مصابي ، وأندب ما بها من
كوارث المحن وما بي ، وأضج لوعة وأیننا ، وأنتحب حرقة
وحنینا ، وتارة أرغی وأزبد ، وأبرق وأرعد ، حتی یخیل
إلی أن أعین النجوم ترنو إلی شفقة وعطفا ، وتدمع علی
بقطرات النور أسفاً ولهفاً ، وأن الريح تُعول معی أسی
ووجداناً ، والموج یصطفق حسرة لی وتحناناً ، کل ذلك ولا
أسمع من بنی آدم ولا من بنات حواء كلمة عزاء ، أو صوتاً یلی
الدعاء ، ولا أجِدُ معونة آس ، ولا إسعافاً مُواس ، کلا ، ولا
متعجب لی ولا متألم ، ولا متبرم ولا متسخط ولا مستنکر ،
لا مدح ولا قدح ، ولا استحسان ولا استهجان ، ولا بسط
ولا « قبض » کأني أهتف بکلماتی بین رسوم بالیة وأطلال ،
أو أعکف علی أصدانم وأوثان ، وکأني أضرب فی حديد بارد ،
وأصیح فی واد ، وأنفخ فی رماد ، وکأني مع هذا الجیل الأصم
الوسنان کما قال القائل :

فما یرتاح للمدح ولا یرتاع للذم
کأنا إذ سألناه وقفنا سائلی رسم

وکذلك تعودت فی هذا الشعب الحی « الحساس » أن
أُتقرب وأقابل بالصد والإعراض ، وأُتراف وأُلقی بالجفوة

والانقباض ، وأستدنى وأستعطف وأصادم بالنفرة والابتعاد ،
 وأسهر في صناعة القلم وأسهد وأكفأ ممن أسهر على مصالحهم
 بالوسن والرقاد ، وأزلف للناس المنة تلو المنة واليد إثر اليد
 وأجازى بالكفر والإلحاد ، حتى ألفت من القوم هذه المخزيات
 المخجلات ، ووطنت نفسي على اليأس من كل خير ، وتوقع
 كل شر .

تعودت مس الضر حتى ألفتُهُ وأسأمتي طول البلاء إلى الصبر
 وأصبحتُ حرفة القلم عندي بعد ما كان لها في سالف
 الزمن من السرور واللذة كاسفة حزينة ، جافة جدبة ، ناضبة
 مقفرة من الطرب والأنس ، بل من العزاء والسلوة . وأصبح
 القلم في يدي أشد بؤساً ومسكنة من المزمар في يد الشحاذ
 المتسول ، ترى نغمه أقرب إلى أنة الشكلى منه إلى رنة المسرور ،
 وأشبه بصوت النعي منه بصوت البشير ، وكذلك صرير
 القلم في يدي أشبه شيء بصرير أعواد النعش ، ولا عجب
 فانما قلبي نعش لنفائسه يحملها من المهدي إلى اللحد ، والله الأمر
 من قبل ومن بعد .

وعلى هذه الحال من اليأس والقنوط ومن الجود والركود
 كنت ياسيدي حين هبطتُ على كلمتك من أفق المدينة وسماء
 النور — نور العلم والعرفان ، والأمل والأمانى — فاطفأت

لوعتي ، وشفّت غلتي ، وحركت همتي ، وأنهضت عزمتي

لقد جلىّ كتابك كل همٍّ جوى وأصاب شاكلة الرمى

وكان ألدّ في قلبي وأندى على كبدي من الزهر الجنى

وضمّن صدره ما لم تُضمّن صدور الغانيات من الحلى

ولقد كنت قبل ورود رسالتك تائها حيران في بحار الأدب

والأمواج من حولي جامدة ، والأمواء أسنة راكدة ، وسفينة

الأدب واقفة معطلة ناشبة بين صخور الفقر والإفلاس ، والنحس

والياس ، فلم يك صوتك إلا نفحة من نفحات الإيمان ، وروحا

من الله وريحان ، فأبدلتنا من الموت حياة ومن القنوط رجاء ،

وأعلمتنا أن لله معشرا أصفاء ، وقوماً أتقياء . ولو لم يكن غيرك

يقرأ كلماتي لكان حسبي بك مشجعاً ومقدراً ، ومؤيداً وناصرأ

لقد داعبتنا طويلاً في كلمتك يا سيدي ، وتالله ما رأيت أرق

منك مداعبا ، ولا أطف مفاكها ومطايبا

ولقد فتحت علينا باب موضوع الغانيات وهذا باب

لايسد ، والخروج منه أسلم ألف مرة من الدخول فيه ، وماذا

أقول في الغانيات إلا قول بعضهم :

فان تسألاني بالغواني فاني أرى في الغواني غير ماتريان

اني ياسيدي لأعرف سحرة ولا مشعوذين أشد مهارة

وحذقا باختتالنا واحتبالنا واختبالنا لدى كل فرصة سانحة ،
وبسبب وبدون سبب ، ولجرد اللهو بنا والعبث بعواطفنا
— بأقدس عواطفنا وأسمائها — ولجرد الضحك علينا من
النساء ، وتراهن يلعبن بنا ألعيبهن بمنتهى البساطة ، ومنتهى
الجرأة والوقاحة ، ومنتهى الحذق والبراعة ، وهذا ياسيدي
طبعهن ودأبهن يأتيه من مطلع الشمس إلى غروبها ، ومن
غروبها إلى مطلعها . وأعجب العجب انهن في ذلك جميعه
سواسية لا فرق ولا خلاف بين الصالحات والفسادات ،
والطيبات والخبيثات ، والجريئات والخفريات ، والرقائق
والقاسيات .

هذه نفثة من يراعى المحطمة ، متاع إلى حين ، وأرجو
أن أوفق إلى أمثالها ، ولا تحرمنا تحفك وملحك ، أبقاك الله
للأدب ذخراً ، والسلام .

ثورة على الوجود

الى السيد حسن القاياتي

صديق العزيز

إنك لتعلم أنني في حياتي الفلسفية والأدبية منصرف بعض
الانصراف عن جو الشعر والخيال . ولكنني أحمل بفطرتي
قلب الشاعر ، وأحيا حياة شعرية في كل ما يمرّ العواطف
والمشاعر والأحاسيس ، وتغلب الفطرة أحيانا فتُلقي على أبحاثي
العلمية نفحة من نفحات الوجدان . وأنا مع هذا لأنظم الشعر
إلا إذا جاشت النفس ، وفاض القلب ، بحيث لا أستطيع الفرار
من شيطان القوافي والأوزان . فان رأيت لي يتتا ، أو مقطوعة ،
أو قصيدة ، فلا تحسبني كنت مختاراً في صياغة ذلك الكلام
الموزون ، وإنما هي أزمة وجدانية أو عقلية أنطقني به في حدود
من القهر يعرفها من يعيش في العالم بقلب الشاعر وعقل
الفيلسوف . . . وهذه قصيدة في الثورة على الوجود ، رأيت
أن أهديها إليك ، تحية من باريس ، ولك أن تعارضها بقصيدة ،
أو رسالة ، تحو أذاها من نفوس القراء . والسلام .

يا جيرة السنين يحيا في مراتبكم
 قتي إلى النيل يشكو غربة الدار
 جنت عليه ليليه وأسلمه
 إلى الحوادث صحب غير أبرار
 أحاله الدهر في لآء غربتيه
 روحاً معني وجسماً نضو أسفار
 يسعى إلى المجد ترميه مخاطره
 بنافع من شظاياها وضرار
 عزائه أن عقي كل عادية
 يشقى بها الحر إكليل من الغار

يا خافق البرق ترتاع القلوب له
 كوقدة الغيظ في أحشاء جبّار
 تعال أهديك من روعي بعاصفة
 تُردى الأنام ومن قلبي بإعصار
 النام ما النام لا تدري سرائرهم
 وما يُجنّون من كيد ومن نار
 لو يفصح الغيب يوماً عن مصائرهم
 لا قصر اللوم قوم أي إقصار

حار النبيون في تطهير فطرتهم
فأعسى نفع أمثالي وأشعاري

رباهُ آمنت لكني على خطرٍ
يغتالني الشك في جهري وإسراري
سوَّيتَ في الناس أخلاطاً مبعثرةً
تَشوِّكُ عشاقَ صنْعِ المبدعِ الباري
أرى وجوهاً بصدق الود واعدةً
ولا أرى ظِلَ قلبٍ غيرِ خَتَّارٍ
كم من عشير أواسيه وأنصره
يرعى حمى بقلبٍ جاحدٍ ضارٍ
غفرانك الله هذى نفثةً غلبتْ
ألقى بها الشعر لم تُسبق بإصرارٍ

باريس في ٨ سبتمبر سنة ١٩٢٨

الأدباء وأساتذة الآداب

وصلتني دعوة لحضور أربعاءات الأليانس فرانسين. وهذه الأربعاءات لها برنامج خاص . فالأربعاء الذي يختاره مدير الأليانس لمحاضرة عمومية يراعى فيه أن يكون المحاضر من رجال الأدب . ورجال الأدب هؤلاء غير أساتذة الآداب في المعاهد والكليات ، فان كلمة : Homme de lettres غير كلمة

Professeur de littérature

والفرق بين الوصفين مرجعه أن رجال الأدب كسبوا معارفهم الأدبية والفنية والعلمية عن طريق الدراسات الشخصية . أما أساتذة الآداب فهم قوم وصلوا إلى مناصبهم عن طريق الألقاب التي تمنحها الجامعات لمن يظهرون التفوق في العلوم والآداب عن طريق الدراسات الجامعية الدقيقة . وكذلك يفرق الجمهور الفرنسي بين رجال الأدب وأساتذة الآداب ، وهو فرق رسمي ، ولكن له دلالة وله معناه : فان رجال الأدب لا يصلون إلى المكاسب المادية إلا عن طريق الصحافة والتأليف وإلقاء المحاضرات .

أما أساتذة الآداب فلهم مناصبهم وكراسيهم في وزارة المعارف وفي المعاهد والكليات . ومن الصعب أن تحكم بأفضلية أولئك أو هؤلاء ، فإن من الحق أن الدراسات الجامعية مُثْقَلَةٌ بأعباء الجهود والمشاق ، ولا يصل الرجل إلى لقب من ألقاب الجامعة إلا بعد عناء مُعْجَزٍ وشقاء موصول . ومن الحق كذلك أن الأديب الذي حرّمته الظروف من الدرجات والألقاب لا يستطيع السيطرة على الجمهور المثقف إلا بعد دراسات شخصية طويلة لا يصبر عليها إلا الأقلون

وهناك فرق ظاهر بين رجال الأدب وأساتذة الآداب من حيث الإنتاج : فرجال الأدب حين يشتغلون بالترجمة أو التأليف يوجهون جهودهم إلى المسائل التي تمس أذواق الجماهير ومشاعرهم وعواطفهم ، بنوع خاص ، فهم لذلك يهتمون بالقصص والروايات . وما إلى ذلك مما يستطيب الجمهور الإقبال عليه في أوقات الفراغ . أما أساتذة الآداب فيحرصون على التأليف في الموضوعات الصعبة المعقدة التي لا تجد من يُقبل عليها غير الطلبة والمدرسين ، ومن شاكلهم من عشاق البحث العميق ولهاتين الوجهتين مزايا وعيوب . فرجال الأدب يؤثرون في الجماهير تأثيراً بليغاً ، لأنهم يخاطبون الناس باللغة التي يفهمون ويسايرونهم في درمٍ مشاكلهم الروحية والعقلية بطريقة

خلافة قد تصل بهم إلى الأسفاف وإلى ضياع الكرامة في بعض
 الأحيان . وأساتذة الآداب يؤثرون في جماهير قليلة العدد ،
 هي جماهير الطلاب . ولكنهم يبالغون في التحفظ والتصون
 إلى درجة مملة . ومنهم من يصل به الأمر إلى أن يصاب في عقله
 بالزمانه والضيق . ومن هنا صرح مانجده في بعض الأوساط
 الفرنسية من التحامل على رجال الجامعة ورميهم بالحمق وضيق
 العقل : والفرنسيون يصفون الرجل الضيق الذهن بأن عقله
 جامعى ، ويسمون رجال الجامعة « فيران المكاتب » !
 ومن النادر أن تجد من رجال الجامعة من يستطيع التأثير
 المباشر في الجماهير ، فقد كان إرنست رينان أكبر أساتذة
 الأدب في عصره ، ثم تقدم للانتخابات فلم يكن له من عواطف
 الناخبين نصيب : ذلك بأن الرجل تعود مخاطبة الجماهير المثقفة ،
 وتعود الاعتماد على ذكاء من يستمعون إليه ، فلما واجه سواد
 الشعب التبس عليه الأمر وغاب عنه وجه الصواب
 أما رجال الأدب فهم أقدر الناس على كسب المعارك الشعبية :
 لأن لديهم من الكياسة ومرونة الذهن والخلق ما يقربهم
 من أنفس الجماهير ، وحسب القارئ أن يعرف أن الذين
 يخوضون معارك الانتخاب في فرنسا يجب على الأقل أن يكونوا
 ألفوا إدمان الشراب ، ولم ذلك ؟ لأنهم لا يلتقون بناخبهم إلا

في القهوة ، وهى ملتقى الالهالى فى الاقاليم . فمن واجب المرشح
أن يذهب الى القهوة وأن يسأل كل قادم عليه : ماذا تطلب ؟ وإذا
ذاك يشربان معا . وهذه هى الوسيلة لكسب الاصوات !
ولا يليق بالمرشح أن يكتبى بقهوة أبى الفضل لأن الذى
لا يشرب قهوة أبى نواس يبخل عليه الفرنسيون بلقب
« مسيو » !

فماذا يصنع أساتذة الأدب فى هذه الحال وهم قوم تلفت
أعماؤهم من كثرة الجلوس ، ولم تثبق فيهم مراجعة المعاجم ، وتقد
النصوص الأدبية والفنية والعلمية ، بقية من نضارة الجسم ،
وصفاء الذهن ، ورقة الحس ، يستطيعون بها فهم ما يختلف
وتنافر من أذواق الناس وميولهم ومذاهبهم فى الحياة ؟ !
وهناك فروق بين حياة هذين الصنفين من المتأدين ،
فروق قلما يتنبه اليها الجمهور الذى ينتظر كل شئ ، ولا يطالب
نفسه بشئ

فأساتذة الآداب قد يُحسَدون على ما يظفرون به من
مناصب الدولة : فهذا موظف فنى فى وزارة المعارف العمومية .
وذاك مدرس فى مدرسة من كبريات المدارس الثانوية . وذلك
استاذ فى كلية الآداب . وهى مناصب قد تحمى أصحابها من
التفكير فى هموم المعاش . ولكن هل يفكر أحد فى حقيقة البلاء

الذى يعاينه اساتذة الآداب؟ أين المنصف الذى يقدر المصاعب
التي يقاسيها الباحث حين يسجن نفسه طائعا أو كارها في مكتبه
لا يفارقه في صباح او في مساء؟ من الذى يفهم الآن كيف كان
يقول الفرّاء: «أموت وفي نفسى شىء من حتى؟» من الذى
يعرف أن الباحث قد يقضى اعواما طويلة في تحقيق كلمة أو
تصحيح غلطة، وهو يرى ذلك كل شىء في حين أن الجمهور قد
يراه نوعا من الوسواس؟ أين النافذون الى بواطن الامور الذين
يعرفون أن أساتذة الآداب قد يحتاجون الى لحظة من لحظات
المرح والطيش ليقوا أنفسهم عواقب الحبس بين المكاتب
والجدران، ثم لا يستطيعون: لأن الرأى العام قد يرميهم
بالتبذل والإسفاف؟

وكم من مرة يقول الناس: ماذا يصنع الاستاذ فلان؟ لقد
سكنت منذ زمان!

وذلك الاستاذ لا يستطيع الجواب لانه لا يضمن الاحترام
ان أجاب: لقد شغلتنى «حتى» في هذه السنوات!
ماذا يصنع أساتذة الآداب في عصر الأحجام والمكايل
والأوزان! ان القارئ لا يشتري الكتاب في هذه الأيام قبل أن
يعد الصفحات وأساتذة الأدب مساكين قلما يحسنون
الإسهاب: لأن عملهم عمل تهذيب وتجريد، ومهنتهم تقضى

عليهم بالنفرة من محاسن التزويق والتهويل. فياويح رجال المعاني
في دولة الألفاظ !

إنها لتضحية خطيرة أن يقبل الرجل أن يكون من أساتذة
الآداب في هذا الجيل، تضحية تصغر بجانبها عظام التضحيات .
لأن الأستاذية مهنة قلما تُجازى بحفظ الجميل ، ولا يخفف من
همومها في أنفس أصحابها إلا فكرة واحدة : هي أن الأستاذ
يقف حيث يقفه الواجب : فهو جندي في الجيش لا يليق به غير
الامتثال ، وعليه أن يصبر كلما بدت لعينيه بروق الشهرة وبعد
الصيت ، لأن الأستاذية الحققة لا تكتمل قوتها إلا في ظلال
الحمول .

إن الأستاذ المخلص لو اجبه قد يُنسى كل النسيان ، وقد
تُجرح نفسه جرحاً بليغاً حين يجد من يسأله : من أنت ؟ فإن
المسكين لا يستطيع أن يجيب : (أنا الذي شرحت الرسالة
العذراء) أو (أنا صاحب نظرية الصور الشعرية) فإن هذه في
نظر السَّواد توافه لا يحسب لها حساب !

وبعد هذا كله يبقى الله عز شأنه الذي لا يضيع أجر المحسنين
فهو حسب الأساتذة ونعم الوكيل !

ورجال الأدب ، أو الأدباء ، كيف حالهم ؟

لقد أشرت الى انهم أبعد أثراً في الجمهور من أساتذة الآداب
ولكن تعال ننظر ما حظ هؤلاء المحسودين
ان كثيراً منهم يعملون في الصحافة ، ويبد كثير منهم إسقاط
وزارات وإقامة وزارات ، وفيهم من يؤلف أو يترجم روايات
جذابة تنفذ الى أعماق النفوس ، فهل نستطيع مع هذا أن نعدم
سعداء ؟

ان الأديب لا ينبغي إلا إذا ارتطم في الغواية والبؤس ، وتلك
سنة الطبيعة منذ خلق الأديب الى اليوم ، ويكاد يكون من
المستحيل أن يكون لرجال الأدب روح إلا إن صهرتهم الهموم
والأحزان .

أضف إلى ذلك انهم لا يؤثرون في قرائهم إلا إن تأثروا هم بما
في الحياة من لين وبأساء . ولا يقع شيء من هذا إلا إن عاشروا
الناس وشاركوهم في جدهم وهزلهم ، وحامهم وجهلهم ، وعقلهم
وجنونهم ، وعرفوا ما الهدى وما الضلال ، وما الشك وما اليقين .
وهذا كله : أحسبه بلا ثمن ؟ هيهات ! فمن ثمنه العرض والعافية
والمال !

ان الكاتب الذي تقرأ له فيشعرك الحكمة وفصل الخطاب
ليس في حقيقة الأمر الا رجلاً بائساً ضلَّ طريق الرشاد ، وهو
في أكثر الأحوال موزع القلب بين الحب والكأس ، فان سمعت

عن ضلالات الكتاب والشعراء ، أو حدثك النقاد عن بؤس
 ميسيه أو ييرون أو بودلير فاعلم انك أيها القارئ كنت بعض
 السبب في شقاء هؤلاء ، فقد ارتبطت حياتهم بحياتك ، وكتب
 عليهم أن يكون نجاحهم أو إخفاقهم متصلا بعجابك بهم ، أو
 انصرافك عنهم ، وانك أيها القارئ قد لا تعرف نفسك : فان
 لك شهوات وترغبات خفية يغيب أكثرها عنك ، ويفهم أولئك
 البؤساء حاجتك الى من يطلعك عليها في حديث شائق خلاب .
 والأدب في صميمه لا يخرج عن ذلك : فهو حديث مسلسل عن
 الأهواء والشهوات والنوازع والميول : من حب وبغض ، وبسط
 وقبض ، وأثرة وإيثار ، وحقد وصفاء ، وإقبال وإعراض
 والكاتب لا يصل الى مرضاتك حتى يضيع نفسه ، لأنه
 لا يمد يده الى مكتبته فيخرج الرسائل مجبرة موشاة بلا تعب ولا
 عناء ، وإنما يتنقل من حي الى حي ، ومن ملعب إلى ملعب ،
 ومن ناد إلى ناد ، ويرى الحلو والمر ، والطيب والخبيث ، وما
 يزال كذلك حتى تتفتح أسرار قلبه ، وسرائر نفسه ، ثم يعود فينقل
 روحه ، ويسكبها على بياض القرطاس

أتفهم ذلك ؟

نعم ؟

إنك لا تدركه تمام الإدراك ! وأنت نفسك مطمئن الى أن

رجال الأدب لا خلُق لهم ولا دين . ومن أجل هذا تتحدث
عنهم بما تعرف وما لا تعرف ، وتضيف اليهم كل ما يمر ببالك
من المنكرات !

ومن حسن الحظ أن الدين والخلق من الشؤون النسبية : فقد
يكون لهؤلاء الذين تجرّحهم ضائر أطهر من الماء ، وأصفى من
سماء مصر ، وقد يكونون في عربدتهم أقرب إلى الله من بعض
المتجملين المتوقرين الذين يلقون الناس وهم يبيض الوجوه سُود
القلوب !

إن ألفريد دي ميسيه الذى بكى لبؤسه وشقائه ألوف الألوف
من القراء ، هذا الرجل كان يتشهى البؤس ، وكان يحسد رفاقه
على ما (ينعمون) به من الضجر والاكتئاب ، وما زال يتباكى
حتى بكى وأبكى . أفقدرى لم كان يتلهف على هذا الحظ المشئوم ؟
لأن الجمهور كان ينتظر أدباء أدمت قلوبهم الاشجان وأصمتهم
الخطوب

فإذا أعددت أيها القارئ لرحمة أولئك المساكين ؟ لا
شئ ! اللهم إلا أن تبسط فيهم لسانك الحديد ، كأنهم لم يشقوا
فى سبيلك ولم يفتحوا لك ميادين العواطف والاحاسيس ، وكأنك
لم تتخذ شعرهم ونثرهم ذخيرة للحظات اللذة وأيام الشقاء : فقد
كانوا ولا يزالون أو تاراً لوثبات الفرح ونبرات الأنين

فأى الصنفين أشقى : رجال الأدب أم أساتذة الآداب
لقد عرضت عليك حظوظ هاتين الطائفتين في نزاهة
وإخلاص ، فاحكم بما تشاء

*
* *

أما بعد فهذه خواطر مرت بالنفس حين تقدم المسيو هوج
لا بير ليلقى محاضراته عن ذكريات الحى اللاتينى ، وهو من رجال
الأدب الذين سمحت لهم الشهرة بأن يُدعوا لإلقاء محاضرات بأجر
معلوم ، مائتى فرنك أو تزيد ، وقد لمحت هيئته لأول وهلة
فأدركت أنه حريص على تملق أهواء الجمهور ، وفي الرجل ذلاقة
وطلاقة تليقان بخشبة المسرح لا كرسى المنبر . وفي وجهه وقوامه
وشمائله بقايا من الشباب تدل على أنه خليق بأن تكون له ذكريات
عن الحى اللاتينى : فإنه حى لا يفهمه الا من رُزق نصيبا من
من نضارة الصبا ، وصفاء الروح . ومع هذا لم يتحدث عن الحى
اللاتينى بما كنت أنتظر من رجل قضى شبابه فى حى السوربون
وان كان هذا لا يمنع أن الجمهور صفق له أكثر من عشرين مرة .
فماذا قال ذلك المحاضر وما هو إحساس من يعيشون بذلك الحى
الذى يسمى حى الشباب ؟ وكيف يفهمه الغريب حين يفاجأ
بما فيه من غرائب وأعاجيب ؟

أول فبراير سنة ١٩٣١

ذكريات حي الشباب

حي الشباب في باريس هو الحي اللاتيني ، وهو حي الشباب
بأجل وأشرف وأبلغ ما تنطق به هذه الكلمة ، وليس في الدنيا
التي رأيناها بأعيننا أو سمعنا عنها باذاننا أو قرأنا أخبارها في
أساطير الأولين ، ليس في الدنيا كلها بقعة تتفتح فيها أزاهير
الشباب وتندى أوراقه ، وتمايل أغصانه ، ويتأرجح عبيره ، كما
يرى رؤاد الحي اللاتيني في باريس

ولا يعرف المرء صنعة الله ، جلّت قدرته ، الا في ذلك
الوادي من أودية الوجود ، وان لحظة واحدة في پول ميش
(تصغير بولفار سان ميشيل) لتقنع الجاحد بأن الله أجل وأعلى
من أن تتناول الى نقد صنعته أو هام المكابرين ، تعالى الله عما
يصفون !

وما ظنك بواد تكاد أرضه تنطق بحب من يجري عليها
من أسراب الملاح ؟ ما ظنك بقطعة من الدنيا جمعت أرق ما يملك
العالم من نضارة الشباب ، وروعة الجمال ؟

الحي اللاتيني هو حي الشباب ، وليس في قدرة أفصح

الكتاب وأبلغ الشعراء أن يثنى على ذلك الحى بما هو أهله ،
 وقصارى المفتون به أن يقول : حى الشباب ، حى الشباب !
 لقد ذكرت للقارىء فى كلمة سافقة أن المسيو هوج لاير
 ألقى محاضرة عن ذكريات ذلك الحى ، والآن أفصل الكلام
 بعض التفصيل : لقد وقف المسيو هوج وابتدأ محاضرتة
 بصراخ عنيف :

الشباب ! الشباب ! الشباب !

ثم أخذ يهذى بكلمات شجية كادت تجرى لها دموع
 السامعين ، وقد تأملت المسيو هوج لاير فإذا هو رجل قد
 امتد به الزمان ، ولكن فيه بقايا من رشاقة وصباحة تدل على
 أنه قضى فى الحى اللاتينى ليالى قصيرة من ليالى الشباب المطول
 لقد ذكرت لوعة المسيو هوج على شبابه بلوعة منصور
 النميرى إذ قال :

ما تنقضى حسرة منى ولا جزع

إذا ذكرت شبابا ليس يرتجع

يان الشباب ونابتنى بفرقتة

خطوب دهر وأيام لها خدع

ما كنت أوفي شبابي كُنه غرته
حتى انقضى فاذا الدنيا له تبع

وقول الآخر :

أتأمل رَجعة الدنيا سِفاهاً
وقد صار الشباب إلى ذهاب
فليت الباقيات بكل أرض

جُمِعْنَ لنا فنُحْن على الشباب !

تكلم المحاضر عن الحى اللاتينى فى أدواره التاريخية وذكر
عدة نوادر وقعت من طلبة الطب وطلبة الحقوق ، وأظرف
ما جاء على لسانه حوادث الطلبة الذى كانوا « يأكلون » إيجار
المساكن ، فقد وقع غير مرة أن امتنع بعض الطلبة عناداً
ومكابرة عن دفع أجرة المسكن ، وكان ذلك يجرى بين دُعابة
المالكين وابتسامهم : « لأن المفلس يغلب الحاكم » كما يقول
المصريون !

ومن نوادر ذلك الحى أن أحد الطلبة دخل دكان بعض
الحلاقين ومعه عشرة من الرفاق ، وكان الجو مطيراً ويبد كل
منهم مطرية مثقلة بالماء ، فما كادوا يستقرون بمطرياتهم حتى
تحول الدكان إلى بحيرة ، أو كاد ! وهنا قال الحلاق : من الأول ؟

فأجابه ذلك الطالب في هدوء : أنا الذي جئت لأصلح من
شعري ، وهؤلاء جميعاً في معيتي !

وهذه نكتة لا يدرك قيمتها إلا من عرف جو باريس ،
وأهل باريس ، فهم قوم لا يهتمون مطلقاً أن يروا إنساناً
لا يغمرهم بالمال ، فكيف إذا رأوه لا يغمرهم بغير الماء !

وقد وقع لبعض الأساتذة في كلية الطب أن أولع الطلبة
بمهاجمته وهو يلقي محاضراته ، ولكن كيف ؟ كانوا يرمونه بقطع
من النقود تساوى في قيمتها أرباع الملائم ، وكان الفريق الراضى
عن ذلك الأستاذ يرميه بباقات الأزهار : فكانت تتجمع أمام
الأستاذ وعن يمينه وعن شماله عشرات الباقات ومئات الملائم ،
وهو يتلقى ذلك كله بين الحوالة والاسترجاع ، فإذا انتهى من
محاضراته جمع الأزهار والنقود ووضعها جميعاً في محفظته ، ثم
خرج يتوسم الوجوه ليوزع النقود على الفقراء ، وليهب الأزهار
للغيد الحسان !

ومما يؤثر عن شجاعة الطلبة ونبلهم في ذلك الحى أن إدارة
الجامعة غضبت مرة على بعض الأساتذة وقررت فصله ، وكان
الطلبة معجبين بمواهبه ، فكانوا يذهبون في صبيحة كل يوم إلى
منزله ، ويكرهونه على الذهاب إلى الجامعة لإلقاء محاضراته ،
وكان ذلك يقع بدون أن تجرؤ إدارة الجامعة على التدخل خوفاً

من ثورة الطلاب ، وفي نهاية العام ذهب الطلبة متجمهرين إلى مجلس النواب فخلوه على أن يقرر إعادة الأستاذ إلى منصبه ، وردّ ما ضاع من مرتبه في العام الذي فصل فيه : وكانت هزيمة مُنكرة لمدير الجامعة عرف فيها كيف ينتصر الشباب الحى على السكولة الباغية التى تمشى إلى الفناء !

وقد استطرد المسيو لاير فذكر الشعراء والكتّاب الذين كانوا يستمدون وحيهم من الحى اللاتينى ، وأنشد الجمهور قطعاً من شعر ميسيه وفرلين وبودلير ، وقد صفق الحاضرون أكثر من عشرين مرة للذكريات الطريفة التى رواها لهم خطيب حى الشباب



وأريد الآن أن أذكر بعض ما شاهدته بنفسى فى الحى اللاتينى ، وأذكر أولاً أننى كنت أكتب فى جريدة الأفكار سنة ١٩١٩ مقالات فى إصلاح الأزهر والمعاهد الدينية بإمضاء « الفتى الأزهرى » وكان مما اقترحته حينذاك أن تُنشأ حديقة أمام الأزهر ، وحديقة فى فنائه ، ليكون شبيهاً بالسوربون محفوا بالحدائق الغناء ، والرياض الفيحاء ، فلما جئت إلى باريس سنة ١٩٢٧ كان أول ما فكرت فيه الذهاب لاستنشاق

الهواء في بساتين السوربون، فماذا وجدت؟ لم أجد في فناء
السوربون ولا حولها شجرة واحدة، ودَهْشْتُ إذ رأيت فناء
السوربون يشبه صحن الأزهر تماما: فلا نجم ولا شجر
ولا نبات ولا ماء!!

يا عجباً! ما الفرق إذن بين جامعة الأزهر وجامعة باريس؟
أما كان يستطيع الفرنسيون الكسالى أن يفرسوا في فناء
السوربون شجرة أو شجرتين ليصحَّ ظني فيهم، ولتصدق
المقالات التي كتبتها في جريدة الأفكار وأثبتتها في كتاب
البدائع؟!

ولكن مهلاً! فهناك على مقربة من السوربون وعلى
بعد دقيقتين اثنتين حديقة لكسمبور: وهي حديقة أولى بها
أن تسمى (جنة الحى اللاتينية) لأنها تشبه من بعض الوجوه
الجنة التي وُعد بها المتقون، ففيها السُّدر الخضود، والطلح
المنضود، والظل الممدود، والماء المسكوب، وفيها الحور العين،
والولدان المخلَّدون، وإن كانوا لا يطوفون بأكواب وأباريق
وكأمن من معين

هى تشبه بعض الشبه الجنة التى وصفت فى القرآن، والفرق
بين الجنتين أن الجنة القرآنية لا يسمع فيها المؤمنون لغوا ولا
تأثماً، إلا قليلاً سلاماً سلاماً. أما الجنة اللاتينية فبستان أنيق

طالما رنت فيه القُبْل الأئيمة ، وتمت فيه مواعيد اللهو والمجون .
وقد تكون تلك الجنة اللاتينية أشهر مهده من مهود الغواية
الفطرية التي يقع فيها الشباب بوحى الطبيعة ، قبل أن تصطبغ
نفوسهم بلؤم الفُجَّار وخبث الما جنين

وحديقة لكسمبور لها عهدان متميزان : عهد الربيع
والصيف ، وعهد الخريف والشتاء ، وأقصى أيامها هو العهد
الآخر ، ففي الخريف تتساقط أوراق الأشجار رويدا رويدا في
حالة تثير الأسى والشجن . فاذا جاء الشتاء عادت الأشجار مجللة
بالسواد كأنها في حداد . وفي هذا العهد لا تزار لكسمبور الا
لما . وقد تطيب زيارتها في أيام الجليد حيث تبدو أرضها ناصعة
بيضاء كثنيا العروس

أما عهد الربيع والصيف فهو عهد الحب والشباب في
لكسمبور ، فاشتت من حُسن منشور ، وغزل رقيق ، ودُعابة
يتبادلها المتحابون المتعاشقون ، وعطف تتجاذبه القلوب التي
هياتها الطبيعة لكسر أغلال الوجد المكبوت

وأغرب ما في الامر أن حديقة لكسمبور ليست للشباب
وحدهم : فهناك كهول يتخذونها مواعيد للغرام . وقد حدث
مرة أن شهدت فيها مدرسا مصريا ما كنت أحسب أن الله
خلقه لوجَد أو صباية أو تشبيب : حيث لا يفتح الله عليه بكامة

إلا في لوم العشاق والغزلين . رأيته وإلى جانبه عجوز فانية
شمطاء يئس من خداعها الشيطان، وهما يتناجيان بأرق من نجوى
الطير ، فتذكرت قول الشاعر

لكل ساقطة في الحى لاقطة

وكل باثرة يوماً لها سوق

ولا تحسب أن هذه الحديقة خلقت للحب وحده ! كلا
فهي أيضا أطيب مكان لمذاكرة الدروس ، وهي تذكر من هذه
الناحية بمحادثات قصر النيل ، ولكن هل يراجع الطلبة فيها دروسهم ؟
قد يكون ذلك ! ولكنى أذكر أنى ماشاهدت فيها الطلبة إلا
متجمعين أسرابا أسرابا يتبادلون شهى الحديث ، وفي ظنى أن كلا
منهم كان يقول : بقى على الامتحان سبعة أيام . خير ! لا يزال
أمامنا وقت ! وغداً سنأخذ فى المذاكرة مجد لا هزل معه ! فاذا
جاء الغد تجمعوا من جديد ، وأخذ كل منهم مقعدا بليمين
وعادوا يتنادرون بفاتنات الاحاديث ، وشائقات الاقاصيص

وأعجب ما يلفت النظر فى شباب الحى اللاتينى أنهم لا يلتفون
بعضهم حول بعض الا قبيل الامتحان . وهم بذلك يتعاونون
على قتل الوقت ، وترجية أيام الانتظار ، فاذا جاء الامتحان
ذهبوا بقلوب من حديد ، وألقوا على القراطيس ما يحسنون وما
لا يحسنون ، وتركوا وزارة المعارف تفعل ما تشاء ! فمن نجح

منهم ذهب فباع كتبه كلها بالثمن الذي يُعرض عليه ، ثم مضى
 يبعثر ما اقتضاه منها في مراقص موبارناس . ومن كُتب عليه
 الخذلان انطلق إلى أهله يصف المتحنين بالعنف والجبروت
 والرغبة في التعجيز : وهى وسيلة لا بأس بها لستر الكسوف !
 أشرت إلى أن حديقة لكسمبور معهد من معاهد الحب ،
 ولعلها لأجل ذلك تغلق أبوابها دائماً عند الغروب ، حتى لا يتمتع
 أحد بخلواتها في أمسية الصيف والربيع . ولكن هل معنى هذا
 أنها تحمل شارة الرفث والفسوق ؟ لا ، فكل ما يجرى فيها يتقبله
 الناس على العين والرأس ، وأستطيع أنؤكد أن أعف المتخرجين
 يشهد ما يقع فيها بنفس مغمورة بالجازبية والعطف والحنان .
 ولست أعرف لهذا تفسيراً ولا تعليلاً ، وأكبر الظن أن إشراق
 الأزهار في الحياض ، وإشراق العقود في الأحياد ، وعبير الشباب
 الذى يتأرجح بين الأشجار والتماثيل ، كل أولئك يلقى على الروح
 شعاعاً من الرفق بما يشرد فيها من جوامح العيون ، وخوافق
 القلوب

وما يدرينا ؟ لعلنا نحن الشرقيين الذين نقيد ذلك ونلتمس
 له التأويل ، أما الفرنسيون فلا يرون في حديقة لكسمبور شيئاً مما
 نراه ، فهم يرسلون إليها أطفالهم في طمانينة تامة ، بحيث يشهد
 المتفرج حول الفسقية عشرات الاطفال من ذكور وإناث .

ويبد كل طفل سفينته المحبوبة يلقي بها في الماء وينتظر عبورها
في فرح وشوق لا يفهمها غير الصبية الناشئين .

وفوق ذلك هناك ملاعب التنس، وهى ملاعب يسعى
إليها البنون والبنات في أيام العطلة وساعات الفراغ . فهل تظن
أن أحدا يتخرج من إرسال بنيه وبناته إلى ذلك الوادى
الجميل ؟

أتريد الحق؟ إن أهل باريس لا يرون في الحب ما نراه : هو
عندهم شريعة من شرائع الحياة . وقد يقع أن يتعاقق فتى وفتاة فوق
أحد المقاعد، وبجانبهما صبية مشغولة بكتاب تقرأه أو شعار
تحوكة ، أو أمل مرموق تُقلِّبه في صدرها المفتون ؛ ثم تظل في
في عقلها وسكونها كأن لم يكن إلى جانبها عاشقان يتناجيان بين
رنين القُبَل وهدير العناق !

إن أهل باريس لا يعرفون الفضول . ولهذا كانت تلك
المدينة ولا تزال أحفل معالم الصباية بأسباب الأمان

هذه السطور تعطى صورة مبهمّة جدا عن جنة الحى اللاتينى
وعذرى في ذلك مقبول : فتلك بقعة لا تسمو إلى تحديدها الاقلام .
والكاتب يخدع نفسه حين يتوهم أنه قادر على وصف ما تشهد
عينه ، ويُجن صدره من ألوان المحسوسات والمعقولات . وحسب

القارىء أن يدرك أن تلك الحديقة هي ملعب الشباب فى الحى
اللاتينى . وفى سحرها وجمالها تعليل بسيط لما سنعود إلى سرده
من ذكريات ذلك الحى الجذاب

باريس فى ١٥ فبراير ١٩٣١

كيف النجاة

وقد فطر القلب على الحب

رباهُ صُغْتَ فؤادى من الأسى والحنينِ
ولم تشأ لزلوعى غيرَ الجوى والشُّجونِ
فكيف تصفو حياتى من الهوى والفتُونِ ؟
أم كيف تُرجى نجاتى من ساجيات الجفونِ

باريس فى ٢١ سبتمبر سنة ١٩٢٧

غريب في باريس

يَا جَنَّةَ الْخُلْدِ كَيْفَ يَشْقَى فِي ظِلِّكَ النَّازِحُ الْغَرِيبُ
النَّاسُ مِنْ لَهْوِهِمْ نَشَاوَى وَدَمْعُهُ دَافِقٌ صَبِيبُ
يَقْتَاتُ أَشْجَانَهُ وَحِيداً فَلَا صَدِيقٌ وَلَا قَرِيبُ
أَقْصَى أَمَانِيهِ حِينَ يُمَسِّي أَنْ يَهْجَعَ الْخَفْقُ وَالْوَجِيبُ

مَغَانِي النَّيْلِ كَيْفَ أَقْصَتْ رَيْبَ أَزْهَارِكَ الْخُطُوبِ
وَكَيْفَ أَلْقَيْنَهُ بِأَرْضِ أَصْحَ أَحْلَامِهَا كَذُوبِ
أَدِيمُ أَجَوَائِهَا سَوَادٌ فَلَا شُرُوقٌ وَلَا غُرُوبُ
وَحُبٌّ غَادَاتُهَا مَوَاتٌ فَلَا سَكُونٌ وَلَا هُبُوبُ
وَمَنْ تَبِعَ جَسْمَهَا بِشَيْءٍ فَقَلْبُهَا مُقْفَرٌ جَدِيبُ

أَحْبَبَّتِي ، وَالْفِرَاقُ وَيلٌ تُرْمَى بِأَرْزَائِهِ الْقُلُوبُ
جَزَا كَمْ الْحُبِّ ، هَلْ نَسِيتُمْ مَا كَانَ مِنْ وَرْدِنَا يَطِيبُ

أَيَّامَ نُسْقَى الشَّمُولَ صِرْفًا ووجهها عابسٌ قطوبُ
 نصارع الكأس لانبالي ما يكم الدهر والغيوبُ
 والزهرُ من حولنا شهيدُ والنجم من فوقنا رقيب
 غِذاءُ أسمعنا غناهُ يكاد من لطفه يذوبُ
 وزاد أبصارنا جمالُ تُباح في حبه الذنوبُ
 إذا دعانا الصَّبَا هينًا وكلنا سامعٌ محبُ

لا تسألوا اليوم كيف حالى فالعيشُ من بعدكم عَصِيبُ
 مجنون ليلاكم استبدتُ بمهد أحلامه الكروبُ
 لا أكو من الحب دائراتُ ولا عيون المها تجيبُ
 يسدّد السهم ليس يدرى أيخطئ السهم أم يصيبُ
 يطارد المجد في زمان إقباله غادرُ لعوبُ
 الشهم من ناسه شريدُ والحر من أهله غريبُ

باريس ٨ سبتمبر سنة ١٩٢٩

ملاهي طلبة الطب

يمتاز الحى اللاتينى من بين أحياء باريس بتلك الحيوية
الجدابة التى تنبعث من ساكنيه وأكثرهم شباب ،
ولكن سكان ذلك الحى الذين يثون فيه من روح الابتهاج
والانشراح ينقسمون إلى طبقات ، ولكل طبقة خصائص
ومميزات ، فهناك طلبة الآداب ، وطلبة العلوم ، وطلبة الطب ،
وطلبة الحقوق

ونستطيع أن نحكم بأن الفريق السعيد من بين هؤلاء جميعاً
هم طلبة الطب ، لأن طلبة العلوم والآداب والحقوق يعرفون
ما ينتظرهم فى دنياهم من الجهد والعناء ، أليس مصير طلبة الآداب
والعلوم إلى التدريس فى المدارس الثانوية ؟ ويكفى أن تقدر أن
أن هذا مصير الطالب لتعرف أنه مُخلق للتضحية : فان التدريس
محنة من محن الحياة لا يصبر على لأوائها غير المحتسبين الذين
وطّنوا أنفسهم على المجاهدة والمجادة فى سبيل أمهم ، وأصحاب
هذه المهنة جديرون بأن يكتبوها قبل الأوان ، لأن إحراق
الدم والأعصاب فى سبيل التعليم بلية لا تحملها غير من اطمأن
إلى حمل راية الجهاد ، وليس فى مقدور واحد من طلبة العلوم

والآداب أن يطمع في غير المدارس الثانوية ، لأن المدارس العالية تتطلب من المدرسين مؤهلات أهمها إجازة الدكتوراه ، والدكتوراه لا يظفر بها طالب في فرنسا إلا إذا وصل به علمه وعقله إلى أن يضع قدمه بين صفوف الباحثين . وللقارئ أن يتأمل كيف يتأتى لطالب أن يُعَدَّ رسالة للدكتوراه وهو قد يتعثّر في موضوع إنشاء !!

وهذا المستقبل المظلم الذي يتطلب ما يتطلب من المشاق خليقته بأن يجلس طلبة العلوم والآداب في أقفاص من التوقر والاحتشام . من أجل هذا تنحصر ملاهى هؤلاء الطلبة في لعب الشطرنج والبيارد ومعاكسة البنات في مدرجات السوربون ، ومناوشة الأساتذة إذا اقتضى الحال !

وقد يتفضل مدير الجامعة ، رفقا بطلبة العلوم والآداب ، فيقيم حفلة راقصة أو حفلتين في أبهاء السوربون ، وهى حفلات طريفة يتراقص فيها الطالبات والطلاب ، لولا أنها مصحوبة ببعض التكاليف ، وبهذا يُجرَم منها كل طالب لا يملك ثوب السهرة ، أو لا يجد ٢٥ فرنكا للاشتراك

وهذه الحفلات تمر غالباً في سلام ، وإن كان الناس يتوقعون غالباً أن يطلق فيها الرصاص ، بسبب العداوات الخطرة التى يحترق فيها الطلاب وهم يتسابقون في كسب قلوب الطالبات

فَاللّٰهُمَّ (فَوّت) حفلة هذا الشتاء بخير ، لآنى سأكون بين
السامريين !

تلك لمحة عن المساكين طلبة الآداب والعلوم . أما طلبة
الحقوق فلست من أمرهم على يقين ، لآنى لم أدخل كلية الحقوق
فى باريس إلا زائراً ، ويظهر مما رأيت أن طلبة الحقوق أقرب
إلى الأندية والمراقص من طلبة العلوم والآداب . ولكنهم
على كل حال يُعِدُّون أنفسهم لمن المحاماة ومناصب القضاء ،
وتلك أودية من وجهات الرزق كثر فيها الزحام وقل فيها
الثراء ، ولهذا يمشون مُثْقَلِينَ بما ينتظرون من مصاعب الحياة .
كان الله لنا ولهم ، إنه نعم المعين !

بقى طلبة الطب : أهلاً وسهلاً بأسعد الناس فى حى الشباب !
أنا لا أعرف أيضاً طلبة الطب . ولكن حظهم من مُتَمَعِ
الحياة فى باريس وصل إلى جميع الآذان ، وشهدته أكثر
العيون ، وكلمة « طالب طب » تساوى فى باريس كلمة (خليع)
فقد جرت التقاليد بأن يظفر طلبة الطب بنوع من الحرية ،
لأنجد له شبيهاً إلا فى كتب الأساطير ، ولعل السرفى ظفر
طلبة الطب بتلك الحرية المرنة أنهم يصبغون ملاهيمهم بالصبغة

العلمية ، وحظ أهل الطب قديم في هذا الباب ، فقد أباحت لهم
الشرائع رؤية مالا تحل رؤيته من الحمى المنوع . وسبحان
مقسم الحظوظ !

ولكن ماهي تلك الصبغة العلمية

هذا سؤال له جواب طريف ، فليعلم القارئ إذن أن كلمة
« علم » في العصر الحاضر تقابل كلمة « دين » في العصر القديم ،
فقد كان القدماء يقولون : « لاهياء في الدين » إذا بدا لهم أن
يخوضوا في حديث يجرح الهياء . وكذلك يقول المحدثون :
« لاهياء في العلم » إذا بدا لهم أن يقوموا بتجربة فيها
ما يجرح الهياء

وأظرف ما في تجارب كلية الطب في باريس أنها تقع ،
كما يقتضى العلم ، بحضور الأساتذة والطلبة والطالبات ، ولتلك
التجارب معان خاصة يفهمها الألباء ، ولا حرج على من يدرس
العلم في أصوله وتفصيله على المنهج الحديث .

وفي هذه النقطة يختلف حظ رجال العلوم ورجال الآداب
فليس لأديب مهما جلَّ خطره ، وسلمت نيته ، أن يشرح على
طريقته ما يجب أن يشرح من المشاكل الجنسية ، لأنه لو فعل
لاتهمه الناس بالرغبة في إذاعة أسباب الفسق والمجون ، ولكن
العالم يدخل تلك المضايق في طمأنينة وأمان بلا رقيب ولا

حسيب ، وهو فوق ذلك مشكور السعى ، محفوظ المقام ،
 فله أن يدرس ما شاء من المسائل الجنسية ، وله أن يفسر دراساته
 بالرسوم والتصاویر ، وليس لكائن من كان أن يتهمة بسوء النية :
 لأنه يتكلم باسم العلم ، ولا حياء في العلم كما لا حياء في الدين
 وهذه الخطة قد عرفها الأدباء الأقدمون ، فقد بدا مرة
 لأبي العلاء المعري أن يذيع بين معاصريه آراء الزنادقة والمرتابين ،
 فعمد إلى تلك الحيلة الملفوفة : وهى شرح آراء الزنادقة مصحوبة
 بلعنهم وتسفيهم ، وبذلك تم له ما أراد من عرض آراء الملحدین
 فى رسالة الغفران

ومن أدباء العصر الحاضر من يسلك هذه الطريقة فيقول
 مثلاً : هذا كاتب يعجبني أسلوبه ، ولكنى أكره مذهبه ، ثم
 يمضى فينقل إلى قارئه خلاصة آراء ذلك الكاتب الذى ذكر أن
 مذهبه بغیض ممقوت ^(١)

أترانا بذلك نحرّم على أهل الطب أن يقوموا بما يوجب
 الدرس من التجارب العلمية ؟ هیهات أن يكون ذلك ما نرمى

(١) إشارة إلى كلمة كتبها الاستاذ لطفى جمعة عن أندريه جيد

إليه . ولكننا ننقل في تحفظ ما سمعنا من قيامهم ببعض التجارب
الجنسية في الحفلات الموسمية ، وهذه مسألة لا نحب الإفاضة
فيها ، لأنها خطيرة التفاصيل ، ولأن علمنا بها لم يتعد السماع ،
وما أكثر ما نسمع في حي الشباب !
فلنكتف إذن بسر ما شهدناه بأعيننا وشهده معنا ألوف
الألوف :

في نهاية العام الدراسي يقوم طلبة كلية الطب في باريس
بمهرجان مشهود ، حيث يشترك الطلبة والطالبات في مواكب
سيارة تجوم شوارع المدينة ، ويكفي في خطر هذه المواكب
أن يكون الطالبات عاريات الأجساد ، اللهم إلا سترارقيقاً
جداً يكف عادية المكان المرموق !
وقد رأيت في أحد هذه المواكب فتى عرياناً وهو يحمل
لوحة كتب عليها : (الباريسي الحقيقي يجب أن يأخذ السيلا
ولو مرة ، فمن الواجب أن يكون رئيس الجمهورية أخذه
ألف مرة !!)

ورأيت فتاة عريانة في أشنع حالة ومعها علم كتب عليه
(جيش الخلاص) وجيش الخلاص هذا جمعية كبيرة تعمل
لسلامة الأعراس ، وظهارة الأخلاق !
وللقارىء أن يتصور بقية التفاصيل ، فهنا يكون تداعي

المعاني وتنادى أشتات الخيال ، فإنني لا أريد باسم الأدب أن
أثقل ما يقع باسم العلم في باريس . فان العالم يباح له ما لا يباح
للأديب ، وحرية التعبير من جملة الأرزاق !

وبعدُ فهل هذا شر كله ؟ أم خير كله ؟ الجواب عند
رجال الدين والأخلاق . أما أنا فأسجل في تحفظ بعض
ما تراه العيون .

باريس في ١٧ فبراير سنة ١٩٣١

وزير مراکش

في باريس الآن وزير مراکش المقرئ وهو رجل كهل ،
تقول الجرائد الفرنسية : إنه يحب فرنسا حباً شديداً ، وإنه مستعد
لتقديم أولاده ضحية في الدفاع عن فرنسا إذا اقتضى الحال ، وقد
دعى بالأمس إلى زيارة السوق الكبير فذهب إليه في الساعة
السابعة صباحاً ، والسوق قائم على قدم وساق ، وقد أظعموه
هنيئاً مريئاً طعاماً خاصاً أعد لفطوره ، فارتاح إليه . وطلب الوصف
ليعمل مثله في المغرب إذا جاء العيد ، وقد أبدى فيما يقال مهارة
عظيمة في تعرف الأسماك والنص على القديم منها والجديد
ولنا أن نقول إن الوزير الذي يقدم أولاده عن طيب خاطر
للدفاع عن فرنسا لو قدمهم للدفاع عن بلاده لكان أجدي وأشرف ،
ولكن صدق شوقي حين يقول : « الدليل بغير قيد مقيد ، كالكلب
للم يسد لبحت عن سيد ! »

٩ يوليو سنة ١٩٣٠

غانيات الحى اللاتينى

بعض الحقائق البشعة فى مدينة النور

لقد قصرت أوقات فراغى فى الأسابيع الماضية على قراءة الكتب المؤلفة عن الحى اللاتينى ، ولم يزدنى ذلك الا كلفاً بدراسة ذلك الحى فى حاضره وماضيه ، وكان أجمل ما عرفته ما تلقيته شفاهاً عن الأدباء الذين شهدوا ذلك الحى منذ ثلاثين عاماً . وقد اتفق جميع من حدثهم على أن الحى اللاتينى فقد جماله منذ أزمان ، فقد كان فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر هو المعهد الوحيد لمخاطر الحب والشباب . ثم أخذ يفقد سحره رويداً رويداً بسبب الأحياء الجديدة التى اجتذبت إليها أهواء الملاح ، وكان حى مونمارتر أول طعنة وجّهت الى صدر الأُنس فى حى الشباب . وانتهت المأساة بظهور حى مونبارناس . وبهذا أصبحت لا ترى فى الحى اللاتينى وجهاً صبوراً ولا طلعةً بهية ، إلا فى ساعات خاصة من الصباح والمساء ، فاذا انتهى وقت الدرس مضت أزهار الشباب الى ملاهى مونمارتر ومونبارناس ، وبقي الحى اللاتينى هامداً لا روح به ولا حراك

هذا حق ! فلنا أن ننشد إذاً قول المتنبي :

أتى الزمان بنوه في شيبته
فسرّهم وأتيناه على الهرم
ولكن هل فرغ الحى اللاتنى من جميع أسباب الحياة؟
لا قدر الله ولا سمح !

فلا تزال هناك عصابات من النساء ، وأسراب من الفتيات ،
يغشين ذلك الحى ، هناك النساء المترفات اللاتنى يبحثن عن معالم
الشباب والجمال ، وهؤلاء النسوة نفوس ظماء الى الحسن الغض
الذى يتأرجح عبيره فى كلية الطب وكلية الحقوق . وفى كلية
الآداب بالسوربون دروس خاصة ليست فى نفوس بعض النساء
الا مواعد لقاء . . وهناك كذلك فتيات تاعسات الحظوظ يبحثن
عن الرفيق ، ولا يجدن السبيل اليه الا بالانتساب الى السوربون !
فان مشيت فى بول ميش صباحا ورأيت الفتيات يتهادين
وفى أيديهن الكتب والقراطيس فلا تحسب دائما أنهن يطلبن
العلم مخلصات ، ولكن تذكر أن فيهن بنات شقيات قضت أزما
الحياة الأوربية على ما فيهن من كرامة وحصانة ، فهن يسعين
الى الورد المنوع بمشاركة الشبان فى تلقى الدروس !

والقارىء المصرى أو الشرقى لا يكاد يدرك مغزى ذلك ،
لأن الحياة فى الشرق لا تزال معقولة الأوضاع ، وكذلك لا تزال
المرأة فى الشرق (سيدة) وإن زعموا أنها تعيش فى أقفاص .
هى سيدة لأنها لا تزال تطلب وتُعشق ، ويقال فيها الشعر

البليغ . أما المرأة الغربية فقد مضت دولتها وولت أيامها ، لأن
 الغرب رُزى بيلايا كثيرة اجتماعية واقتصادية كان من أثرها أن
 زهد الرجال في النساء ، وأصبح الجنس القوي والجنس اللطيف
 في صراع ، والصراع في هذه المرة لا يمثل رجلا يتولّه وامرأة
 تتمنّع ، ولكنه يمثل رجلا وامرأة يقتتلان حول فضلات الأرزاق
 وقد يخطيء من يظن أن هذا التحول في سير الحياة أخذ
 حرارة المرأة ، فان الطبيعة الانسانية أعمق جذوراً من ذلك ،
 ولكنه بالفعل أخذ عواطف الرجل أو كاد : فقد أصبح الشبان
 ينظرون الى المرأة وكأنها في أعينهم مخلوق سخيف ، والفتاة
 صارت لا تحظى بمودة الفتى إلا إن شاركته في ألعابه ، ورافقته
 في أسفاره ، وأغنته عن ارتياد مواضع الإسفاف . ومهما يكن
 من شيء فان أهل هذا الجيل عادوا أضن من أن يسفكوا قطرة
 من الدمع في سبيل المرأة . ونظرة الى ثمار الأدب الحديث في أوروبا
 تكفي للاقتناع بأن وظيفة الحب في القصص والروايات صارت
 وظيفة صناعية أو فنية ، يوردها الكتّاب مراعاة للقواعد
 والأصول ، أو ما كان اصطلاح عليه الأقدمون من قواعد وأصول
 وهناك دليل أوضح : وهو الشعر ، فمن ذا الذي يزعم أن
 الشعر في هذا العصر يقارب الشعر في عصر ميسيه ولا مرتين ؟
 لقد ضعف الشعر حتى لا يرجى له نهوض ، والسبب

في ضعفه هو انصراف العبقريين عن المرأة ، وذلك أخطر مقتل
في أدب هذا الجيل

هذه الحقائق تبين للقارى السرفى خمود الحى اللاتينى ،
فقد كانت الفتيات من قبلُ زينة هذا الحى ، يوم كان الشبان
يتغنون بالحب العذرى ، ويوم كانت الفتاة لا تسقط إلا إن
ذهب الهوى بعقلها المكبول .

فماذا نرى اليوم ؟ ماذا نرى بعد انقراض الحب النبيل ؟
نرى عدة قهوات كأنها مواخير ، فان الشاب حيثما توجه
في ملاهى ذلك الحى كان جديراً باقتناص انسانية تزيد في دفء
غرفته إن أعوزه الدفء في ليالى الشتاء !

وقد يحدث أن تعرض الفتاة نفسها في غير حياء ، كما كان
الفتى يهاجمها قديما في غير حياء

ولكن أين من يقبل ؟ فان فتيات الحى اللاتينى طاغيات .
ولا تكاد الفتاة تحدث من يقبل عليها حتى تصارحه بأنها
مَدِينَة ، وانها لم تدفع نفقات غرفتها منذ شهر ، وأنه ليس
لديها إلا فستان واحد ، وانها لم تأكل منذ يومين !
والويل كل الويل لمن يسلس القياد لهؤلاء البائسات ،
فانهن ألزم من الظل ، وأثقل من تطرف الثقلاء !

وللقارئ أن يسأل : هل نساء الحى اللاتينى كلهن

فرنسيات ؟

ونجيب بأن الفرنسيات قلائل جدا فى ذلك الميدان . ولم
تُظلم أمة من الوجهة الأخلاقية كما ظُلمت فرنسا بين الأمم
الأوروبية . فالناس جميعا يكادون يتفقون على أن المرأة
الفرنسية ماجنة خليعة ، وذلك خطأ مبين . والواقع أن الفتيات
الأوروبيات يستفدن من الحرية الشخصية فى باريس ، حيث
لا يتقدم أحد مطلقا لإزعاج العشاق : ففى باريس ألوف مؤلفة
من الرومانيات ، والنسويات ، والألمانيات ، والإيطاليات ،
والاسبانيات ، إلى آخر ما تعرف من الشعوب الأوروبية
والأمريكية ، وكل تلك الروافد تنصبُّ فى باريس : فهى
ملتقى طلاب الغواية من جميع الأجناس

أتحسبني بذلك أعدو الحق ؟ هيهات ! فأنا رجل أعشق النبرات
الفرنسية ، ولغة الفرنسية الخالصة سحرٌ قهار يفعل فى نفسى
مالا يفعل الشراب . وقد تمضى أسابيع ولا أسمع من فتاة واحدة
نبرة تشعرني أنني أحدث فتاة فرنسية ، وكذلك اقتنعت أوكدت
أقتنع بأن الجمال الفرنسى أعز وأمنع من أن يتنذل فى الحى
اللاتينى . والمصادفات الطيبة التى ظفرت بها فى باريس زادتني حزنا
وخوفا على مصير المرأة الفرنسية ، فانه لا تزال فيها بقايا من

الطُّهر والنُّبل ، ولكن الجيل الحاضر يكاد يعصف بما كان لفرنسا
من شريف التقاليد ، وتكاد الأزمات الطارئة في عالم الاقتصاد
والاجتماع تبدل الشمائل والنحائر والخلال

فماذا بقي إذا من مواقع العيون والقلوب في باريس ؟
لم تبق إلا الشهوات الحسية السافلة التي تقدم بلا حساب
في الفنادق والحانات حيث يباع الهوى بلا ميزان — كما يقول
صديقنا الأديب توفيق وهبة — ولكن كيف والعرض أيسر
ما يُبذل في تلك البقاع ؟

أليس في ذلك ما يؤيد قرار لجنة البعثات في مصر بمنع
الطلبة من تزوج الأجنبيات ؟

أليس في ذلك ما يؤيد خوف الآباء على أبنائهم من مفسد
باريس ومناكر باريس ؟

لقد أصبحت أومن بأن الحرب من أشرف نزعات الانسانية
فهى التى تعلم الشعوب قيمة الواجب ، وهى التى تغرس في الشباب
حب الرجولة . ولئن دام السلم نصف قرن ليصبحن النامس من
جامع الحيوان

وبعد فان لم يرق للقارىء هذا الكلام فليعذر الكاتب :
فانه رجل أمضته الخلائق في باريس

باريس ٢٥ فبراير سنة ١٩٣١

صلاة الجمعة في مسجد باريس

ماشهدتُ باريس إلا خطر بالبال ما يجب على المؤمن من الرجوع إلى ربه لحظة أو لحظتين في هذه المدينة العجيبة التي طغت على كل ما تصوره الأقدمون من نعيم الجنان ، وكان يرضيني في تهدئة الروح الظامئ إلى سكبيل السلام والسكون أن أذهب إلى جامع باريس فأطوف به ساعة من الزمان بين النقوش العربية الدقيقة التي تزدان بها الجدران والسقوف ، وبين خرير المياه في تلك الأحواض البديعة التي تذكر بأفنية المساجد الأندلسية عليها السلام ، ثم آوى إلى قهوة الجامع فأتناول كأساً من الشاي محفوقاً بالألحان العربية يهديها إلى السمع أولئك المغنون الذين يسمعونك في باريس بعض ما تسمع على ضفاف النيل

ولكن أين هذا كله من ذلك الخاطر الغريب الذي يعتادني منذ ثلاثة أعوام : فقد فكرت غير مرة في أن أشهد صلاة الجمعة لأرى ماذا يقول الإمام في نصيح من يعيشون في باريس ، وما هي قائمة المنكرات التي يحاربها الخطيب في مسجد باريس ، وكنت أقدر أنني سأجد أجمل فرصة أفهم بها تأثير

الزمان والمكان في تلوين النصائح الدينية وتكوين عقليات
الواعظين .

وهنا لا أكتف القارئ أنى انصرفت عن صلاة الجمعة في
مساجد القاهرة منذ أعوام . ويرجع السبب في ذلك إلى حادثة
صغيرة زهدتني في أصحاب الخطب المنبرية : ذلك أنى كنت
أحرر جريدة الأفكار في سنة ١٩٢١ فزارنى بعض خطباء
المساجد وفى يده مقالة يلح فى نشرها ولكنى وجدتها مملوءة
بالطعن فى الحكومة ، لماذا ؟ لأنها لا تمنح خطباء المساجد من
المرتبات ما يعينهم على المظهر اللائق بهم . وفى اليوم التالى
ذهبت أصلى الجمعة فى أحد المساجد فوجدت صاحبنا بعينه يلعن
الدنيا ويذم أهلها ويزعم أنها جيفة وأن طلابها كلاب !
وليس من التحامل فى شىء أن أذكر أن جمهور المثقفين فى
مصر لا يجد ما يشجعه على الحرص على فريضة الجمعة ، وقد
يكون فى هذه الإشارة ما يحمل فضيلة الأستاذ الشيخ المراغى
على وضع منهاج جديد تحيا به الخطب المنبرية ويدخل فيها من
الجدة والروح والحياة ما يجعلها ورداً سائغاً تهرع اليه النفوس
المتعطشة الى الحكمة والموعظة الحسنة ، فقد دب الشباب فى كل
شىء إلا خطباء المساجد عند المسامين

ذهبت إذن إلى مسجد باريس وفى نيتى أن أقف موقف

المشاهد الذي يقيد ما يرى من الظواهر والفروق، ولكني لم أكد أخطئ عتبة المسجد حتى شعرت بأن «روح النقد» انصرف عني، وشعرت بأن «روح الإيمان» أخذ يحتل مشاعري وحواسي، وابتدأت فصليت ركعتين لله، وكنت حُرمت هذا منذ أزمان، ثم جلست أتأمل فيما يحتوي المسجد فإذا المنبر مهدي من «فؤاد الأول ملك مصر» وهو منبر جميل يحمل إلى باريس نفحة مصرية تذكر بأقدم أرض شُغِلت بالآداب والفنون، ونظرت إلى المصلين فإذا هم قوم قد أخلصوا لربهم وبدأت عليهم سيما الخشوع، ومن ذا الذي يهرب من فتنة باريس إلى المسجد بدون أن يجد في قلبه روح التقوى وحرارة اليقين؟ ولأمرٍ مما عدت المصلين فإذا هم خمسون أو يزيدون. وانتظرت سورة الكهف. ولكني وجدتها لا تقرأ قبل الصلاة، فتذكرت أن قراءتها على هذا النحو بدعة، وعجبت كيف يخلو ذلك المسجد من هذه البدعة وهو في باريس أم البدع والضلالات! وبعد برهة فتح باب صغير أقبل منه الخطيب، ثم صعد المنبر، وأضيئت جوانب المسجد، ثم كانت مقدمة صغيرة قام بها أحد المؤذنين وافتتح الإمام في أثرها الخطبة، وقد نظرت فإذا هو يحمل طائفة من الأوراق تشبه أن تكون ملزمة مفردة من كتاب. فتذكرت الخطب المنبرية التي تطبع في مصر

ويستظهرها الخطباء ليعيدوها بنصها في كل عام على اختلاف
الجمع والشهور ، وتوقعت أن تكون هذه أيضاً مقتطفة من
بعض الدواوين المصرية . ولكن هذا الخطيب ظالعنا بخطبة
فصيحة ، بريئة من اللحن ومن الضعف كأنه السيد البيلاوى
في مسجد الحسين . لقد ترك هذا الخطيب كل شئ من حياة
باريس ، كأن النصيح فيها لا يغنى ولا ينفع ، وأخذ يتحدثنا عن
شهر ربيع الأول وما وقع فيه من الحوادث الجسام في عهد
الرسول ، فسألت نفسى : أتكون هذه المرة الأولى التى يتحدث
فيها الخطيب عن ربيع الأول مع أننا فى الجمعة الأخيرة منه ،
أم هذه خطبة ثانية أو ثالثة من هذا الشهر الميمون ؟ !
ورأيت لأول مرة فى حياتى خطيباً ينشد الشعر فى خطبة
الجمعة كلما بدت مناسبة ، فقد أنشد هذا البيت :

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد

ذخرا يكون كصالح الأعمال

وإذا صبح أن هذا البيت من شعر الأخطل — وكان نصرانيا
لا يفارق الشراب — فانه لدليل على أن للشعراء لحظات تصفو فيها
نفوسهم فتفيض بالحكمة العالية يبق أثرها بين مختلف الفرق
والممل وعلى اطراد الأجيال

وأنشد فى مكان آخر الأبيات التى يقول فى بدايتها الحريرى :

يا خاطب الدنيا الدنية انها شَرُّكَ الردي وقرارة الأَكْدارِ
 دارُ متى ما أضحككت في يومها أبكت غدا تبأها من دار
 وفي مكان ثالث أنشد أبياتا في مناقب أبي بكر رضى الله عنه
 غابت عن الذاكرة . وكنت لا أعرف لأى سبب يترك خطباء
 المساجد الاستشهاد بالشعر ، ولكن بعض رجال الدين له رأى
 في الشعر قد يكون السبب في العدول عن الاستشهاد به: إذ لا يراه
 من الأمور ذوات البال !

ولاحظت أن خطيب جامع باريس يملاً خطبته بالنفحات
 الوجدانية ، فهو يقول مثلاً « وأين ربيع الروح من ربيع العين »
 هكذا وقعت الجملة لضرورة السجع ، وكنت أحب أن تكون
 « وأين ربيع العين من ربيع الروح » على أن السجع يقع خفيفاً
 جداً في خطبة ذلك الرجل ، فقد كان يتكلم بطريقة خالية من
 التكلف ومن اللبس ، وكان له في تصوير الظروف التي اقتضت
 الهجرة ذوق جميل

وبعد انتهاء الخطبة نزل الامام فصلى بنا صلاة خفيفة جداً
 رجونا أن يكون في بساطتها ما يؤكدها القبول ، فان الرياء
 والتصنع لا يغنيان فتيلاً عند علام الغيوب . ثم قرأ المصلون جميعاً
 دعاء شائقاً لاحظت أنهم كلهم يحفظونه ولا أحفظ منه حرفاً
 واحداً ، وإن كنت هيئمت منه بضع كلمات لأسترجعها بفقراته

الحسان ، وأنا والله معذور فاني لم أسمع مثله حين كنت أواظب
على الصلاة قبل أن أعرف (بونجور مدموازيل) و (بونسوار
مدام) !

فلما انتهى المصلون من قراءة ذلك الدعاء مشيت الى ذلك
الخطيب الفصيح فسلمت عليه تسليم المعجب باخلاص
— أحب أن أتشرف بمعرفة اسمكم الكريم
— أنا الفقير الى الله زكى مبارك

— أهلا وسهلا ! ياسيد قدور تعال سلم على السيد مبارك
فالتفتُ فاذا السيد قدور بن غبريط يصاخنى ، فتأملت في
وجهه طويلا ، وكنت سمعت انه سعى في إنشاء هذا المسجد
ليخدم فرنسا ! ولكنى تيقنت الآن انه خدم دينه وبلاده حين
استطاع أن يبني مكانا للصلاة في باريس وفي جوار حديقة النباتات ،
وصدق الامام الغزالي حين قال

« طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله »

باريس ٣ سبتمبر سنة ١٩٢٩

بين فصول الكتاب

وآيات الوجود

صديق ...

تسألني كيف كانت أعمالي كثيرة ومعقدة ، وتطلب بيان ذلك التعقيد ؟ اسمع اذن هذه القصة ثم استنبط منها ما تشاء :
 في مساء ١٤ يوليه الماضي ، بعد أن تناولت العشاء ، مضيت الى شاطئ السين أنتظر الألعاب النارية مع آلاف المنتظرين .
 ثم بدا لي فجأة اني شهدت هذا الاحتفال في الأعوام الماضية ،
 وانه لن يكون فيه جديد ، وأن من الخير أن أعود فأكتب صحيفة
 أو صحيفتين لأتقدم قليلا في العمل الذي جئت له ، ثم انحدرت
 إلى المنزل الذي أقيم فيه غير حافل بالحياة الضاحكة التي تحشر الناس
 في صعيد واحد ليرى بعضهم بعضا وليجددوا ما بلى من آمالهم
 وأحلامهم حين يرون الجمال يزحف بجيوشه الجرارة ليفتح ما أغلق
 من نزوات القلوب ونزعات النفوس ، وليروا أخيراً الأسمم النارية
 تعمل في الجو المطلق بعض ما تعمل العيون النواعس في أفئدة
 الشعراء

عدت إلى المنزل ، وأقبلت على مكتبي ، ثم أدنيت الدواة والقلم

والقرطاس ، ولكنى لم أكد أضع أول جملة حتى سمعت دوى
 الأسهم النارية يمتشق الفضاء ، وسمعت تهليل المهملين وصياح
 الصائحين ، والضحكات جميعاً من قوينة تنبئ عن رجولة ،
 ورقيقة متقطعة تكشف عن أنوثة ، ودارت بى الغرفة فلم
 أدر ماذا أكتب ، وعزّ على أن تنهزم إرادتى وأن أخرج
 ثانية للاشتراك فى الاحتفال ، وأخذت أرهف العزيمة لأكتب
 شيئاً يعوض تلك الخسارة الفادحة التى مُنيت بها حين تركت
 أهل باريس يمرحون ويلعبون وتموج بهم لجج الحياة لأحبس
 نفسى طائئاً فى غرفة مغلقة الأبواب بين ما أعجم واستبهم من
 مناظر الكتب والدفاتر والمحابر والأقلام والمذكرات

ولكنى لم أكتب شيئاً !

ثم خلعت ثيابى وألقيت بنفسى على السرير ذاهلاً حائر
 اللب ترمينى قذائف التفكير من هنا وهناك . وتجمعت فى رأسى
 أسباب الثورة الفكرية التى تهاجنى وأهاجمها من حين إلى حين ،
 وبدأت أمطر نفسى وأمطر العالم بوابل من الأسئلة المخرجة
 التى تقف أمامها النفس الإنسانية حيرى مولّهة لا تدري
 كيف تجيب :

أنا تركت العالم يعوج على شواطئ السين ، ولكن لماذا ؟ ..

لأقرأ كتابا يتحدث عن العالم ؟ ... هذا حق وسفه . كيف
أترك الحقيقة ثم أبحث عنها في ألفاف الخيال ! ألا أكتب بحثا
يشرح بعض حقائق العالم ؟ كيف ! وأنا أهرب من العالم لألجأ
إلى القلم والكتاب والمصباح !

وانطلقت أفكر في أمثالي من الذين يتسامون إلى شرح
حقائق الحياة ونواميس الوجود وهم أسرى في منازلهم يخشون
إذا همّوا بمشاهدة العالم أن ينالهم الابتذال . فكم من عالم مفكر
— وتلك دعوى قديمة — يجلس في عقر بيته ليضع الشرائع
للناس ، وهو لا يعلم شيئا عن غرائز الناس . في حين أن التشريع
ليس إرادة فردية تؤيد بالأحكام العرفية ، وإنما هو تنظيم
وتهذيب للغرائز والميول والأهواء . وكم من فيلسوف
— وتلك أيضا دعوى قديمة — لا يعرف من الدنيا غير الكتب ولا
يعرف من أهلها غير تراجم المؤلفين ، وهو مع ذلك يرى نفسه
أهلا لوضع الحقائق الباقية لسياسة الأمم والشعوب !

ثم ماذا ؟

ثم تكون هذه النكبة الاجتماعية التي درج عليها الناس منذ
أجيال ، والتي تقضى بأن الجمهور لا يحترم الرجل الذي يشاركه
في أسباب دنياه ، وإنما يتصور العظمة محبوسة في أقفاص
المكاتب والمعاهد والجامعات . وقديما شك الناس في نبوة

الأنبياء : لأنهم يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق كما
حدثنا القرآن

أبحرك يا صديقي هذه الملاحظات ؟

معذرة اليك ، فأنا رجل ثائر عنيف ، وسأظل في ثورتى
الى أن أنتصر في حرب ما أمقت من نفاق التقاليد . وأستطيع أن
أؤكد لك أن كثيرا من الأصنام التى تعبد فى مصر والشرق
ستحطم عما قريب ، وسينشأ فى مصر والشرق جيل جديد يبنى
أحكامه وقوانينه على أساس التجارب والمشاهدات ، وستهدم
صروح العظمة التى تبنى على أساس التوقر والتحفظ ، وخلق
أسباب التبجيل ، وفرض الاحترام بالأساليب الممجوجة التى
تخلى عنها الغرب وداسها بقدميه يوم رغب فى شرف الحرية
والإخاء والمساواة ، ويوم فضل الحقيقة المرة على الباطل المعسول
متى أشهد مصر عك يا عهد النفاق !

ثم كان مساء الأحد الماضى حيث يجرى سباق السباحة
فى السين ، وخرجت باريس برجالها ونساءها وشبابها وكهولها
تحتى عظمة البساطة والخفة والسذاجة والرشاقة فى أجسام السابحين
وخرجت أنا أيضا هذه المرة بعد أن وضعت الكتب والمذكرات
فى الصّوان وأغلقتة اغلاقا محكما ووضعت المفتاح تحت البساط
لئلا يهجم على كتاب فلسفة مثلا فيحول بينى وبين الخروج !
يا لله ! هذا شباب باريس يطوق السين كما يطوق العقد

جيد الحسنة . وهذا زحام مطبق لم يترك لمثلي موضع قدم ، والناس ما بين شاب رشيق الحركة يتسلق الأشجار ، وفتاة مترفة ترفع مرآتها لتنعكس عليها مناظر السابحين ، وشاعر يرى ويشهد أسراب الحسان تتم له أسباب الإبداع ، وفيلسوف يرقب تطور الحياة الانسانية وجها لوجه عن طريق المشاهدة لا كما يفعل أدعياء الفلسفة الذين ينزحون من بئر الغفلة والنسيان والذهول

والسين ؟

السين ! قد تحول يا صديقي إلى أمواج من النور البنفسجي الجذاب ، حتى حسبته قلبا يحقق بالني ، أو مخدعا يتناجى فيه عاشقان ، وحسب السين ليلة من هذه الليالي في كل عام لتيه على أنهار العالم جمعاء ، وليظفر بمثل ما كان يظفر به النيل قديما يوم كانت تزف اليه في كل عام فتاة هيفاء ، والحسن في كل عصر خير ما يهدي وخير ما ينال

وأنا ؟ . . . أتريد الصدق ؟ لم تكن معي مرآة أرى في بياضها مشاهد السابحين ، ولم أنشط الى تسلق الأشجار لأرى مالا يراه الواقفون ، ولم أجد مكانا على الرصيف أشهد فيه مناظر السباق ، وإنما اكتفيت بمشاهدة العالم الباريسي ، وعدت مع ذلك إلى المنزل قبل أن ينتهي الاحتفال . أتدري لماذا ؟ لأقرأ كتاب سبنسر في علم الاجتماع !

فإن شئت أن تعرف كيف كانت أعمالي كثيرة ومعقدة
فاذكر أنها ليست إلا حيرة مطبقة بين فصول الكتاب ومشاهد
الوجود

باريس في ٢٩ أغسطس سنة ١٩٢٩

شفاعة النساء

المرأة مخلوق لطيف يعرف قيمته من يعيش في مدينة مثل باريس
حيث لا يُفتح باب من أبواب الرزق والمجد إلا بيد المرأة فهي مفتاح
كل شيء ومغلاق كل شيء : تعطى الحظ من تشاء وتنزعه ممن تشاء
أغنانا الله من فضله عن شفاعتها في باريس وغير باريس ؟
ويظهر أن شفاعة النساء كانت معروفة في الزمن القديم ،
يدلنا على ذلك هذا البيت

وَنُبِّئْتُ لَيْلَى أَرْسَلَتْ بِشَفَاعَةِ إِلَى فَهَلَا نَفْسُ لَيْلَى شَفِيعَهَا

وأصرح منه في الدلالة قول الآخر

ليس الشفيع الذي يلقاك مؤترراً مثل الشفيع الذي يلقاك عرياناً

والعن من هذا وذاك قول صديقنا الحوماني أحد شعراء سورية

قضى عصرنا أن يكون الشفيع لنيل المناصب نهدي وقد

فمن شاءها فليزِر أهله رئيس الحكومة يوم الأحد

وهذا كلام لا يحتاج إلى شرح ولا تعليق . ويرحم الله من

استطاعوا الفرار من زينة الدنيا إلى وعورة القفار والفلوات

محمود بيرم

في طريقى إلى المنزل الذى أقيم فيه حديقة صغيرة يؤمها
الناس من جميع الطبقات إلى وَهْن من الليل . وهى حديقة
تهوى إليها نفسى فأخترتها فى الصباح وعند المساء ، ويعجبني
فيها تمثال فولتير ، ذلك الرجل المعجز الذى علم الكتاب كيف
يسخرون وكيف يرتابون ، وعلى وجهه تلك الابتسامة الساخرة
التي لا ندرى كيف استطاع الصخر وهو أصم أن يحفظ منها
صورة ناطقة ، ويعجبني فيها أيضا أولئك النسوة النبيلات
يخرجن إليها فى الضحى وفى الأصيل ومعهن أطفالهن يرحون
ويلعبون ، فأتذكر والأسى يلذع قلبى أولئك الصبية الأعزاء
يحيطون بى فى حديقة المنزل ليمنعونى من الخروج و
من الرحيل !

فى يوم الثلاثاء الماضى وأنا أخترق تلك الحديقة فى الساعة
الثامنة قبل الغروب لمحت طائفة من الجرائد المصرية فى يد انسان
لا أعرفه ، وعلى وجهه مسحة من سماحة الشرق ، وكتلة من أثره
الغرب ، فقلت :

— سلام عليكم (بخفة ونشاط)

—عليكم السلام (بتثاقل وبرودة)

—لا تترع أيها الرجل ، فأنا أريد أن ألقى نظرة على هذه الجرائد

لا أكثر ولا أقل ، وأنا والله فاعل ذلك رضيت أم غضبت !

—اقرأ ، ولكن أسرع فاني ذاهب الى العشاء ، فقد شغلني قبلك

هذا الفتى بجانبك اذ رجاني أن أسمح له بنظرة سريعة ينظر بها

أخبار مصر والشرق ، كما يقول ، أما أنت فبارك الله لك في هذه

الجرأة ، ألسنت تريد أن تقرأ هذه الجرائد رضيت بذلك أم

غضبت ؟ ولا أدري والله ماذا أصنع اذا حاولت منعك وفيك

هذه الجرأة وهذا الهجوم ، وقد تكون قوي البطش ، سليط

اللسان !

ثم سكت ، وأخذت أقرأ تارة وأدرس وجهه تارة أخرى :

هذا شاب قصير ، نحيل ، متضعع ، مهدود ، لم تبق أيامه

من جسمه باقية ، وهو لذلك ضيق الصدر لم يستطع أن يتكلف

البشاشة لرجل بدأه بالتحية ، وانه ليحمل رزمة من الجرائد

المصرية . وهذا الحمل الثقيل يدل على انه مغرم بتتبع الحياة

في مصر بألوانها السياسية والأدبية . فياليت شعري من هو ؟

—أنت هنا منذ زمان أيها الأخ ؟

—منذ عشر سنين !

—عشر سنين ؟ وماذا تصنع ؟

— عامل في أحد المصانع

— وما الذي ابتلاك بهذه الجرائد وأنت عامل؟

— هذه بلوى قديمة !

— منذ متى ؟

— منذ كنت أحرر المسلة . فأنا محمود بيرم التونسي

أهلا وسهلا !

وحضرتك ؟

زكى مبارك

أنت الدكتور ؟ الله يسامحك ! كيف نسيت أن ترسل الى

نسخة من كتاب الأخلاق عند الغزالي . لا . . . بل كيف

استبحت لنفسك أن تهاجم ذلك الفيلسوف . . . الى آخر

ما قال

أيها القارئ !

أذكر صيف سنة ١٩١٩ ؟ ان كنت لم تشهد ذلك العهد

وذلك العام الميمون فاسأل من شهوده ومن اكتبوا بناره

يخبروك أن محمود بيرم التونسي كان شاغلا لجميع الأندية

المصرية بمجلته الصغيرة اللذاعة (المسلة) وهو — مع احترامى

لمن يشتغلون بالرسائل الفكاهية في مصر ؟ — رجل ممتاز له طابع

خاص . ولقد رأيت في حالة محزنة ، فقد سقط عليه في ذلك اليوم

برميل ييره في المصنع الذي يعمل فيه . ولكن الله لطف فلم
يُصب إلا بجرح خفيف ، أتم الله شفاءه وعافاه
بعد أن تعارفنا تطلّقت أسارير وجهه ، وأخذ يسألني عن
مصر وعن صحف مصر وعن الصحفيين الذين يطلبون منه أن
يراسلهم مجاناً وهو في أشد الحاجة الى المال ، وعن الذين
يستطيعون أن يسهلوا له سبيل العودة الى مصر ولكنهم
لا يفعلون !!

ثم تناولنا معاً طعام العشاء . وطفنا طويلاً على شواطئ
السين ، وأسمعى مواويله وأزجاله القديمة التي كانت تضحك ناساً
وتبكي آخرين ، في سنة ١٩١٩ ، وأسمعى كذلك طائفة من
المقامات الهزلية التي تضحك الشكلى . خصوصاً مقامة « الفقى »
الذى خرج يصطاد امرأة ، والذى « شال العزال » الى المحطة ! ؟
وانتهى المطاف الى احدى الحدائق العمومية التي تظل
مفتوحة الى نصف الليل ، وكان يرم افندى قد تعب ، فطلب أن
نجلس قليلاً على أحد المقاعد ، ولكننا وجدناها جميعاً مشغولة ،
فاضطرنا تبعه الى أن نجلس على مقعد فيه عاشقان يتناجيان ،
والأدب في باريس لا يسمح بازعاج العشاق ، وظل الفقى يقبل
الفتاة وهي بين يديه كأنها الغصن المطلول ، وكأننا لسنا هنا
وكانهم ليسوا هناك ؟

— لا تحسب يا دكتور أن هذا فسق ، فقد يكون هذا العناق

مقدمة زواج

— اطمئن ! فأنا أعتقد أن هذا الغزل المكشوف أسلم وأشرف

من تلك السرائر المظلمة والقلوب السود التي تطوى عليها جوامح

الغدرّة الفجّرة ممن يدعون الفضيلة، والله بما يعملون عليم !

ثم هممنا بالعودة الى منازلنا بعد سهرة جميلة نفينا بها

أشجان الاغتراب

— اسمع يا محمود افندى ، أنا سأكتب عنك مقالة

— أنت تمزح . ألم يبق لديك الا أن تكتب عن بيرم بعد

أن نسيه الناس ؟

باريس في ٢٩ يوليه ١٩٢٩

لطفك !

يا فوق ما يسمو لجأج الهوى ويطمح الوجد ويغنى الهيام

الطف بعشاقك وارفق بهم فقد طغى الحسن وجار الغرام

باريس في ٨ سبتمبر ١٩٢٧

هذه باريس وهذا باريس

باريس في ١٤ يولييه سنة ١٩٢٩

صديقي ...

لقد ألف الناس في مصر والشرق أن يلاحظوا في باريس
 صيغة التأنيث ، فهم يقولون (باريس الجميلة الفتاة) ولكن
 الفرنسيين يعطون لعاصمتهم القوية صيغة التذكير ، وإنهم
 يقولون (باريس القوى القهار) فما هو السبب في ميل الشرقيين
 إلى تأنيث هذه المدينة ؟ السبب واضح ، لأن الشرقيين يتوهمون
 هذه المدينة مدينة اللهو والدعارة والفسوق : فهم لذلك يعطونها
 اسما ليناً مؤنثاً يتناسب مع ما يحسبونه ينهار فيها من أركان
 الأخلاق ، أما الفرنسيون فيعرفون فضل عاصمتهم ويعلمون
 أنها قوية جبارة غالبت الأعداء ونازلت الخطوب زمناً غير قليل ،
 ثم ظفرت من ذلك كله بمجد باق خالد تغلب عليه سيما البشر
 ولا بتسام : إذ لم يعد في حاجة إلى التبرم والعبوس .

أتذكر أنك سألتني غير مرة أن أحدثك عن باريس ؟ إذن
 فاعلم أن صمتي عن جوابك لم يكن جهلاً لقدرك ، ولا تهاوناً

في حقك ، ولكنى ظننتك تنتظر منى جوابا يساير الفكرة التى
ينتظرها الشرقيون ممن يصف باريس ، لذلك استبحت لى نفسى
الايغضاء عنك ، وأنت أنت فى ودك الصادق وعهدك المتين .
واليوم ، أتدرى لم فكرت فى جوابك ؟ لسببين : الأول لرد
التحية الجميلة التى حيتنى بها جريدة الصباح التى وعدت فى ختامها
القراء بأنى سأوافيهم بشىء عن الحياة فى باريس ، والثانى لأن
هذا اليوم - يوم ١٤ يولييه - أخرجنى عن وقارى ، فتركت
عملى وخرجت أهيم كالثائر المجنون أتمس أسباب الحياة فى هذه
المدينة الصاخبة التى أغوت من أغوت ، وأضلت من أضلت ،
وهدت من هدت من العالمين ، فلم أجد أملنى إلا ذكرى النصر
والحرب والسيف والمدفع والبأس والصبر والكفاح ، وما شئت
يا صديقى من الأسماء والمسميات التى خلقها الله لتمجيد البطولة
والرجولة والقوة والبأس الشديد .

ولقد تعودت فى الأعوام الماضية أن أشهد الحفلة القومية
التي يعرض فيها الجيش صباحاً فى ساحة النجم عند قبر الجندى
المجهول ، فبكرت من يومى هذا أسابق الناس إلى ذلك الميدان
لعلى أجد مكاناً صالحاً أقضى فيه ساعات الاستعراض ، ولكنى
علمت مع الأسف ان مجلس الوزراء قرر إلغاء هذه الحفلة فى هذا
العام فراراً من وقدة الحر الذى هاجم باريس منذ يومين اثنين ،

وكنافى بداية هذا الصيف نشكوشدة البرد . وكذلك حُرْم
 الباريسيون من ذلك المنظر الرائع منظر الجنود مدججة بالسلاح
 تذكر من عساه يغفل وينسى بأن الوطن لا يُحرم بغير القوة ،
 وان الأمة التى عُرفت فى العالم كله بأنها صاحبة الفضل فى نشر
 المبادئ الانسانية هى أيضاً لا تعيش بغير القوة ، وانها
 فى وجودها وعظمتها مدينة لقوة البأس وصدق النضال
 أفهمت الآن أن باريس شىء غير الذى تعلم وغير الذى
 يتوهم الناس ؟

لقد أقيمت فى الشتاء الماضى محاضرة فى نادى الموظفين عن
 تأثير المرأة فى المجتمع الفرنسى ، فلما نُشرت خلاصتها فى بعض
 الصحف لقينى أحد الذين طالت إقامتهم فى باريس وأفهمنى
 بلطف أننى لم أعرف باريس . ولا أزال حتى الآن أجد من
 يلومنى على حسن الظن أسديه الى باريس . ألا فلتعلم يا صديقى أن
 الذى أحدثك به عن هذه المدينة هو الحق كل الحق ، والذين
 يعرفوننى يعلمون علم اليقين اننى تغلغلت فى أعماق الحياة الفرنسية
 وانه لم يصل أحد الى مثل ما وصلت اليه من الألفة الصافية
 والصلات العميقة مع الذين عرقتهم وصادقتهم وعاشرتهم من
 الفرنسيين فى باريس وغير باريس . فالمرأة الفرنسية الصميمة
 الأصلية يغلب عليها النبل والطهر والعفاف ، وإن نبذة واحدة

من صوتها الرنان لتبدل الأرض غير الأرض والسموات ، وانها
لتذل من تُذل ، وتُعزّ من تعزّ ، وهى فى مكانها كالطود الراسخ
لا تُغلب ولا تُنال . ولو كانت المرأة الفرنسية هينة الى الحد الذى
يتوهمه الأفاقون الذين ترميهم المقادير تحت أقدام المومسات
فى باريس لما أنجبت فرنسا شاعراً ولا كاتباً ، ولظل أهلها فقراء
العواطف موتى الإحساس . والذين تراهم يتحدثون عن باريس
ذلك الحديث الوقح المجرم المأفون هم قوم لا يزيدون فى أخلاقهم
ولا معارفهم عن شواذ الفلاحين فى مصر حين يجيئون القاهرة
عمداً ليطفئوا حرارتهم الحيوانية فى بعض البؤر الموبوءة ثم
يعودون الى أهلهم فيعطونهم من القاهرة صورة تجرح الطبع
والذوق وتبغض الرجل المهذب فى مظاهر المدنية وآثار النهوض
فى باريس اليوم نحو خمسة ملايين من السكان ، أيعيش
هؤلاء الناس جميعاً بفضل الرذيلة ؟ هذا محال . فلم يبق الا أن
نقف عند حدود العقل والمنطق فنتصور ان مثل هذه المدينة
— وفيها نحو مليون من الأجانب — لا تخلو من أما كن تسود
فيها الرذيلة ويغلب الشيطان . ولكن هل خطر ببال أحد من
الذين هاجموا باريس أن يحدثونا عما فيها من المعاهد والمدارس
والكليات والمتاحف والمعامل والملاجئ والمستشفيات ؟ وهل
خطر ببال أحد منهم أن يذكر ان الرجل قد يعيش فى باريس

بضع سنين ثم لا تقع عينه على منزل يُبنى أو منزل يهدم ، حتى
 لا تصور أنا أن الله خلق هذه المدينة مرة واحدة يوم خلق
 الأرض والسماء؟! وهل فكر أحد من الذين رأوا باريس أن
 يلاحظ ان سكة حديد المترو التي تسير تحت الأرض ومن
 فوقها المنازل والقصور والحدائق ، ومن فوقها أيضاً نهر السين
 بفروعه التي تزخر بالموج والسفين ، أقول هل لاحظ أحد من
 هؤلاء ان هذه الخطوط الحديدية فاقت وهي حقيقة كل ما كان
 يتصوره الناس عن أعمال الجن وهي خيال؟ وهل أتجه فكر
 أحد من الذين يُجرِّحون باريس الى ان رواد المكاتب وحدها ممن
 يسايرون الحركة العالمية في أرجاء العالم يزدون أضعافاً مضاعفة
 على رواد الملاهي والملاعب والمشارب ، في حين ان نعيم الحواس
 له عند أهل باريس قيمته ، وان اللهو عندهم قد يُقترَف وله
 سحره وله معناه ، وله فضله في تلوين الحياة الانسانية بلون البشر
 والفتون: اذ كانوا قومًا جِدُّهم جِدٌّ وهزلهم جِدٌّ؟

صديقي!

هذا باريس! ولا أقول: هذه باريس!

فان كانت عندك ذخيرة من المال فتعال أعلمك كيف يضع
 الرجل درهماً في سبيل المجد والشرف ، وكيف يستطيع أن
 يستقي ماء الحياة من منبع الحياة ، فهنا معاهد العلوم والفنون

والآداب . وان كنت تريد أن تضع مالك في الفولى بيرجير
والمولان روج فانى أوصيك بتقويم عزمك وتهذيب نفسك
لتبقى لك نعمة المال والشباب والعرض المصون
أيها الناس !

لكم باريس ، ولى باريس ، والسلام

الطلبة عندنا وعندهم

الطلبة فى جامعة باريس يشبهون إخوانهم فى الجامعة المصرية فى
كثير من الوجوه، وهم جميعا شياطين : فحيثما جلست فسهم ونشاب
تخف لها الأحلام وتطيش العقول ، وأكثر ما تصوب القذائف إلى
الفتيات اللاتى يتلقينها فى جندل وابتسام
وأظرف ما أذكر من حوادث الطلبة فى الجامعة المصرية كان فى
قصر الزعفران سنة ١٩٢٦ حيث نثر الطلبة مسحوق الفلفل بين
المقاعد ، وكان الدكتور طه حسين يحاضر فى انتحال الشعر الجاهلى
وكنيت بجانبه ، فلم تصبنا ولله الحمد شظية من شظايا الفلفل ، غير أن
صديقنا الأستاذ أهياوى كان قد حضر ليعرف إلى أى حد كان
انتحال الشعر الجاهلى ! فجلس بين الطلبة وهو أقصر منهم ، ويظهر
أن خياشيمه كانت ضعيفة فأخذ يعطس وحده باستمرار ساعة
كاملة ، وأنا أشهد صابرا ما يقاسيه المسكين من خطر العاطوس
المجهول . . . ! فإن تذكر أستاذنا الدكتور طه حسين أنه عطس مرة
فى الجامعة المصرية فليعرف الآن أن ذلك لم يكن مصدره البرد ،
وإنما كان مصدره الفلفل المسحوق . وليس بسر ما أذعته أو عطسته
على أكثر من مائتين ! — أليس كذلك ؟

ويل الشجى من الخلى

الأستاذ (د) مدير معهد ... فى باريس رجل فصيح المنطق، رائع الهندام. أحسن مايكون إذا خطب أو حاضر، وهو لا يُلقى محاضراته إلا واقفاً. وله فى امتلاك قلوب من يستمعون إليه قدرة عجيبة لا يمتري فيها مكابر ولا حقود عرفته منذ أربعة أعوام، وأعجبت به، ثم صادفته، فلقيت فيه أكرم صاحب وأوفى صديق

وطالما سألت نفسى: ما الذى وصل بينى وبين هذا الرجل؟ أهو علمه؟ ما أظن، فقد كثر العلم والعلماء. أهو كلامه؟ وكيف وكل الناس يتكلمون فى باريس، وأهل هذه المدينة يجيدون الكلام بنوع خاص

وقد انتهيت إلى أن الذى وصل بينى وبين هذا الرجل هو إخلاصه لمهنته، مهنة التدريس، فقد كان يبلغ به الجِد فى محاضراته إلى أن يتوقف فجأة ويسند رأسه بيده فى مثل المغشى عليه، ويظل كذلك نحو ثلاث دقائق إلى أن يعاوده صوابه، ثم يأخذ فى الكلام من جديد، بعد أن يسأل ما الذى كان يقول!

وأنا قد اختبرت مهنة التدريس وعرفت حلوها ومرها ،
ورأيت ما يقاسى المدرسون ، وتبينت كيف تكتوى قلوب
المخلصين فى هذه المهنة العنيفة التى لم يصبر على عنائها غير
الأنبياء ، فمن الحق أن أعطف على الأستاذ (د) وأن تقرب
نفسى من نفسه ، وأن تتوثق بيننا أواصر المودة والاخلاص
لكن صديقى هذا لم يكن ظريفاً إلا فى محاضراته ، فاذا
خرج من حجرة الدراسة فهو انسان ضيق الصدر ، جذب
الكلام ، لا يجذبك إليه ، ولا يقربك منه ، وإنما هو مخلوق
متوحش لا يعرف ما الألفة وما الإيناس .

كنت ألقاه فى مكتبه فينقبض صدرى لا تقباضه ،
وأستوحش لوحشته . وكنت أقدرُ أنه مريض الأمعاء . فقد
شكا ذلك مرة ، لذلك كنت آسى عليه ، وأواسيه ، وأراجعه
فى بعض شئونه علّه يميل إلى أنس الحديث

وأقدم الذكريات بينى وبينه أننا تناولنا الغداء معا فى أحد
المطاعم ، ثم دعانى إلى منزله ، ولكنه اشترط علىّ أن أحتمل
بعثرة أمتعة المنزل إذا دخلته : لأنه يعيش وحده ، إذ كانت
زوجته فى الريف ، فابتسمت وقلت : إننى دائماً أعذر بمثل
عذرك : فإن أمتعة المنزل عندى مبعثرة باستمرار ، بسبب
الكتب والمطبوعات ، وأنا أرجح أن منزلك مبعثر كذلك بسبب

الكتب والمطبوعات ، ثم دخلنا فاذا الكتب مبعثرة فوق البُسْطِ
والأرائك والمناضد ، فتذكرت منزلي ، وحمدت الله على تشابه
حظوظ الأدباء والمدرسين

وأذكر أني كنت أُمَاشيه مرة ، فلما وصلنا إلى ميدان
الأوبسرفتوار وقف بغتة وقال : هذه سيارتي ! ويظهر أن ابني
جاء لتوصيل إحدى صويحباته ! فلنقف لحظة حتى يعود لرى
ماذا يصنع الخبيث !

فقلت : ياسيدي ! إن الطبيعة تعمل عملها ونحن غافلون
فامض بنا وخلّ ابنك يفعل ما يشاء الشباب !

فقال : ولكن الطبيعة ليست في حاجة إلى سيارتي لتعمل
عملها ، وقد كانت الطبيعة تفعل ما تفعل قبل أن تخلق السيارات
وأنا منتظر حتى يعود ذلك الغوى المبين !

فقلت : أرجوك ، ليس من الذوق أن تجرح ابنك في ساعة
حب ، فلنمض بسلام

وأغرب ما مرّ بي متصلا به أن ألقى على أحد الطلبة هذا
السؤال : أنت كثير الاتصال بالمسيو (د) فهل صحيح أنه
يضرب زوجته ؟ فدهشت وقلت : حتى الطلبة في باريس
يتقوّلون على أساتذتهم ويخلقون لهم أقاصيص ! إنه لدهش أن
أسمع أن أستاذا فرنسيا يُتهم بضرب زوجته ، وكنت أعرف أن

الفرنسيين عبيد نساءهم ، وانه إذا ساءت أخلاق أحد الزوجين
فلا مفر من أن تكون الزوجة هي الجانية !

وكان زملاء المسيو (د) قلما يرضون عنه ، ويرون فيه
رجلا مزهوا قليل الرعاية لحقوق الزملاء ، وكنت أعتذر عنه
وقد لاحظت أن المسيو (د) لا يذكر المرأة في محاضراته
إلا بشر ، ولا يرى إلا أنها مخلوق سخيف ، فكنت أقترح
أن صلته بزوجه لا تخلو من اضطراب

لقيت هذا الصديق منذ أشهر فدعوته إلى تناول الغداء
في مطعم الجامع ، فأخذ يعتذر ، فقلت ألا تزال زوجتك غائبة ؟
فقال : لا ، ولكنها سبب ارتباكى . فقلت : كيف ؟ فأجاب :
حالتها الوجدانية

فأخذت أسأل نفسى : ما معنى كلمة (وجدانية) فى هذا
الحديث ؟ أتكون كلمة (سَنْتِيْمَتَال) مرادفة لكلمة (ملاد) ؟
أيحتمل أن تكون هذه من دقائق اللغة الفرنسية التى لا يزال
يفوتنى منها شئ بعد دراسة عشرين عاما ؟

ثم جاءت أيام قدمنى فيها إلى زوجته ، فإذا هى امرأة فى
حكم المريضة ، وليس لها ما تشكو منه غير ضعف الأعصاب

وتواترت بيننا الدعوات والزيارات ، وتبادلنا علائم المودة بغير حساب . وكنت كلما ذهبت لزيارتهم بعد العصر احتجزوني بالقوة لتناول العشاء .

وكان الميسو (د) يتبسط معي في الحديث ، فيسامرنى في كل شئ ، وكان يُدهشنى أن أرى معايب الفرنسيين مشابهة لمعايب المصريين في كثير من الوجوه ، فقد كان يذكر أن الحكومة الفرنسية لا تهتم باستشارة أهل الخبرة ، وإن علماء فرنسا لا تنتفع بهم حكومتهم إلا إذا ماتوا ، أو طعنوا في السن وأصبحوا في حكم الفانين

وكانت زوجته تشاركنا في السمر ، فرأيت الفرق بين عقليهما بعيداً ، ورأيتها مع ضعفها تسيطر عليه ، وهو يداجيها ويماريها ويتمسّ لرضاها ألواناً من متكلف الأسباب

ثم جاءت أسابيع شُغِلْتُ فيها عن هذين الصديقين ، وانتظرت أن يسألانى ، ولكن هيهات ! فإننى لم أتلّق منهما رسالة ولا دعوة تليفونية . فقلت : لا بأس ، هكذا يكون الفرنسيون ، وكذلك يكون وفاء الأصدقاء !

وجاء عيد رأس السنة ، فقلت في نفسى : أليس من البر أن أذهب فأترك بطاقة الزيارة في منزل الميسو (د) بالرغم من

إعراضه وتغاضيه؟ وترددت قليلا، ثم أقدمت، وبعد لحظات
كنت هناك

طرقت الباب ففتحته المدام (د) وهى ملوثة اليدين
مشوشة الأثواب. قتراجعت وقلت: عفواً ياسيدتى، إني أعفيك
من استقبالي، فان البوادر تدل على أنك فى شغل، وإليك
بطاقتى إلى زوجك العزيز

فقالت: انتظر، انتظر. وأسرعت فغسلت يديها، وأصلحت
من هندامها، وعادت فصاغتني وجذبتني إلى غرفة الاستقبال
— ما الذى حببك عنا طول هذه المدة؟

— إن مولاتى تعرف اننى مشغول، وقد زادت أعمالى تعقداً
فى الأسابيع الأخيرة.

— ولكن أما كنت تستطيع أن تكتب إلينا كلمة، أو تحدثنا
فى التليفون؟

— كان هذا واجبا عليكم يامدام. فأنتم اثنان وأنا وحيد، وأنتم
فى وطنكم وأنا غريب

وبعد هذه المحاورة القصيرة سكنت تلك السيدة لحظة ثم
قالت: أصبح أنك انقطعت عنا بسبب أعمالك؟ ألم يشر إليك
المسيو (د) بأن لا تجيء؟

فقلت : كيف يشير إلىَّ بأن لا أجيء ، وكنت ولا أزال
من أكرم الأصدقاء ؟

فقلت : هل ذهبت إليه في معهد . . . بعد أن زرتنا آخر
مرة ؟ قلت : لا .

وما هي إلا لحظة حتى اغبر وجه المسكينة وقالت :

— هل تعرف أن المسيو (د) يفكر في الطلاق ؟

— أبداً ياسيدتي ، لا أعرف ، وهذا نبأ مزعج ، كتب الله

لكم الوفاق !

وهنا اندفعت السيدة تبكي بأحر من بكاء الأطفال ،

وانقبض صدرى لهول المنظر ، وأخذت ألهمها عن بكائها بسؤالها
عن الأسباب

— الأسباب ؟ أتريد أن تعرف الأسباب ؟

إن الأسباب كلها ترجع إلى نقطة واحدة هي أن صديقك

(د) له صَبَوَات وقد شارف الحسين ! هناك نساء ملعونات

أفسدن ما بيني وبينه وحملنه على التفكير في الفراق . كانت

تترد علينا أرملة على شيء من الوسامة ، وكانت تدلله وتناغيه في

حضورى . فليت شعري ماذا كانت تصنع في مغيبى ! وأنا امرأة

يتهمنى من يعرفنى بأنى لا أعرف العصر الحاضر ، ولا أفهم

تقاليد الجيل الجديد

فانهزت هذه الفرصة وتدخلت في الحديث على أشغل
المسكينة عن دمعها المسكوب وقلت :

ولكن ياسيدي ما هو العصر الحاضر؟ وما هو الجيل الجديد؟
الناس هم الناس ، وفضل المرأة هو هو لم يتغير . ولا يُطلب من
الزوجة إلا أن تكون أمينة وفية ، وأنت فيما أعتقد مثال
الأمانة والوفاء

فقلت : لا . ليس هذا هو المهم ! المرأة العصرية في فرنسا
هي التي تعرف كيف تسوس زوجها ، والزوج لا يُسأس في هذا
الجيل إلا إن ترك له الجبل على الغارب ، وخلته امرأته حراً
يذهب أنى شاء ، ويصاحب من شاء . وهذا شيء يثير جنوني ،
ولا أكاد أحتمل التفكير فيه . وكان من العدل أن يمنحني
صديقك (د) ما يمنح نفسه من حقوق الغيرة ، فانه لم يسمح لي
أن أرقص مع رجل واحد أكثر من مرة ، فمن حق أن لا أسمح
له بمراقبة امرأة واحدة أكثر من مرة ! وليت الأمر وقف
عند هذا الحد ، فقد كان يشجعني على الإقامة في الريف ويقول :
إن صحتك في حاجة الى الهواء الطلق ! وكنت أعرف أنه هو
الذي يفكر في الهواء الطلق في باريس ، والهواء لا يكون طلقاً
في باريس إلا لمن يعيش بعيداً عن زوجته ، ليتنفس كيف
شاء ، وينطلق حيث يريد ! ألم يحدثك عن شيء من ذلك ؟ قل ،

أرجوك ، لا تكتم شيئاً ، فقد ارتفعت بينكما الكلفة ، واني لو ائقفة
أنك تعرف مالا أعرف من سره الدفين !

فأقسمت لها — فى صدق — أننى لم أر منه شيئاً غير
التألم لمرض زوجته

فقلت : وهل تعرف لماذا كنت مريضة ؟ قلت : لا ،
قلت : إن صديقك (د) لم يألف الجلوس فى القهوات ، ولم
يتعود التفرُّج فى البساتين ، ومع ذلك كانت أوقات فراغة تُقضى
خارج منزله ، فأين كان يقضيها الخائن أليس كان يقضيها فى صَبَواته
ونزواته مع أمثال تلك الأرملة الملعونة التى أفسدته على أهله
وفتحت لنا باب الشقاء ؟

أشرت فى صدر هذا المقال إلى أن المسيو (د) له ابن ،
وأن ذلك الابن كان ينتفع بسيارة أبيه فى نزوات شبابه ،
وكنى عرفت بعد ذلك أنه مقيم فى بلجيكا وأنه موظف فى
شركة هافلس . وقد رأيت أن أثير فى نفس الزوجة عاطفة
الأُمومة فقلت :

أليس لكأ أولاد ؟ فانى أعرف أن الأولاد يصلون بين
قلوب الزوجين برباط وثيق .

فقلت : لنا ابن واحد ، ولكنه فارقنا منذ زمان

فقلت : كيف ، ولأى سبب ؟

فقلت : لم يستطع ولدنا أن يكون تلميذا نجيبا ، وأنت

تعرف أن صديقك (د) من طبقة البورجواز : فمن الصعب

عليه أن يرى ابنه ينفر من اللاتينى واليونانى ، ويُحَرِّم من

مستقبل الأستاذية . وأسرته كلها أساتذة مثقفون . وكم تأملت

من قسوة الأب على ابنه ، فإن ولدنا لم يكن لديه أى استعداد

للأستاذية ، وكانت طبيعته منصرفة إلى الزراعة وحياة الريف

وفى جميع المرات التى كنا نذهب فيها إلى الأقاليم كان ولدنا

يأنس بالمواشى والدواب ، وآلات الحرث والسقى ، ويطيب له

المقام بين الفلاحين . وكنت أحب أن أشجع فيه هذا الميل ،

ولكن والده كان يتأفف ويتألم من انصرافه إلى الفلاحة ، ويهمُّ

بزجره وإيذائه ، حتى ضاق صدره وأصبحت حياته يئسنا أشبه

شئ بحياة المسجون . ومنذ أعوام ذهب لتأدية الخدمة العسكرية

فلما عاد وجدناه قد ألفَ المطالعة والتهام ما فى الكتب من الشئون

العلمية والأدبية ، ورأى أن يعمل فى بعض المكاتب الكبيرة ،

حيث تنفع هذه الموهبة ، فإن هناك ناسا يذهبون إلى المكاتب

بدون أن يعرفوا ماذا يقرءون ، فيكون وجود مثل هذا الشاب

مصدر ثروة للمكاتب التى تحتاج إلى من يُعرِّف رُؤادها

ماهى أم الكتب ومن هم أشهر المؤلفين
ولكن ذلك لم يغن عنك صديقك (د) فأخذ يؤذى ولده
ويضيق عليه ويحرمه من ارتياد الملاهى ، بحيث كان المسكين
لا يعرف كيف يقضى سهرته . فكان يذهب إلى عمته يحادثها
لحظات ثم يعود قبل الساعة العاشرة ، وأنت تعرف أثر هذا
الضيق فى حياة الشبان . وكذلك خلاّنا وهرب ليعمل فى مدينة
غير هذه المدينة ، وبلاد غير هذه البلاد !

ثم عادت السيدة إلى بكائها وعويلها فقلت لها : صبراً !
فقلت : هذه نصائح يحسنها الخليون ! وكل خلى فصيحٌ يُحسن
القول ويجيد وصف العزاء ! لقد صممتُ على أن نعيش معا
أو نموت معا ، فله أن يساكننى فى البيت أو يحاورنى فى القبر
أما أن أصير أرملة ويظفر هو بعرو من تذهب همومه فذلك
من المستحيل . أأستقر الجرائد ؟ أأست ترى المآسى الدموية
بين الأزواج ؟ إذن انتظر فستفصل الجرائد فجيئتنا بعد قليل
قلت : أليس لكم أصدقاء يتوسطون فى فضّ الخصومة ؟
فأجابت : لا أمل فى ذلك ، فقد أصرّ صاحبنا على الفرقة ،
ويكفى أن ترى كيف تخير أيام العيد لينشر خبر القطيعة بين

جميع المعارف والأصدقاء . على أنني قد فكرت فيما فكرت فيه ،
وربما ذهبت إذا اقتضى الحال إلى بعض الأسرار التي نعرفها
والتي تخاطبه بالكاف - «المخاطبة بالكاف اصطلاح عربي قديم
يقابل (التيتواما) عند الفرنسيين »

فقلت : من عسى أن يكون هؤلاء الأصدقاء ؟ فقلت :
إنهم زملاؤه . فقلت : احذري يا مدام أن تعتمدى عليهم ، فإن
الزملاء قلما يحب أحدهم لأخيه أن يكون له بيت معمور !
ثم خليتها وانصرفت وأنا أردد الحديث الشريف : أبغض
الحلال إلى الله الطلاق . ثم مرَّ بالخاطر بعد هنيهة ما روى عنه عليه
الصلاة والسلام : الغيرة مفتاح الطلاق

وبعد قليل ترددت في الفكر عبارة قلها بعض الأصدقاء
الفرنسيين : (لاسبيل إلى السلام بين الزوجين إلا إذا تمتع كلاهما
بحريته . فإن كان لا بد أن يسيطر أحدهما على صاحبه فمن الخطر
أن تكون السيطرة للمرأة)

وهذا هو الذي كان في منزل الاستاذ (د) فانه لم يستطع
أن يظفر بحريته ، ولم يستطع أن ييسط سلطانه على زوجته ؛
فانتهى به الأمر إلى الهرب ثم إلى الطلاق

فيا حضرات القراء : احمدا الله على سداجة المرأة الشرقية ،
ولا تحسدوا أمثالكم في الغرب فانهم أشقياء تعسون

حديقة النباتات

في باريس

حديقة النباتات في باريس ليست للنبات وحده كما يفهم من اسمها الفرنسي ، إنما هي حديقة النبات والحيوان . ولعل قَصَرَ اسمها على النبات راجع إلى أنها في الأصل أقيمت لذلك ، ووُضِعَ قسم الحيوان فيها بعد حين .

وهي من حيث الشكل جميلة الهندام . وهذا التعبير أدق ما توصف به تلك الحديقة المهندمة الرشيقة التي تبدو لزائرها وكأنها عروس في ليلة الزفاف

في تلك الحديقة أشجار مرّت عليها أجيال ، وشهدت من تقلبات الحوادث وصروف الزمان ما لم يشهده من أمثالها إلا القليل ، ومن الوجهة الفنية تعدّ من أغنى الحدائق في العالم : ففيها نباتات من جميع البقاع ، حتى لينخبل مثلي حين يجد فيها نباتات مصرية لم يسمع عنها ولم يرها في بلاده ، وفيها نباتات كانت في مصر منذ قرون ولا توجد بها الآن . ولا أكتف القارىء أنى رأيت بها نباتا لا يرجمه الفلاحون المصريون . وهو

ما نسميه « الزمير » وهو ينبت في مصر في حقول القمح ويهاجمه الفلاح ، وهو عند الفرنسيين يقدم طعاما للخيل . وتعد حديقة النباتات هذه أكبر مرجع للمشتغلين بالزراعة وتنظيم الحدائق والحقول . والرجل المتطلع يقضى فيها أياما وأسابيع لا يمل ولا يسأم ولا ينتهى درسه لما فيها من أنواع النباتات والأشجار والأزهار . وأمام كل حوض بيانات وافية تنفع الحريص على تعقب ما في هذه الحديقة مما يجب درسه وفهم ماله من الخواص أما قسم الحيوان فهو ضئيل بالنسبة إلى قسم النباتات ، ويمكن الحكم بأنه صغير جداً بالنسبة لحديقة الحيوان في مصر ، ولا ينتظر غير ذلك : لأن الجو في فرنسا لا يسمح بمثل ما يسمح به الجو في مصر من الرفق بالحيوانات الأفرقيه والأسيوية . ولأجل هذا تعتبر حديقة مصر من كبريات حدائق الحيوان في العالم . لكن لقسم الحيوان في حديقة النباتات في باريس حظ ليس لأخيه الأكبر في حديقة مصر . ذلك بأن أهل باريس يخصصون حديقتهم بساعات جميلة جداً من أيام الآحاد . والساعات الجميلة تبتدىء من الساعة الثانية بعد الظهر إلى السادسة حيث يدخل الجمهور مجاناً لمشاهدة الحيوانات التي ألفت تقبل الهدايا من الزائرين ، وصارت تنتظرهم انتظار الصديق للصديق . وليس من المبالغة في شيء أن نقول أن ساعة في حديقة النباتات في يوم

الأحد تعدل جيلا يقضيه الرجل منعا في مدينة من مدن الشرق ، فالنامس هنا يعرفون كيف يصيرون حياتهم جميلة محبوبة ، لا أثر فيها للسأم والملل . فاذا رأيت ثم رأيت الفتى وأخته ، أو الزوج وزوجته ، يغدون إلى الحديقة في وجوه فرحة مستبشرة ، ومع كل فريق زاد خاص جاء به لمداعبة الحيوانات ، وقد تعودت الحيوانات هذا البر فهي تقف على أظافرها وتمد أعناقها في رفق ودعابة لتأخذ ما يقدمه إليها الرجال والنساء والأطفال .

للأطفال حظ عظيم جدا من المتع البريئة أيام الأحاد في حديقة النبات ، فهناك تقدم الجمال والحمر والبغال لركوب الأطفال ؛ والجمال مركب لطيف يُنَاخ فيصعد إليه الأطفال في مَرَح شديد ، ثم يقوم بهم فيتضاحكون ، ثم يمضي بهم في أرجاء الحديقة نحو خمس دقائق ، وفي عنقه الجلاجل تمتع الراكبين والمتفرجين بصلاصلتها الشائقة بين الأزهار والأشجار . وقد يُنَاخ الجمال فيركب الأطفال ويمتنع من النهوض ، فلا يزال الجمال يلاطفه تارة ويخاشنه أخرى ، والجمال يتأبى ويتبدل ، فإذا كلمه بالعربية نهض في غير بطء ولا استرخاء ، وإذا كلمه يتضاحك

الناس جميعاً إذ يذكرون أن لغة طرفة بن العبد أحب إليه من
لغة أنا تول فرانس !

والعجيب الشائق أن يرى جحش صغير جداً يقود عربية
يركبها الأطفال ، وتلك أكبر مُتعة للصبية الصغار الذين لا تقع
أعينهم على هذا الحيوان الألف الصبور إلا في يوم الأحد في
حديقة النباتات ، والحمار حيوان مظلوم ، كما يقول بوفون ، يهتمه
الناس بالبلادة والقبح ، مع أنه في رأيه غاية في اللباقة والجمال .
وبهذه المناسبة أذكر أن أشهر الحمير في العالم حمير مصر وهي
غير الحمير المعروفة التي لا تُدرك ماترى ولا تفهم ما تقول من
أدعاء العلم والبيان ، إنما هي الحمير التي تمشى على أربع لا على
اثنتين ، وتأكل الفول والشعير ، وكان من حظها أن اقتنت منها
عريب المغنية المشهورة معشوقة ابن المدبر حماراً مصرياً ظريفاً
كانت تطأ به راكبة أندية الوزراء والشعراء . ويظهر أنه لهذا
السبب كان شوقي يركب حماراً في الأيام الخالية ، كما حدثنا في
مقدمة الشوقيات ، وكان الشيخ عبد المطلب يرى في الاصائل
والعشيات على ظهر حمار في حي المغربلين . . . إنه حقاً حيوان
مظلوم كما يقول بوفون !

في غير أيام الآحاد تكون حديقة النباتات هادئة فلا ترى فيها
الألوف المؤلفة من الفتیان والفتيات والأطفال . ولكنها تظل
مع ذلك مأهولة يؤمها الحريصون على العلم ، والمغرمون
بالصيد بين الحمايل والأزهار ! فهنا رجل يدرس نبتة أو زهرة ،
وهنا فتاة على موعد من حبيب ، وهناك فتى ضاقت به
الأرض فهو يبحث لروحه عن رفيقة مؤنسة تذهب بما في
دنياه من أسباب الكمد والغیظ . وفي هذه الناحية شاب
مكدود بيده كتاب يدرسه بعناية وجهد ، وفي ذلك الجانب
شاعر مغترب يدمدم ويقول :

يا جيرة السين يحيا في مرابعكم
فتى إلى النيل يشكو غربة الدار
جنت عليه لياليه وأسلمه

إلى الحوادث صحب غير أبرار
ثم تمر الساعات في تلك الحديقة والطبيعة تفعل ما تشاء في
تكوين عواطف الانسان والحيوان والنبات ، والجماد أيضاً ،
فقد يكون لهذا الوجود أسرار خفية من التآلف والاتساق
لم يصل إليها الباحثون .

كل ما في حديقة النباتات في باريس ساحر فتان ، وفي كل

ركن من أركانها ، وحول كل حوض من أحواضها ، وفوق
هضبتها العالية ، نَعِمَتْ قلوب ، وشَقِيَتْ قلوب . والحب جنة
وسعير ، ونعيم وعذاب

لكن ما هذا القادم الجديد ؟ هذا مسجد باريس بُنى منذ
أعوام قلائل أمام حديقة النباتات !
فان أُتِيح لك أيها القارئ أن تظفر بصيد في تلك الحديقة
التي طال عهدا بالفخاخ والأشراك ، فترقب وحاذر ، فقد
يقرع سمعك في تلك اللحظة صوت غريب يصيح بالعربية
الفصيحة فوق مأذنة عالية :
الله أكبر ! الله أكبر !
اذكر هذا وتهيب عواقبه ، وتأدب مع غافر الذنب ،
وقابل التوب ، شديد العقاب

باريس في ١٣ يولييه سنة ١٩٣٠

الأدب والحياة

الى الأستاذ محمد السباعي

صديق

اسمح لي أولاً أن أصارحك بأنك ظلمت نفسك وظلمت
قراءك في الكلمة التي وجهتها إليّ منذ أيام . ظلمت نفسك حين
ظننت أنك كابن الرومي حين يقول :

مالى أرانى كأنى قد زرعت حصّى

في عام جَدب وظهر الأرض صفوانُ

في حين أنك لم تزرع إلا كريم البذور في أرض خصبة
مغمورة بروافد النيل . فإن كانت هناك لحظات ضَجَرَ تخيل
إليك أنك منسىٌ مجهول فلا تنس أن تستعِذ بالله من شر
اليأس والوسواس ، وإن كنت ترى ناساً أنصفهم دونك
الزمان ، فارق نفسك فسيطغى النسيان على خلق كثير
ويبقى اسمك في الخالدين . وظلمت قراءك حين حسبتهم غافلين
عن فضلك ، وكان ينبغي أن تذكر أنك قضيت أكثر من
عشرين عاماً وأنت في أقدم مكان من أنفس القراء . والواقع

أن القراء في مصر جديرون بالإعجاب : فان إحساسهم قوى جداً بروائع الفنون والآداب . ولك أن تنظر إلى رقى الصحف المصرية التي كادت تفوق الصحف الأوربية ، إذا استثنينا الصحف الإنجليزية ، فإن هذا الرقى تعاون في إيجاده القراء والكتاب ، وكان فضل القراء أكبر لأنهم أعانوا أرباب الصحف على الاتقان والتجميل . فلا تبتئس أيها الصديق الفاضل وامض في طريقك غير هيب ، وثق أن القراء فوق ما يظن المتشائمون

وأعود فأحدثك أني أردت أن أوجه إليك هذه الرسالة لأبين لك أن القارئ وال كاتب قد يتوافقان وقد يتنافران . فلا تنتظر أن يوافقك القراء جميعاً ، أو يخالفوك جميعاً ، لأنك وإياهم تستمدون حماسكم من الحياة . وأنت رجل تدل آثارك الأدبية على أنك فهمت كيف يطيب العيش ، وعرفت أن الأديب يجب أن تكون له حوادث يرويها قبل أن يشغل برواية حوادث الناس . فهل تظن أن الناس جميعاً يجب أن يستطيعوا ما تكتب في حين لم يقدر لهم جميعاً أن يعيشوا كما عشت ، وأن يفهموا كيف يكون نعيم الحوامس !

على أنه لو كان يُنتظر من كل كاتب أن يرضى جميع القراء

لتقصفت مئات الأقلام . والعقل يفرض علينا أن نطمئن إلى
 أن قراءنا لهم ألوف مؤلفة من الأهواء والميول والأذواق .
 فإن أزعجك أن ينصرف عنك قارئ لأنه يواجه الحياة بذوق
 غير ذوقك ، فثق أن هناك من يقبل عليك وينتظر : لأنك
 تحدثه عن نفسه حين تتحدث عن نفسك . ولعلك تدرك تمام
 الإدراك أن الأديب العبقري يجب أن يكون في شغل بفنه
 وفكره وإلهامه عما يحب الناس وما يكرهون . فعلى البلبل
 أن يغرد حيث يطيب له التغريد ، وليس عليه أن يفتن مُصمَّ
 الآذان ، أو غُلف القلوب

وإني لأقدم إليك مثالا من فهم بعض القراء للشعر البليغ
 وأذكر لك أن للبحترى قصيدة رائية بعث بها إلى ابن المدبر
 يستوهبه تحفة من تحف الجمال في عيد المهرجان . وتلك الرائية
 تعد من نواذر قصائد البحترى ، ويطيب لى دائما أن أطوف بها
 كلما واجهت شعره الرنان . وقد استعرت ديوان البحترى في
 هذه الأيام من أحد الأصدقاء المقيمين في باريس . وهذا الصديق
 يرتفع عن القارئ العادى لأنه في حكم المتأدبين ، ومن عادته
 أن يضع على هوامش الصفحات حكمه على ما يقرأ ، وهو يكتفى
 بكلمة (جيد) أو كلمة (سخييف)

وإليك القطعة المختارة من تلك القصيدة ، وسأخبرك عن
حكمه عليها بعد ذلك :

وقد زعموا أن ليس يغتصب الفتى
على عزمه إلا الهدية والسحر
فان كنت يوماً لا محالة مهدياً
ففي المهرجان الوقت إذ فاتنا الفطر
فان تهّد ميخائيل ترسل بتحفة
تقضى لها العتي ويغتفر الوزر
غريّر تراء آه العيون كأنما
أضاء لها في عقب داجية فجر
ولو يبتدى في بضع عشرة ليلة
من الشهر ماشك امرؤ أنه البدر
إذا انصرفت يوماً بعطفيه لفته
أو اعترضت من لحظه نظرة شرر
رأيت هوى قلب بطيئاً بزوعه
وحاجة نفس ليس عن مثلها صبر
ومثلك أعطى مثله لم يضق به
ذراعاً ولم يخرج به أو له صدر

على أنه قد مرَّ عمرٌ لطيبه
 ومن أعظم الآفات في مثله العمرُ
 غداً تفسد الأيام منه ولم يكن
 بأول صافي الحسن غيرَه الدهرُ
 ومُنَى بخطئٍ حيةٍ مُدْهَمَّةٍ
 لخدَّيه منها الويل إن ساقها قدُرُ
 تجاوزَ لنا عنه فإنك واجدٌ
 به ثمنا يُغليه في مدحك الشعرُ
 ولا تطلب العِلَّات فيه وترتقى
 إلى حيلٍ فيها لعنْدِرٍ عذْرُ
 فقد يتغابي المرء في عظم ماله
 ومن تحت بُردِيَّه المغيرة أو عمرو
 فما رأيك في هذا الشعر؟ ألا ترى أنه لو تُرجم إلى اللغة
 الفرنسية لاستطاع أن يزاحم شعر بودلير وفرلين؟ ومع هذا
 لم يعفه صاحبنا من الحكم عليه بأنه (سَخيف)
 وهذا السقم في الأذواق مرجعه إلى فقر الحيوية في
 أنفس بعض الناس، وقد حدث مرة أن ثارت بيني وبين
 أحد المتأدبين مناقشة حول المبالغات والتهويلات التي يصادفها

القارئ في المؤلفات العربية ، وكان رأيُه أن حقائق الأدب العربي كلها خيالات ، وأن الشعراء والكتاب كانوا يصفون ما يتوهمون لا ما يشعرون . وقد ضرب المثل بالتعابير الآتية في وصف الرسائل الإخوانية :

كتاب كتب لي أماناً من الدهر ، وهنأني أيام العمر ...
 كتاب لو قرئ على الحجارة لانفجرت ، أو على الكواكب
 لانتثرت ... كتاب كدت أبلية طيماً ونشراً ، وقبلته ألفاً ويد
 حامله عشراً ... كتاب هو من الحسن روضة حزن ، بلجنة
 عدن ، وفي شرح النفس ، وبسط الأُنس ، برد الأُكباد
 والقلوب ، وقيص يوسف في أجفان يعقوب كتاب
 تمتعت منه بالنعيم الأبيض والعيش الأخضر ، ووكلت طرفي
 من سطورهِ بوشى مهلل ، وتاج مكلل . وأودعت سمعي من
 محاسنه ما أنساني سماع الأغاني ، من مطربات الغواني ...
 كتاب كتب لي أماناً من الزمان ، وتوقيع وقع مني موقع
 الماء من العطشان

وقد سألت ذلك صاحب عما يأخذه على هذه التعابير :
 أهو الديباجة والصياغة الفنية ؟ أم هو ما تنطوي عليه من
 مستور الأغراض ؟ وكان جوابه أنه لا يعقل أن تصل الرسائل
 إلى هذا الحد من سحر النفوس ، وأن الكتاب كالشعراء كلهم
 كاذبون !

ولم أجد ساعتئذ ما أقنع به صاحبي غير رسالة فرنسية
كانت وصلت في الصباح فعرضتها عليه ، فما كاد يتم قراءتها
حتى اصفرَّ لونه وقال : أهكذا تعيش في باريس ؟ !

ولا أكتمك يا صديقي أن تلك الرسالة كانت تعد
— لو صدقت في الوعد — بيلة سباعية ، لولا أنها كانت من
إحدى اللواتي عناهن من قال :

ألا إنما ليلى عصا خيزرانة

إذا غمزوها بالأكف تلين

تمتع بها ما ساعفتك ولا يكن

عليك شجاً في الصدر حين تبين

وإن هي أعطتك اللبان فإنها

لآخر من مخلصها ستلين

وإن حلفت لا ينقض النأي عهدا

فليس لمخضوب البنان يمين

فلا تنس حين تبكي مصاب الإنسانية في مصابك أن

تذكر أن أخاك يقاسى أضعاف ما تقاسى أنت والإنسانية جمعاء !

بقى يا صديقي أن أعترف لك في صراحة وإخلاص أنني
أصبحت أحقد أشد الحق على كائنين من كائنات الحياة : وهما
الأدب والمرأة

أحقد على الأدب لأنه لا يستقيم له حال إلا إذا حمل صاحبه
على المخاطرة في ظلماء الوجود ، ولن تجد في العالم كله أديباً ذا مكانة
إلا وله في ميادين الحياة ثارات وحزازات لن تموت . والقراء
الذين يحيا على حسابهم الأدب وأهله لا يؤمنون بوجود الأديب
إلا إن رأوا أحشاه تشرق بين السطور . وقد ترى أحياناً ناساً
يهاجون الأديب ويتهمون به بالخروج على التقاليد . وهؤلاء
الناس لا يفعلون ذلك حرصاً على الأخلاق ، وإنما يقعون في
أعراض الأدباء حسداً منهم على ما رزق النابغون من مواجهة
أسرار الحياة ... ولكن ما قيمة ذلك ، وما الذي فيه من العزاء ؟
إن الأديب سيظل — ولو انتصر — كالشمعة تضيء للناس
وهي تحترق

وأحقد على المرأة لأنها لئيمة ، وأى لؤم أشنع من أن
تراها تتلمس أسباب الفتنة لتريك أنها تستطيع دائماً أن تجد إنساناً
سواك ... وهي مع هذا اللؤم شر لا بد منه ، لأن الحياة قضت
بذلك ، وعلى من يعشق الجمال أن يطمئن طائعاً أو كارهاً إلى
سلطان تلك الحية النضناض !

وقد فكرت كثيراً في شر الأدب على أهله ، ولكنني
لم أستطع الخلاص : لأنه كُتب على أن أحييا من مهنة الصحافة
ومهنة التدريس . فهل تراني أفلح إذا اقتصرت على أن أحادث
قرائي وتلاميذتي في فضل الصمت وشرح دلائل الخيرات ؟ !

وكذلك فكرت في شر المرأة ، ولكنني كذلك لم أستطع
الخلاص : لأن المرأة شُبِّهت صدقا بالشمس ، فهي تلقانا في كل
مكان ، وليس عن سحرها محيد

أضف إلى ذلك ياسيد سباعي أن هنا إنسانة في الحى
— الحى اللاتيني لا الحى الحسيني — انسانة من بنات حواء ،
حواء المذكورة في التوراة والقرآن ، حواء التى نقلت أبانا آدم
إلى صفوف المناكيد وأخرجته من عالم الأزهار والثمار إلى
عالم الشطة والفلفل والفول !

فبالله لاتنس أخاك حين تبكى مصاب الإنسانية ، لأن
أخاك أيضا إنسان ، وهو فوق ذلك عاشق وأديب !

جواب الأستاذ السباعي

الى الدكتور زكى مبارك

ما وجدُ صادٍ بالحبال مُوثَقَ بماءِ مزن بارد مُصَفَّقَ
 بالريح لم يكدر ولم يُرْتَقَ جادت به أخلاف دَجْن مُطْبِقَ
 بصخرة إن تر شمساتُ تبرقِ مادَ عليها كالزجاج الأزرقِ
 صريحٌ غيثٍ خالصٍ لم يُمدَقِ إلا كوجدى بك لكن أتقى
 يافتحا لكل باب مُغلقِ وصيرفيا ناقداً للمنطقِ
 إن قال هذا بهرَجٌ لم ينفَقِ إنّا على البعاد والتفرقِ
 لنلتقى بالذكر إن لم نلتقِ

وردت على رسالتك القيمة التي حاولت في خلالها أن
 تسكن من ثائرة غضبي على المجتمع المصرى ، وتحبب إلى الحياة
 وترينها في نظرى

وفى الحق يا صاحبي انى على كل تسخّطى وتبرئى وصرخاتى
 لا أعرف عن نفسى إن كنت فى الواقع شقيا أو سعيداً ،
 أو محظوظاً أو منكوداً ، وما يدرينى لعل حين يُخيل إلى أنى أشد
 الناس محنة وبلاءً أكون فى الحقيقة أشدهم لذة وصفاء ، ولا جرم

فأولى الناس بأن يكون المنعم المغتبط الفائز بالقسط الأوفر من
لذات الحياة هو من كان في طاقته ومقدوره كلما شاء أن يترفع
عن سفال ماديات الحياة إلى ملكوت روحانياتها ، وينتقل من
عالم الحقيقة المرة القاسية السمجة الجافية إلى عالم الخيال المملوء
بمعسول الأحلام والأمانى ، وكان في كفه مفتاح مملكة السحر
وما بها من فراديس الخور وملاعب الجنة ... كل ذلك منطو
تحت لواء الفن ومن ميراث أهله وأربابه ، وهذا مصداق كلمتك
التي رميت بها في عرض رسالتك إذ قلت لى « ولعلك تدرك
تمام الإدراك أن الأديب العبقري يجب أن يكون في شغل
بفنه وفكره وإلهامه عما يحب الناس وما يكرهون ، فعلى البلب
أن يغرد وليس عليه أن يفتن مُصم الآذان أو غُلف القلوب » .
ألا حيّا الله الفن والخيال والشعر ! إنه يترك الفقر أغنى من
الغنى ويدع الوحشة أشد إيناساً من الأُنس ، وإن هنالك من
نوابغ الفنون وأئمة الآداب من إذا اشتد به البلاء لم يزد إلا
غبطة وسروراً ، ومن يدوم عليه الفقر حتى يودى بحياته فلا
يشعر به ولا يحسه ، فهو في حلم سرمدى ذهبي فردوسى ، وهو
وإن توسّد التراب وداسه الناس بأقدامهم ليحس على شفّيته
قبلات الخور العين معطرة نفّاحة ، ويعيش في الفكر والخيال
في حدائق وجنات مسحورة وقصور وصروح مدهشات ،

وكنوز مفعات بنفائس التحف والطرف من ماس الهند
وعقيانه ، ولؤلؤ الخليج ومرجانه

وكأي من شاعر تراه أعين الناس في أسمال وأطمار ، خاوى
الوفاض ، بادی الأفاض ، وهو من عالم الخيال في مجبوحه
يحسده عليها ملوك الأرض لو يفقهونها ولكنهم لا يفقهون ...
كذلك يسير الفنان العبقرى بين الناس ، ظاهره شحاذ وباطنه
« مليونير » مثله كالولئى الواصل تنظر عيناه إلى الباطن فترى
العجائب والغرائب ، ويطوف في مسالك الحياة كالطائف في
حلم ، لا يشاهد ما يشاهد ، ولكنه يرى ما قد حرمت علينا
رؤيته ، وبعد ذلك فبأى حق نعد أنفسنا أعظم منه شأنًا وأحسن
حالا ، وبأى حق يسوغ لأففسنا أن نتعطف عليه بالثناء والرحمة
ألسنا نحن الأحق برحمته وراثته . . . ماذا صنعنا وماذا صنع هو ؟
لقد أخذنا الحياة بأفاتها وعلاقتها . . . بأقذارها وأقذائها ، وعرف
هو كيف يحول سخف الحياة وسماجتها لذة وطربا ، وفتنة عجا ،
ويرد أجاجها غيرا ، وسمها إكسيرا ، وترايها عنبرا ، وحصباءها
جوهرا ، وتنافرنا انسجاما ، وضوضاءها أنغاما

من أجل ذلك قال (أناتول فرانس) لما مات الكاتب
الروائى (فيليير دى ليل آدم) ما معناه :

— لقد مات وترك الدنيا غير آسف عليها ، مع أنه لم ينعم

قط بأدنى شيء مما يسميه الناس لذاتها وطبيباتها . لقد أنشب فيه
 الفقر مخالفه وشد عليه قبضته فلم يك في طاقة مخلوق أن يستنقذه
 من إيساره . لقد قضى ثلاثين عاما يغشى حانات الليل ثم يحنق
 مع أول أشعة الفجر ، لقد طبعه الفقر بطابعه ، ووسمه بميسمه
 وصبه في قلبه ، فأصبح كبعض أولئك المتشردين الذين ينامون
 على المقاعد العمومية بقوارع الطرق ، وكان أصفر اللون لا يريق
 بعينه ، مقوس الظهر ، وعلى الرغم من كل ذلك أرانا اليوم في
 حيرة من أمره لا ندري أنكتبه في سجل الأتقياء أم في سجل
 السعداء ، وجدير هو بالحسد منا أم بالرحمة والثناء . لكأنني بطيف
 خياله يهبط علينا من عالم الأرواح فيقف على إحدى تلك الموائد الملوثة
 بآثار التبغ والنبيد فيصب عليها من أعاجيب أحلامه ذهباً وجماناً ،
 وينفسجها وأرجواناً ، ثم يميل رأسه ناحية ويخاطبنا بصوت تهتز في
 نبراته أوتار الوحي والنبوة قائلاً « معشر الخلان والأخدان اغبطوني
 ولا ترحموني ، فإن من البغى والعدوان أن تأسفوا على المالكين
 كنوز الجمال والفتنة ، ولقد كنت من أولئك ، لقد ملكت الجمال
 ولم ألك أبصر شيئاً سواه ، أليس عجيباً أن دنياكم هذه التي ترونها
 وتعيشون فيها لم تكن موجودة في شعوري ولا في نظري ،
 وأنا لم أنزل قط ولم أتسفل إلى محاولة مشاهدتها ؟ إنما لي عالم
 باطني أعيش فيه وأتقلب ، وتظل روحي بين أرجائه الفيح تلهو

وتمرح في جنات تجرى من تحتها الأنهار، وقصور من الياقوت
والزبرجد... اقرأوا كتابي المسمى « اكسير » هنالك ترون
اثنين من أجمل خلق الله رجلا وامرأة مابرحا يبحثان عن كنز من
الذهب حتى وجداه ، ولسوء حظهما وجداه ، فإنهما ما كادا
يحوزانه حتى أساما نفسيهما للموت الزؤام ، إذ علما أنه لا كنز
هنالك يستحق أن يعيش له إلا إنسان في هذه الدنيا إلا الكنز
الروحاني المقدس : كنز الخيال والحكمة والجمال ، واعلموا يارعاكم
الله أن الكوخ الحقير الذي كنت أعزف فيه على أوتار مزهري
المحطم كان في الحقيقة أجل وأنخم من قصر اللوفر (بياريس)
ألم يقل لنا الفيلسوف الأعظم (آرثر شوبنهاور) مامعناه :
« أي قصر مشيد سواء كان الحمراء أو الإيوان يداني في رونق
الجمال وأبهة الجلال ذلك الجحر المظلم الذي كتب فيه الروائي
الأكبر (سرفنتين) كتابه الخالد « دون كيشوت » ؟

لقد كان « شوبنهاور » نفسه يقتنى تمثالا من الذهب للإله
« بوذا » ليدكره دائما بأن الثروة الحقيقية هي احتقار الثروة .
لقد نلت بقوة خيالي ما لم ينله أعظم ملوك الأرض في الحقيقة ،
لقد تبوأ الأرائك وقُدت الكتائب وخلقت لنفسى سيرة
كأعجب القصص والأساطير ، وقد بلغ من فرط امتزاج احلامي
باليقظة واندماجها في الحقيقة انه يستحيل فصل إحداها من

الأخرى ، سلام عليكم ، لقد عشت أنغم العالمين شأنًا وأعظمهم أبهة
وساطانا »

عليك رضوان الله أيها الخيال الطائف ! لقد آثرت الروح على
الجسد وانصرفت غن المادة الى الخيال ، فاخترت الأسنى على
الأدنى ، واصطفيت الطيب على الخبيث ، فليقل الأغنياء والأقوياء
ما شاءوا ، انه لا نعيم أكبر مما يلقاه الذين يضحون في سبيل حب
عظيم ، ولقد أحببت الفن والفكر فوق كل ما عداهما ، وكان
جزاؤك ألد الأضاليل والأوهام ، وأبهج الخدع والأحلام ، والحب
العظيم والعشق الخالص قلما يكون مجدبا عقيما إنما يكون مصحوبا
بأشهى الثمرات . لقد زين الخيال فراغ روحك السامية وفضاء
نفسك المنفردة العظيمة بأبداع متحف من الصور والأشباح

هنا يقف بي القلم . وفي مجال آخر أخطبك في شأن الباريزية
التي زعمت أنك مولع بها الآن . لا أخلى الله لك مهجة من لوعة ،
ولا مقلة من دمة . والسلام

حياة العمال في باريس

يفد الناس على باريس من جميع أقطار العالم فيعجبون لما فيها من القصور الشواهد ، والميادين الفيح ، والبروج الشوامخ . ويزيد عجبهم كلما توغلوا في أرجائها فرأوا التماثيل العديدة التي تزخر بها الحدائق والمتاحف والميادين ، ويقفون حيارى ذاهلين أمام السكك الحديدية التي تسير تحت الأرض ومن فوقها المنازل والشوارع ونهر السين . ويكاد يظن زوار باريس أنها هكذا خلقت ، وأن الباريسيين قوم أنعم الله عليهم بهذه المدينة العجيبة التي لم يُخلق مثلها في البلاد ، وكأنه لم يشق في بنائها ساعد ولم يعرق جبين والواقع أن من الباريسيين أنفسهم من لم يفكر لحظة واحدة في ماضي باريس وحاضر باريس : فالأجانب معذورون إذا فاتهم أن يتأملوا ما تكلفت هذه المدينة الخالدة من المصاعب والمشاق حتى صارت مضرب المثل في العظمة والجمال

باريس هذه التي فتنت من فتنت ، وأضلت من أضلت ، وهدت من هدت ، مدينة لشعب عظيم هو شعب العمال ، وكلمة عامل التي تبدو متواضعة صغيرة هي السر كل السر في مجد باريس . وإذا كان في مصر والشرق من لا يقدر قيمة العامل فمرجع ذلك

أن المصريين والشرقيين مضت عليهم أحقاب وهم يعيشون في ظلال ما ترك الآباء والأجداد . أما الباريسيون فهم يعلمون حق العلم أنهم بنوا مدينتهم بأيديهم ، وأن باريس قبل قرنين اثنين لم تكن إلا مدينة صغيرة قدرة تزجج النفوس وتقذى العيون ، ولولا نابليون الثالث ووزيره البارون هوسمان لما استطاعت باريس أن تستطيل على لندن وبرلين

العمال في باريس شعب قائم بذاته ، له وطنه وتقاليده ولغته وزيه وفلسفته وفهمه الخاص للحياة . والذين يعيشون في باريس عيشة سطحية خالية من التأمل والدرس والتفكير العميق يحسبون أن الباريسيين هم أصحاب المطاعم والقهوات ، وطلبة المدارس والمعاهد والكليات ، ويظنون أن اللغة التي يقرءون بها الكتب والجرائد والمجلات ، ويسمعون بها الخطب والمحاضرات ، ويتفاهمون بها في صالات الرقص ومسارح التمثيل ، هي اللغة الفرنسية للشعب كله من جميع الطبقات . وذلك خطأ مبين

إذا مشيت في باريس ولحمت رجلاً مجعد الوجه قدر الثياب وفي يده (يديه) يتذوق أنفاسها ، وعليه أمارات القلق والذهول ، وقد أسند ظهره إلى الحائط ينتظر عودة زميله من الحانة حتى يستأنفا جهدهما الشاق الموصول ، فاعلم أن هذا إنسان يشاركك في بعض معاني الحياة ، ويخالفك في أشياء كثيرة جداً أقلها أن

فضله عليك أعظم من فضلك عليه ، وأنه أعرف بواجبه ، وأحرص على درهمه ، وأملك لحرفته ، وأسلك في سُبُل الحياة من كثير من أَدعياء اللباقة والذكياسة والتدبير

وإذا ركبنا المترو يوم الأحد وجاورك شاب أنيق اللباس ، حسن الهندام ، مصقول الوجه والعارضين ، يتموج شعره فوق رأسه كأنه الجداول الذهبية ، وفي يده سيجارة يداعب أنفاسها من حين إلى حين ، وإلى جانبه فتاة هيفاء ، كحيلة الطرف ، أسيلة الخد مشرقة الجبين ، تميل عليه لحظة بعد لحظة فتكاد تحرقه بقبلاتها الملتهبة ، والناس من حولهما ينظرون راضين معجبين ، إذا رأيت ذلك الشاب الناعم المترف الجميل ، فذار أن تجزم بأنه تلميذ في مدرسة ثانوية أو طالب في مدرسة عالية ، فقد يكون في أكثر الأحيان عاملاً صغيراً جداً خلى ثياب العمل في ركن من أركان غرفته ، ثم أخذ زينته ليوم الأحد ، وخرج يتلمس أسباب الأُنس والحظ في مدينة الجمال

العمال هم الذين خلقوا باريس . ولكني أعينك أيها القارئ أن تظن أن معنى ذلك أنهم نهضوا بمبانيها العظيمة ، وشقوا طرقها الواسعة ، لا غير ، لا تحسب ذلك فأنا أريد أنهم خلقوا باريس في كل معانيها ، فهي مدينة لهم في كل شيء : فالحرية السياسية التي يتمتع بها الشعب الفرنسي كله يرجع الفضل فيها

إلى عمال باريس ، فهم الذين أشعلوا جميع الثورات بلا استثناء ، ولا
نعرف في فرنسا ثورة صغيرة أو كبيرة لم يكن العمال هم الذين
شبّوا ضرامها وقدموا لها من أنفسهم وأموالهم وعزائمهم
ما تتطلب من الوقود . وكانت باريس في جميع أدوار تاريخها
السياسي مصدر النهضة القومية والدستورية ، وكان عمال باريس
عماد الحركات الثورية جميعها ، وكان تأثيرهم يمتد فتهيج لهماجهم
ليون ومرسيليا وبوردو ، من بين المدن والخواضر الفرنسية
قلت إن العامل الفرنسي له وطنه وتقاليد ولغته وزيه وفلسفته
وفهمه الخاص للحياة ، وأنا أقدر أن من القراء في مصر من
يدهش لذلك ، والحقيقة أن العمال الباريسيين لهم أحياء بل
مدن خاصة بهم في ضواحي باريس ، ويندر من بينهم من يسكن
المدينة بسبب الغلاء الفاحش الذي يهدد أكثرية السكان ، ولهم
تقاليدهم ، ولهم لغة تكاد تكون مستقلة عن اللغة الفصيحة ، والبون
شاسع جدا بين لهجات العمال ولهجات الطلبة مثلا ، إلى حد أنهم
قد لا يستطيعون التفاهم في بعض الأحيان . ونحن نظن في مصر
أن اللغة العامية بعيدة من اللغة الفصيحة ، فليفهم من يريد أن يفهم
أن لغة الجماهير العاملة في فرنسا أبعد من لغة الطبقات المستنيرة
بعداً هائلاً لا يمكن أن يقارن بما بين اللغة الدارجة واللغة الفصيحة
في مصر من الفروق . وفي مدن العمال الباريسيين أوساط غريبة

يدهش المصريين أن يعرفوا أخبارها ، فنحن في مصر لا نسمح
 لمن يحضر الروايات التمثيلية بأن يتدخل مع الممثلين ، بل يغيظنا
 من يكرر « آه » أو « الله » ونعد ذلك من ضروب الفضول
 والانحطاط ، ولكنى حضرت في (بل فيل) إحدى مدن العمال
 رواية رأيت فيها المتفرجين يشاركون الممثلين في الغناء كلما مرّ
 بالمسرح ما يحمل الممثل على الغناء ، ورأيت المتفرجين يستعيدون
 الممثلين بعض القطع الوجدانية ، ويزيدون أحيانا فيقولون للمثل
 أصبت أو أخطأت ، حسبما يقتضى الذوق عند أولئك المتمدينين
 المتوحشين !

ومن جانب الحياة قد يرضى العامل الباريسى بما لا يرضى به
 العامل الصعيدي في مصر : فقد أخبرني أحد الأساتذة الكبار
 أن لديه بيانات وافية عن حياة العمال ، من بعضها أنه قد يسكن
 الغرفة الواحدة اثنا عشر شخصا ، وهم مع ذلك في صحة جيدة ،
 كما قال ، ومنهم من يكتفى بأكلة واحدة لليلة ونهاره ، ومنهم من
 لا يعرف أين تكون الحمامات ، ومنهم من لا يخلع الثوب حتى
 يبلى ، وهم جميعا مع هذا البؤس يذهبون إلى أعمالهم في الساعة
 السادسة صباحا ويعودون في الثامنة مساء

ولعل السر في أن العامل الباريسى لا تفنيه الأيام بسرعة مع
 هذه البأساء أنه من بين عمال العالم كثير الدعابة والمجون : إنه يسخر

من كل شيء ، ويستهن بكل شيء . وكأس واحدة كافية لأن تذهب
 بأشجانه وأحزانه وتسلمه إلى الجذل والمرح والجنون . ولا يكاد
 العمال الباريسيون يلتقون في مطعم أو حانة حتى يتبادلوا
 الطُرف والنكت في هزل ساخر جذاب لا يبقى ولا يذر من أسباب
 اليأس والقنوط . ولو فقد العمال الباريسيون جنونهم لحظة واحدة
 لأفناهم التعقل والتأمل وقضى عليهم الإدراك . وما أحسب الجنون
 كان نعمة إلا في مثل هذه الأحوال ، وعند أمثال هؤلاء الناس
 ورجال فرنسا اليوم يعرفون حال العامل الباريسي وبؤسه
 وشقاءه . ومن أجل هذا أكثروا من المكاتب والمتنزهات في
 أحياء العمال ، وقد لوحظ أن العمال يقرءون بشره عظيم . ومنهم
 من يستعير من مكتبة الحى الذى يقيم به كتابين في كل يوم .
 ولوحظ أيضاً أن العمال يقبلون بنوع خاص على المؤلفات العظيمة
 المحترمة ، وقد يكون حالهم أفضل من حال بعض الطلبة المصريين
 الذين لا يستعرون من المكاتب العامة غير روايات الهزل والمجون
 وعمال باريس يمتازون بالصبر والجلد والارتياح من الناس :
 فقد يصعب أن يصل الباحث الى شيء من مكنونات أنفسهم ،
 ويقل فيهم من يعطى اسمه ولقبه حتى في بعض الشؤون الرسمية .
 وسر ذلك أنهم يحقدون على الأغنياء وأرباب الأموال . وليس فيهم
 من يحب عمله إلا العامل الذى تبيح له طبيعة العمل أن يذكى

مواهبه ويعطى شيئاً من نفسه كالنجارة والحداثة وصنع الساعات.
أما العامل الذى يقوم بنقل الأحمال والأثقال ، وشق الطرق ،
ورصف الميادين ، فهو فى الأغلب رجل مبتئس متبرّم بالحياة ،
يحمّله الضجر على بغض ما تمسه يده ، وتراه عينه ، من مختلف
الأشياء .

باريس فى ١٠ سبتمبر سنة ١٩٣٠

المخاطرة

إن داء المصريين والشرقيين أنهم لا ينتقلون إلا إذا كانت
خطواتهم مضمونة النفع ، مأمونة العواقب . مع أن المجد من
نصيب المخاطرين

وفى رأي أن الرجل الذى يخاطر فيخفق خير من الرجل
الذى يخاطر فينجح : لأن الاخفاق أدعى إلى تقويم الرجال وإرهاف
العزائم من النجاح . . . والمال والكسب من الحظوظ الثانوية فى
ميادين النضال

على أن الرجل المخاطر إن أخفق اليوم فسينجح غداً .
والعاقبة للصابرين

مرسيليا

مرسيليا مدينة عظيمة من كبريات المدن التي شهدت فجر
المدينة على البحر الأبيض المتوسط ، ولا يعرف جلالها وعظمتها
وكبرياءها غير القادم إليها من البحر ، أما الذي يصل إليها عن طريق
البر فلا يكاد يرى من جمالها إلا القليل

يبحر المسافر من الاسكندرية فيقضي في البحر أربعة أيام
أو خمسة أيام ، تبعاً لاختلاف السفن البخارية في المقدرة على العبور ،
وفي تلك الأيام يكون المسافر قد عرف كل شيء من بأساء الحياة
ولينها ، فهي أيام معدودة ولكنها في طولها أعوام : ففيها بؤس
ونعيم ، وسعادة وشقاء . ولعل أغرب ما فيها — بعد قسوة الرياح
والأعاصير وما ينتاب المسافرين من مرض البحر المزعج الثقيل
الذي أعيا الأطباء — لعل أغرب ما فيها حوادث الحب والوجد
والاشتياق . وكم لمت شوقي على أن قال :

نظرة فابتسامةً فسلامً فكلامً فوعدهً فلقاءً

لمته على هذا البيت : لانه جعل حوادث الحب أشبه بالمنظر
السينمائي : تتجمع وتتفرق في سرعة البرق ، مع أن الحب كسائر
الأمراض له أدوار مختلفة يعالجها المصاب رويداً رويداً الى أن يعز

الشفاء ، فلما عرفت البحر واصطدمت بأيامه ولياليه فهمت لأول مرة سنة ١٩٢٧ أن الحب قد يستكمل طفولته وحداثته وشبابه في أربعة أيام ، وأن اللحظة الواحدة قد تقدر بأعوام ، وأن يوما في البحر كألف سنة على البر عند من شهدوا الحياتين وعرفوا ما بينهما من شتى الفروق

البحر مهما طابت أيامه وصفت لياليه سجن موحش يرهق المسافرين بما فيه من مظاهر التكلف والتوقر في بيئة مرغمة على مراعاة طائفة كبيرة من مختلف التقاليد ، والبواخر سجون متحركة تطفو على وجه الماء ، والمسافر يعد اللحظات ويسأل نفسه بعد كل غداة وكل عشي : متى أصل ؟ متى أصل ؟ فسفره هو الليل ، ووصوله هو الصباح ، وقلقه أشد من قلق خندج المرى حين قال : متى أرى الصبح قد لاحت مخايله

والليل قد مزقت عنه السرايل

والقطع المتناثرة من الجزائر التي تصادفه في الطريق لا تذهب وحشته إلا قليلا ، ثم تغيب وكأنها لمعات البرق في الليلة الظلماء ، ولا يكاد يقترب المسافر من مرسيليا حتى يبعث روحه وتغازله الحياة من جديد ، وفرح المسافر بمرسيليا يشبه فرح كريستوف كولومب حين وقعت عينه بعد اليأس على شواطئ أمريكا فصاح صيحة الجنون : أرض ! أرض !

إي والله ! هذه مرسيليا ! وهذا شاتوديف ! وهذه نوتردام
دي لا جارد !

ويتجمع المسافرون ، وقد خرجوا من أبراجهم وأقفاصهم ،
فلا يزالون ينهبون بأعينهم وأنفسهم أعلام مرسيليا نحو ساعتين
كاملتين وهم في هرج ومرج يستعدون لمصافحة الشاطئ الآمين .
وفي تلك اللحظة المرحية يتلفت الرفيق إلى رفيقه ، ويتلفت الفتى
إلى الفتاة التي بددت من نفسه ظلمات الوحشة في سجن البحر ،
فيتبادلون التحيات ويقيدون العناوين ويتساءلون متى يكون
التلاقي إذا فرقتهم الميناء . كل هذا يجري تجاه مرسيليا التي لا يعلم
إلا الله كم استقبلت من ضيف ، وكم هدت من حائر ، وكم
آوت من شريد . ولو نطق الجمد لصاحت تلك الصخور :
ادخلوها بسلام آمين !

لا يعرف أحد متى أنشئت مرسيليا فهي مدينة قديمة جدا
غابت أيامها الأولى في ظلمات التاريخ . وإنما يعرف المؤرخون أن
الفينيقيين كانوا قد احتلوا منها منذ نحو خمسة وعشرين قرنا . والفينيقيون
قوم أسيويون كانوا انجليز زمانهم ، جابوا القفار ، وخاضوا البحار
وأنشأوا ما أنشأوا من المدن في الشرق والغرب ، وكان لهم في
العالم القديم سلطان عظيم . ثم احتلها اليونان بعد ذلك وسادوا فيها

نحو ستة قرون ، وكانت اللغة اليونانية لغة المرسيليين مدة طويلة
وكانت عادات اليونان وتقاليدهم وثقافتهم هي السائدة هناك

وقد اهتم الباحثون طويلا بمعرفة ما بقي من آثار الفينيقيين
واليونان في تلك المدينة ، ولكنهم لم يعثروا على شيء يستحق
الذكر . ذلك بأن الفينيقيين كانوا يهتمون أولاً وقبل كل شيء
بالتجارة : فلهذا لم يعرف لهم في تلك المدينة آثار باقية كالأثار التي
تركها الأمم فيما احتلت من البلاد . أما اليونان فأمرهم أعجب لأنهم
لم يتركوا في مرسيليا أثراً واحداً من الأثار العجيبة التي عرفت
بهم وعرفوا بها منذ أجيال . غير أن الأثار المادية ليست شيئاً
بجانب ما تركوا فيها من الأثار الأدبية . وإليك بعض البيان :

لا تزال مرسيليا إلى اليوم محتلة احتلالاً اجتماعياً بطوائف

كثيرة من الجالية اليونانية ، فالخلاقون مثلاً في مرسيليا كلهم من
اليونان ، والصيادون كذلك يونان ، وأكثر البحارة من اليونان ،
ولهجة المارسيليين الذين يحترقون المهن البحرية كالصيد والنقل
وعمل السفن تحتوى على كلمات كثيرة ترجع في أصولها مباشرة إلى
اللغة اليونانية . والأدلاء الذين يهدون المسافرين كلهم يونان ،
واللاهون الذين يعينون على بعض حوادث الليل أكثرهم يونان ،
وأصحاب الحانات والقهوات الصغيرة والعظيمة يرجعون إلى أصول
يونانية . وعلى الجملة أهل مرسيليا في عاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية

مصبوغون بصبغة يونانية في الغالب . ويرجح الباحثون أن ميل
المرسيليين إلى اللهو واللعب والاستهتار والإباحة يرجع في الأصل
إلى أنهم ورثوا عن اليونان عبادة اللذات وتقديس الشهوات
وتفدية الجمال

وقدورث المرسيليون عن اليونان حب المبالغة والمغالاة بنوع
خاص . وما كتبه الفرنسيون عن مرسيليا مملوء بالنكت المستطرفة
عن مبالغة المرسيليين . وإلى القارئ هذا الشاهد الطريف :

وقف مرسيلي على الشاطئ يتصيد الأسماك ، ولكن صنارته
كانت تجلب إليه أسماكاً صغيرة جداً كأطراف الأصابع ، وكان
بجانبه مرسيلي آخر يشهد ما يصيد ، فقال له : ان هذه الأسماك
ضئيلة وصيدها لا يشعر الصائد بأية لذة

— الصائد: كيف تقول إنها ضئيلة ، وأنت لو اصطدت مثلها
لحسبت نفسك من أسعد الناس

— المتفرج : أنا ؟ أنا أصطاد هذه الحقائق ؟ هيئات ! ماذا
تظن ؟

— الصائد : أنت تصطاد أكبر من هذه ؟ ماذا تصطاد إذن ؟

— المتفرج : أنا أصطاد أسماكاً كبيرة جداً ، أنا أصطاد الحوت

— الصائد : الحوت ! الحوت ! وأى شيء هذا الحوت عندي ؟

« اني آتخذ الحوت أحياناً » طعماً . هل فهمت ؟

مرسيليا أعظم مدينة فرنسية بعد باريس ومع هذا يكاد الفرنسيون يعدونها أجنبية عنهم ، ويتنادرون فيما بينهم بذلك ، إذ يقول أحدهم لصاحبه : أنت فرنسى أم مرسيلي ! وإذا أراد بعضهم أن يحقر أحد مواطنيه قال : ماذا تنتظر من رجل نشأ في مرسيليا ! لأن مرسيليا عندهم مجموعة أوشاب من سائر الأجناس

واهتمام المرسيليين بالفنون قليل جداً مع أن المدن الفرنسية من أغنى المدن في هذا الباب ، وليس فيها فيما سمعت حانوت واحد لبيع العاديات ، فهي مدينة اليوم الحاضر والساعة الراهنة ، ولا يهتم بالماضى في شيء

وأهل مرسيليا كسالى قانعون ، والفرنسيون يعللون ذلك بقربها من الشرق ، لأن الشرق عندهم مهد البطالة والفراغ !

والفرنسيون يحسدون أهل مرسيليا على شيء واحد هو طعام (البويايس) وقد أكلت منه مرة ، والحمد لله ! وهو طعام خاص يصنع من مختلف الأسماك ، وله شهرة عظيمة جداً تجلب إليه أصحاب الأذواق ، والمرسيليون يضمنون أشد الضن بالبوح بأسرار هذا الطعام ، ولا يساويه في الشهرة إلا طعام « الكاسوليه » الذى انفرد به أهل تولوز

حدثنا مرة أحد الأساتذة الفرنسيين عن طعام البويايس فقال : « إن الإدام الذى يسرى فيه يشبه خيوط نور القمر ! »

— وما أشهى هذا التشبيه البديع ! — وان الانسان اذا أكل
البويايس وخرج وقع أسير الحب لأول امرأة تصادفه في
الطريق ! »

وهذا صحيح من بعض الوجوه ، فاني أذكر انني وجدت
طعام البويايس في نهاية اللطف ، وليس من المستغرب أن يشبه
إدامه بخيوط نور القمر . ولكني مع ذلك أذكر أني أكلته ثم
تركت مرسيليا خلى القلب ، إلا من ذكره !

باريس في ٦ أكتوبر سنة ١٩٣٠

الشيخ عبد الباقي سرور

في هذه المدينة وفي مثل هذه الأيام من العام الماضي، تلقيت رسالة من صديق الأستاذ الشيخ عبد العزيز صقر شاهين ينعي إليّ فيها رجل العلم والفضل والنبيل الشيخ عبد الباقي سرور نعيم. فألقيت الرسالة على مكثبي، ثم عدت إليها فقرأتها مثنى وثلاث ورباع، وأخذت أستنجد الدمع وأستصرخه وهو يتأبى ويتمنع حتى عدت طعمة للجوى اللاعج اللافح، لا يطفئه دمع، ولا يسكنه نحيب. ففررت من غرفتي أتلمس أسباب العزاء على شواطئ السين، وفي الحدايق التي تزخر بمجموع اللاهين واللاهيات من أهل باريس، فلم يزدني ذلك إلا حزناً إلى حزن، وخيلاً إلى أن الدنيا كلها بما فيها من لهو وضحك وعبث ومجون لا تحمل في جوفها غير مرارة الداء الدوى الذي طال عناده وحر فيه الأطباء ثم رجعت أبحث عن كلمة أودع بها ذلك الصديق الراحل فلم يفتح عليّ بشيء، فطفقت أتلهي وأتغزى بالفقرات التي كتبت عنه في الشورى والأهرام، وأعجب كيف يهوى ذلك النجم وأنا مفهم لا أجد ما أقوله توديعاً لضياؤه الوهاج. وأخذت أروض نفسي على الصبر، وأقنع ضميري بأن هذه طبيعة الحياة، وأن كل حيّ إلى فناء، وأتمثل أمامي أهله وأصدقائه وقد انصرف كل امرئ

إلى شأنه ، ولم تبق في نفوسهم الا ذكرى تهرق حيناً وتخبو حيناً
إلى أن تطويها يد النسيان ، واندفعت أعمالى الشاقة المضنية
ترمينى بقوة فى هوة الشواغل اليومية . . آه . . وكدت أنسى !
غير أننى بالرغم من ضرورات الحياة الصاخبة التى كُتب علىّ
فيها أن أكون جندياً لا يلقى السلاح أو يموت ، كنت أعود إلى
نفسى لأمرح قليلاً فى جوانبها الروحية ، وأقرأ فى ثناياها ما أبقت
يد الزمن مسطوراً فى سرائر الروح الحزين ، إذ ذاك كنت
أشعر بالوحشة المزجة التى رمانى بها القدر يوم اختطف صديقى
عبد الباقي وخلاّنى من بعده أشكو فقد الصديق .

أشكو فقد الصديق !

إي والله ! فإن الذين عرفوا الشيخ عبد الباقي سرور وعرفوا
إلى أى حد كان ذلك الرجل النبيل يعرف حقوق الأخوة ،
ويحفظ واجبات الصداقة ، يعرفون أن من الصعب ، ان لم يكن
من المستحيل ، أن يوجد له فى بره شبيه أو مثيل .

بقى أن أحدث القارىء عن السبب الذى أخرجنى من
دنياى المادية ومضى بالقلم فى تقييد هذه الكلمات : ذلك انى
اقتنيت منذ أيام كتاباً فى أكثر من ٣٠٠ صفحة فى أجمل ورق
وأبقى طبع . وهو مجموعة ما قاله رجال القانون فى تمجيد زملائهم

قتلى الحرب ، فثارت نفسى واضطربت : ألا يكون لنا أيضاً نحن
 شهداء ؟ وهممت أكتب لجريدة الشورى كلمة عن الشهداء فهي
 جريدة قريبة العهد بهذا الوتر الحساس . ولكن أين هم الشهداء
 وأين تلك الحروب ؟ .. هنا أحببت أن أربأ بنفسى عن تصور
 العامة من أدياء المتحمسين ، ورأيت أن هناك أيضاً ميدانا
 تتصاول فيه العقول لا يقل خطرا عن الميادين التى تتخاطر فيها
 السيوف ، وتتقاذف المدافع ، ويتفانى الجنود . فاذا استباح أحد
 لنفسه أن ينسى ما قدمه الشيخ عبد الباقي سرور من البلاء الحسن
 فى الثورة المصرية ، فسيذكر الناس جميعاً أنه كان من أنصار
 الرابطة الاسلامية ، وأنه جاهد فى ذلك مخلصاً بقامه ولسانه إلى أن
 أسلم الروح . . .

وسيقول السفهاء من الناس : وما هى الرابطة الاسلامية ؟
 وسنجيب بأنها فوق ما تعلمون يا أجهل الناس بأسباب الحياة !
 فسلام عليك يا عبد الباقي وعلى شمائلك الطيبة ، ورحمة الله
 على ودك الصادق المتين !

باريس فى ٢٩ يوليو سنة ١٩٢٩

كوست و بيللونت

الشعب الفرنسي كله في جميع أقطاره مشغول بالحديث عن الطيارين العظمين كوست و بيللونت ، بمناسبة اجتيازهما الإطلاق : ففي جميع الجرائد والمجلات وفي المدارس وأندية الشباب والكهول وحفلات السيدات يتردد اسم هذين الطيارين مقرونين بالاحترام والإعجاب . والفرنسيين حماسة عجيبة لهذا النصر المبين ، ويكاد فوز هذين الطيارين يطغى على جميع الانتصارات التي شهدتها الفرنسيون . فان بطولة هذا العصر ترجع في صميمها إلى الانتصارات العالمية . . وقد مضى الزمن الذي كان يعد فيه أسر الأعداء والنكاية بالخصوم مأثرة قومية ، وأصبحنا في زمن لا فضل فيه لغير العقل والعلم وقوة الإرادة في تذليل القوى الطبيعية ، وقهر آفاق السماء

لقد استمعت لطائفة من الأحاديث حول هذين الطيارين ورأيت كيف اتفقت كلمة القوم على أن شعار هذين الطيارين :
« النصر أو الموت »

ولا أكتف القارئ اني عدلت هذه العبارة بعض التعديل فهي فيما سمعت : « الثروة أو الموت » وهم يقولون ذلك وفاقا

للجائزة العظيمة التي كانت أعدت لمن يجتاز الإِطْلانطيق . وانما عدلت هذه العبارة لأنني أحسب ان القوة الروحية اعظم دائماً من القوة المادية : فهذه الثروة التي كان ينتظرها ذاك الطيار ان لم تكن في معناها ومدلولها شيئاً آخر غير النصر أو المجد

وهذا التعديل أقرب إلى طبيعة الشعب الفرنسي الذي يروض أبناءه على البطولة ويبت فيهم روح المثابرة والكفاح والصبر والثبات . وكل من زار البانتيون يذكر كيف وثب روحه ، وثار قلبه ، وهاجت نفسه حين وقف أمام اللوحة التاريخية التي تقول :
« الحياة الحرة أو الموت »

فقد امتاز الشعب الفرنسي بأنه يغني ما يغني ثم تكون صيحة واحدة كافية لا يقاظه ، ووثبته ، وفزعه إلى السيف والمدفع . وقد شقى الناس في فهم طبيعة هذا الشعب : فهو في أيام السلم شعب لين رخو ماجن خلع ، لا برجى خيره ولا يتقى شره . فإذا انفخ في الصور قامت قيامته وهب يناضل عن شرفه في حماسة دونها حماسة الأسود في الدفاع عن حرم العرين

على انه من الغفلة أن يظن أن المجد ينال بلا ثمن . هيهات ! فالفرنسيون ليسوا جميعاً ظرفاء مومنا رتر ومومبارناس . فهناك ألوف مؤلفة لا تعرف غير سهر الليل وكدح النهار في تحقيق

مايعنيهم من المشا كل العلمية والأدبية والفنية ، وهناك ناس لا يرون
الشعر ولا الموسيقى إلا في تلمس أسباب السماء . والمعضلة الحقيقية
التي تواجه الرجل الشرقى حين يذهب إلى أوربا هي الشقاء في فهم
عبقرية هذه الشعوب الغالبة المنتصرة التي يقال لبنيتها في دروس
الجغرافيا : « إفريقيا كلها محكومة بدول الغرب ، وليس فيها أمة
مستقلة غير الحبشة » والشرقى يسمع ذلك ويعجب وهو لو تأمل
لعرف أن السبب في تقدم الغرب هو « حب المخاطرة » كما أن
السبب في تأخر الشرق هو انعدام روح المخاطرة . فقليل من
الشرقيين من يقول : « المجد أو الموت » ولو أنهم قالوها مرة واحدة
لحسب لهم ألف حساب . فحب الحياة هو باب الموت وحب الموت
هو باب الحياة ، ولكن أكثر الناس لا يفقهون !

والثروة التي استنكرنا أن تكون سر المخاطرة في اجتياز
الإطلاق هي شيء لا يستهان به ، ولكننا تعودنا التعامى عن
الواقع ، فأهل أوربا وأمريكا يرون الفقر أشنع من الموت ، ويتلمسون
أسباب الغنى من كل جانب ، ويكادون ينطقون الأرض والسماء
ليعرفوا أسرار الكنوز التي وردت في أساطير الأولين
ولقد أذكر انى أعطيت مرة لطلبة الثانوى في دروس الانشاء
هذه الحكمة العربية :

« القبر ولا الفقر »

فلم يفهموا ما معنى ذلك، وقال قائلهم : ان الفقر ليس بعيب،
ولو رجعوا الى الواقع لرأوا الفقر مصدر العيوب، فهو الذى يذل
نبلاء الأرواح، وأغزاء النفوس، وهو الذى يقعد بالرجل الشهم
عما يسمو اليه من جلائل الأخطار

ولقد يذكرون أن كوست وبلونت غنما من هذه المخاطرة
نحو خمسين مليوناً من الفرنكات. ويذكرون انهما استغلا جميع
الطرق في هذا السبيل : فالشرطة السينمائية، والصور الفتوغرافية
والمحادثات مع الصحفيين، والخرافات التى أضافها إلى سفرهما
الشاق، كل ذلك دفع ثمنه بسخاء أى سخاء ممن طلبوه. وقد
أسرف هذان الطياران في استغلال هذه المخاطرة إسرافاً فاحشاً.

ولكنه في جملته غير بعيد من طبيعة الشعب الفرنسى، فالفرنسيون
مشهورون بالحرص والتفكير في الغد، والفرنسى من بين الناس
جميعاً يقدر دخله وخرجه وجميع أسباب رزقه تقديرًا يتعدى خمسين
عاماً من أيامه المقبلة. وهو لا يخطو خطوة واحدة إلا وقد حسب
ما فيها من المنافع المادية. والتحية غالية عليه ان كان لا ينتظر من
ورائها نفع. وعلى الجملة الرجل الفرنسى حيوان مذهب، واسع
الحيلة كثير التدبير، وهو أحرص من النمل في هذا الباب. ولقد
أذكر أن الإسلام لا يجرى على أسانهم إلا بالخير لأنه حرم
المسكرات، ولكنهم لا يفهمون كيف يمكن الإيمان بالقضاء والقدر

وكيف يصح التوكل ، ولا أدري أنا من الذى علمهم كلمة «مكتوب»
فهم يكررونها كلما بدا لهم أن يسخروا من تقاليد المسلمين !

والجانب المشرف فى اجتياز الإطلانطيق من باريس إلى
نيويورك أنه محاولة فرنسية ، وأن جميع أجهزة الطائرة صنعت فى
مصانع فرنسية ، وأن ذلك المشروع الذى نجح كان لطيارين يعتزان
كل الاعتزاز بالقومية الفرنسية . ومن أجل هذا أعد ذلك
الاستقبال البهيج لذينك الطيارين فى مدينة باريس ، فى صباح
الأمس صدر منشور من حاكم المدينة يوصى فيه جميع الباريسيين
أن يرفعوا أعلامهم على منازلهم ، وأن يزينوا شرفاتهم بالأزهار ،
وأن يستعدوا لاستقبال أبطال الإطلانطيق بما توجبه المروءة
والحماسة نحو رجلين خاطرا بحياتهما فى سبيل العلم والمدينة ، ورفعوا
اسم فرنسا بين شعوب العالم القديم والعالم الجديد

ومنذ الساعة العاشرة صباحا إلى الساعة الرابعة بعد الظهر كان
أهالى باريس فى نشوة لا تعد لها نشوة ، فمنهم من ذهب إلى بورجيه
حيث تقدم الطائرة من الهافر ، ومنهم من ذهب إلى الإيليزيه
حيث يظفر الطياران بترحيب رئيس الجمهورية ، ومنهم من ذهب
إلى ميدان الأوتل دى فيل حيث تجرى الحفلة الرسمية . كل ذلك
والمطرينهم ، والريح تعصف ، والباريسيون يقابلون عبوس الطبيعة
يريق الابتسام

وكان أجمل ما أثر في ذلك اليوم خروج الطيارين من عند رئيس الجمهورية وذهابهما مباشرة إلى قبر الجندي المجهول حيث وضعا ما أهدى إليهما من الأ زهار على ذلك القبر المعبود.

وقد لوحظ أن السيدات كن أكثر عددا من الرجال ، وهذا طبيعي في مدينة يعد نساؤها موحيات الحماسة ، ومذكيات العزائم. وأهديت إلى الطيارين أوسمة الشرف ، وساعات ذهبية وضعت أرقامها من الاثنى عشر حرفا التي تكون منها كلمتا (باريس نيويورك)

وقد سمعت المتفرجين يحاور بعضهم بعضا عن الجائزة الأمريكية التي وضعت لمن يجتاز الاطلانطيق طائرا . قال أحدهم لصاحبه وهو يحاوره : ان الحكومة الفرنسية لا تعطى ذهباً ولكنها تعطى أوسمة ! فتذكرت والأسى يحز في القلب بعض الحكومات الشرقية التي لا تهب المخاطرين من أبنائها ذهباً ولا أوسمة !

على أننا لو قارنا عزائم الشباب الفرنسيين بعزائم الشباب المصريين لرأينا في المصريين شمائل توجب الزهو والاختيال؛ فالفرنسيون تشجعهم أممتهم وحكومتهم ، في حين أن المصري ينهض وحده بلا مشارك ولا معين ، ويقاوم المصاعب في صبر واحتساب : يقاوم حين ينجح دسائس الحاسدين والكائدين ، ويقاوم حين يخفق شماتة الحاقدين وسخرية القاعدين ، وفي ذلك تكبير وتجسيم

للتضحيات النبيلة التي يبذلها الشباب المجتهدون في بيئات وأجواء
مثقلة بأوزار التثييط والتعويق

فالى الأمام يا شباب مصر ، افتحوا ماشاءت لكم عزائمكم من
أقطار الأرض وآفاق السماء ، والله معكم وهو خير الناصرين

باريس فى ٢٦ اكتوبر سنة ١٩٣٠

الفرنسيون

قال المسيو تارديو مخاطب جرحى الحرب

« على وجوهكم تتمثل شمائل فرنسا الخالدة ، فعندكم فى السلم
كما كان عندكم فى الحرب : الشجاعة والصبر والثقة . أما الشجاعة
ففضيلة القلب ، وأما الصبر ففضيلة الخلق ، وأما الثقة ففضيلة
النفس ، وكل هذه الفضائل فرنسية . إن الأجنبى لا يفهم هذا
الشعب ولن يفهمه أبداً ، لاريب فى ذلك . إن هذا الشعب يُظهر
فى سداجة مالمديه من النقائص السطحية فى أوقات الأمان ، وبذلك
يحكم الأجنبى بأنه شعبٌ فارغ . ولكنه يظهر فى أوقاته العصبية ،
وساعته التاريخية ، بفضائل عجيبة تضمن له النصر المين . وبين
الفرنسى المتوسط والفرنسى المتفوق توجد هوة لا يعرف الأجنبى
قرارها ، ومن البيئات المجهولة يخرج أبطال يفزع لرؤيتهم من كان
يقدر أن ليس هناك غير الفراغ »

انتحار شاعر مصري

في سنة ١٩٢٦ تقدم الى أحد طلبة كلية الآداب بالجامعة المصرية وقال : أسمح أن أتعرف اليك ؟ قلت : مع السرور . قال أنا أحمد العاصي ، كنت طالبا بكلية الطب ، ثم هجرتها ، لأن أعصابي أضعف من أن تحمل مناظر التشريح وحدثني آمالى على الانتساب لكلية الآداب ، راجيا أن يكون في الأدب والفلسفة جوًّا أهدأ وأدعى لراحة الأعصاب ... فابتسمت وقلت : لشدة ما خدعت نفسك بهذا التغيير والانتقال من قيد إلى قيد ! لا تنافى كلية الآداب نعالج نفس الطريقة التي يعالجها الأساتذة في كلية الطب ، وهم يسمون عملهم التشريح ونحن نسميه التحليل ، والفرق بيننا وبينهم أنهم يشرحون الأجسام ونحن نشرح الأعراض ، هم يشرحون أجساما فانية ، ونحن نشرح أعراضا غالية كان ينبغي لها الصون التام في ظلال الخلود . وليس شق الجسم الميت الذي يحوله قصر العيني إلى مشرحة كلية الطب بأقصى وأفضع من اهتمام أساتذة كلية الآداب باثبات أن أبا نواس كان سييء الأخلاق ، وأن البحترى كان قذر الثياب ، وأن المعري كان من الملاحدين ، وأن المتنبي كان صعلوكا يتصيد المال وهو يدعى سمو الملوك . إلى آخر

ما توجه به الدراسات الأدبية من هذا الهذر الممقوت . وأنت لو مضيت في دراسة الطب لصرت مع الزمن طبيباً يخدم الإنسانية ولكنك حين تمضي في دراسة الأدب تصبح مع الزمن أديباً والعياذ بالله ! ورجال الادب قوم يعيشون في ظلمات بعضها فوق بعض ، ولا ينجح من بينهم إلا من يحسن القيل والقال ، وجوهم في الأغلب جوّ فتن ودسائس ونذالات يندى لها الجبين ، والبارز فيهم هو الرجل الوقح الذي يعرف كيف يخلق الأ كاذب للنكاية بزملائه الأ برياء

وهنا ازداد الشاب صفرة إلى صفرة التي كانت تغشى وجهه بما يشبه صفرة الموت وقال : أنا لا أنتظر منك أن تحملني على الرجوع مرة ثانية إلى مناظر الدماء في كلية الطب فأجبت : خيراً امضي في دراسة الأدب وأنا سعيد بأن أراك بين طلبة كلية الآداب

* *

كان أحمد العاصي هذا شاباً قصيراً يبدو كأنه بدين وليس بذلك . وكان صوته خافتاً أشد الخفوت يكلمك وكأنه يناجيك وكانت عيناه مثقلة بالتعب والحمود وكان يحضر الدروس بقلب غائب وفكر عازب ، ولا همّ له إلا قرض الشعر فيما يمر بخاطره من مختلف الشؤون . وكنت أمازحه أحيانا حين أراه مكباً على

كراسه يدون فيه غير ما يسمع أثناء الدرس. فكان يتكلف
الرضا بالمزاح، ثم تأتي الأخبار بعد ذلك بأنه بكى بعد انصرافه
حتى رحمه زملاؤه الطلبة وصاحبوه رفقا به طول الطريق. فعرفت
منذ ذاك أنه مريض، وأن من الخير لأن يلام على تفريط أو إهمال
وفي نهاية العام الأول من دراسته بكلية الآداب قدم إلى
رواية ألفها ونشرها اسمها عادة لبنان، ولست أدري ما الذي
أودعه تلك الرواية، لأنني شغلت عن تصفحها، وفي العام الثاني
أعد مجموعة طيبة من شعره وقدمها إلى الشاعر شوقي بك، فلما قرأها
شوقي أعجب بها وشجعه على نشرها وأهداه أبياتا قدم بها ديوانه
إلى القراء. إن أبيات شوقي التي قدم بها (ديوان العاصي)
إلى الجمهور تنطق بما كان ينتظر من مصير ذلك الشاعر المسكين.
فقد ارتاع شوقي لأدمان ذلك الشاب على نظم الشعر في التبرم
بالحياة وما فيها من دواعي الضجر والهم والقنوط، وقد ضاعت
تلك الأبيات من ذاكرتي، وليس يحضرني منها إلا هذا البيت:
ولتعلمن إذا السنون تطاولت إن التشكي كان قبل أوانه
وقد مضى الفتي في دراسته وهو في نظر زملائه وأساتذته
شاعر حتى ظفر بأجازة الليسانس في الآداب، ثم عين في مكتبة
الجامعة المصرية، ولقيته في الأيام الأخيرة فحسبته شفي من مرضه
إلى أن وصلني العدد الأخير من جريدة الصباح فعرفت أنه انتحر

وأنه لم ينتظر أوان التشكى الذى أشار اليه شوقى ، فرحة الله على ذلك الجسد الذى لم يستطع مطاولة الأيام!

لا أحسب أن الجرائد المصرية تلفتت إلى وفاة هذا الشاب وجريدة الصباح نشرت خبر وفاته منقولا فيما أظن عن محاضر البوليس ، وقد نشرت الخبر لأن فيه جوانب طريفة تشوق بعض القراء ، وخلاصة الخبر أن أحمد العاصى الموظف بمكتبة الجامعة المصرية كان يقيم فى المنزل رقم ١٢ بشارع سعفان بالعباسية مع خادمة له ، وكان لا يسليه فى وحدته غير كتابه أو قلمه ، وإن أحاديثه مع خادمته القروية كانت تدل على أنه ينظر إلى الحياة نظرة غير طبيعية ، إذ كان يجرى بينهم مثل هذا الحديث :

— أنت أسعد منى يافاطمة فى هذه الحياة !

— وليه بقى ياسيدى ؟؟

— لأن لك أهلا يحوطونك بالرعاية أما أنا فلا أهل لى ! !

— بعيد الشر ياسيدى ، وأهلك جرى فيهم إيه ؟

— أنا خلقت من غير أهل ، وفى رأي أن الموت هو أشهى

ثمره يقتطفها كل راغب فى السعادة !

وقد انتحر أحمد العاصى إذ سكب على جسمه كمية كبيرة من مادة كاوية نفذت إلى ثنايا قلبه . وقد وجد رجال البوليس بجانب مقعده رسالة مغلقة عنوانها « إلى من يهمهم أمرى » فلما

فتحت وجدت مكتوبة باللغة الانجليزية وفيها هذه العبارات :
 « جبان من يكره الموت ! جبان من لا يرحب بهذا الملاك
 الطاهر ! إننى أستعذب الموت الذى هو كالراحمة الذكية عندى »
 ثم وضع اسمه كاملا وذيله بكلمة (ليسانسيه فى الآداب)

لا أدري كيف بدا لى أن أتأمل الصفحة التى نشر فيها هذا
 الخبر من جريدة الصباح فقد رأيت بجانبه فى الصفحة نفسها
 إعلانا عنوانه (افتتاح موسم الموسيقى والطرب) وإعلانا آخر
 عنوانه (هل تريد جسما جميلا ؟) وكذلك تشابهت أمامى مناظر
 الحياة : سعادة يجاورها شقاء وبؤس يجاوره نعيم . والدنيا حلم قصير
 نزعجه يقظة الموت

كنت أمازح أحمد العاصى فأقول : اسمع يا عاصى ! فيجيب :
 أنا العاصى للشيطان . ولعله لذلك أطاع الموت لأنه سماه الملاك
 الطاهر ، ولو ظنه شيطانا لعصاه

لست ممن يظنون أن المنتحرين يبوءون بغضب ربهم ، لأنهم
 فى الواقع ضعفاء خائفون الصبر ، وأفنائهم اليأس ، ولم تبق فيهم بقية
 من الجلد يفهمون بها ما يجب أن يتحلى به الرجل الشجاع . وفى
 انتحار هذا الذى شك أنه لأهل له فرصة للتأمل فى قيمة الحقائق

المعنوية ، فذلك شاب موظف مستقر ما كان ينقصه الرزق، ولكنه كان شديد الفقر إلى العطف والحنان ، ولو كان بجانبه أب يواسيه أو أم تحنو عليه ، أو زوجة تصاحبه ، لطاب له العيش وابتسمت في وجهه الحياة . ونحن في الواقع نعيش أسرى عافيتنا وأعصابنا وليس بين الشقى والسعيد إلا متانة الجسم وقوة الأعصاب ، والروح وحده لا يكفي لسعادة الانسان ، وإنما المرء جسم وروح . ولعل السر في تقدم الانجليز أنهم يؤثرون الألعاب الرياضية على العلوم النظرية ، أما نحن فنفكر أولاً في حشو الدماغ بأنواع المعارف والعلوم ونرى في تمرين الجسم وتجديده وتنشيطه علامة من علائم النزق والطيش ، والميل إلى البطالة والفراغ . وقد يكون اهتمامنا بالجسم نوعاً من المحاكاة والتقليد ، لا أثراً للاقتناع بماله من المزايا في تكوين الشعوب

لا يزال يتمثل أمامي أحمد العاصي يوم رأيته لأول مرة في أوائل سنة ١٩٢٦ ويوم رأيته لآخر مرة في أوائل الربيع الماضي ، فإليه في عالم الأرواح أهدى هذه الكلمة ، وما كان ينتظرها مني ، ولكن الحر من راعي وداد لحظة ، فكيف وقد كان رحمه الله من تلامذتي الأبرار

الحديث ذو شجون

الصديق

في الأسبوع الأخير من شهر مايو الماضي أرسلت إلى صاحب الشورى عنواني في باريس ، ورجوته أن يحول الجريدة إلى هناك ، وفي يوم السفر تلقيت في الصباح عدداً من الشورى فظننت خطابي لم يصل إلى إدارة الجريدة ، أو أنه وصل بعد وضع هذا العدد في البريد ، فلما وصلت إلى باريس في أوائل يونيه وجدت العدد نفسه قد سبقني إلى هناك ، فعرفت سر المسألة : وهو سر واضح لا يزيد عن أن الأستاذ الطاهر أراد أن يودعني يوم سفرى من مصر الجديدة وأن يستقبلني يوم قدومي إلى باريس ، فهل يتفضل هذا « الصديق » بقبول هذه الكلمة الصادقة كلمة الاعتراف بالجميل من رجل يعرف كيف تكون الصداقة وكيف يكون الأصدقاء ؟

ولعل القارئ يتلفت فيسأل كيف وضعت كلمة « الصديق » بين قوسين ؟ والجواب حاضر عتيق ، ولكنه كرهه الطعم مرّ المذاق ، ذلك بأن صاحب الشورى كان واسطة العقد في طائفة من الأصدقاء شاءت سجايا الناس أن يتبددوا ، وقضت أهواؤهم

أن تنفصم عرى المودة وأواصر المعروف ، وفيهم والله من لا
يزيده إلا عراض إلا قرباً من النفس ، واعزازاً على القلب ، ومن
لو تغيرت الدنيا ومن عليها ، وتبدل كل شيء فيها ، لبقيت وحدي
أحفظ بين سرائر القلب ما كان له من خالص الود وصادق الجميل
تبدد أولئك الأصدقاء وبقي هذا الأخ المجاهد الذي نرجو
أن يبقى وداده ذكرى طيبة لذلك العهد الذي لو بقي من نحب على
ما عهدناهم فيه - كان للدنيا عندنا لون غير هذا اللون المتقلب
البغيض

أفي الحق أني قد قضيت ديونكم وأن ديوني باقيات كما هي !
الذين لا يعلمون

ذكرت الشورى أن الحكومة المصرية ستقيم ضريح المغفور
له سعد باشا على الطراز العربي . ثم قالت : لا على الطراز الفرعوني
الذي اقترحه بعض الذين لا يعدون من مصر ولا من أوروبا .
وكان يكفي أن تقول : لا على الطراز الفرعوني الذي اقترحه
بعض الذين لا يعلمون

الواقع أن عدداً ضئيلاً من دعاة الوطنية المصرية «لا يعلمون»
ما هي الوطنية . فهم يحسبون أن الفراغنة أقرب إلى مصر من
العرب ، مع أن قليلاً من صدق الحس وسلامة الذوق يكفي

للاقتناع بأن مصر الحديثة مدينة من البداية إلى النهاية للحضارة
الاسلامية. وأنه إن صح لأى قطر أن يتبرأ من العرب فلن
يصح ذلك لمصر التى لم يكشفها أن تستفيد من حضارة العرب ،
بل نهضت غير مرة بأعباء الحضارة العربية ونشرتها فى كثير من
الأقطار ، وهى اليوم مطمح أنظار العرب والمسلمين الذين يودون
أن يفتح الله لهم أبواب المجد من جديد . وما ذلك على الله بعزيز
وبهذه المناسبة أذكر أنى كثيراً ما ألقى فى باريس رجالا
من الحجاز والشام والعراق وكثيرا ما تتداول الرأى فى انهاض
الأمم العربية ، فما يروغنى إلا شكواهم من أن مصر لا تقول بأنها
أمة عربية

والواقع أيضا أن مصر لا « تقول » بأنها أمة عربية ،
ولكنها « عربية بالفعل » فليت إخواننا فى الشرق العربى
لا يطالبوننا بأن « نقول » اننا عرب فان القول لا يغنى فتيلا .
وحسب مصر أن تنهض حقا بإحياء الآداب العربية وأن تكون
مكاتبها ومدارسها وجرائدها ومعاهدها وأنديتها مصانع لا يقاظ
الروح العربى وميادين لبث ذلك المجد الدفين

المعرض الدولي

للفن والطيران والبريد الجوي

اول ديسمبر سنة ١٩٣٠

أقيم في هذا الأسبوع في باريس المعرض الدولي الأول للفن والطيران والبريد الجوي تحت رعاية المسيو جاستون دومرج رئيس الجمهورية ورعاية وزير المعارف والفنون ووزير التجارة ووزير الطيران

وقد زرنه يوم الافتتاح، وهو يقع في متحف الفنون باللوفر وهو في جملة وتفصيله فتح جديد في عالم الفنون. والقارىء المصرى لا يتبين كيف يكون ذلك المعرض إلا إن وُصف له. لأن عهدنا بالطيران حديث، والطيران علم لا يقرأ في الكتب، ولا يكفي في معرفته أن يقال إن هناك خطوطاً جوية تسير فيها الطائرات الانجليزية، فإن الشعب لا يغرم بالطيران ولا يعرف كنهه إلا إذا قام أبناؤه فامتلكوا الأجواء ونافسوا المتحكمين في الهواء. وقد كانت مصر إلى العام الماضى محرومة من السيطرة على خطوطها الجوية ولم يكن المصريون يعرفون عن الطيران إلا ما يقرءونه في الكتب والصحف والمجلات، وهى ثقافة تكاد تكون سلبية فى نوع من العلوم لا يبرع فيه إلا المخاطرون الأقوياء، وقد أخذت مصر

— والله الحمد — تهتم بالطيران اهتماماً عملياً لا نظرياً منذ أتاح الله للشباب محمد صدقي أن يدخل مصر طائراً . ولو قد أتيح هذا الحظ لمن حذقوا الطيران من قبله مثل أنيس باشا لكان للشبان المصريين حظ أوفر من الاقبال على ذلك العلم النفيس . وإنا لراجون أن تكون في الخطوات الجديدة تبشير بطولة وإقدام لعزائم الشباب المصريين الذين حبست نشاطهم ونخوتهم مطامع المحتلين الذين قدروا خطر الطيران ، وعرفوا أن غرام المصريين به قد يكون عهداً جديداً من عهود الحرص على الكرامة والاستقلال

والطيران في ذاته مِران نبيل للقوى الإنسانية ، فليس من الضروري أن يُقرن دائماً بالحرب ، وأن يُفترض أن الناس لا يطرون إلا ليستعدوا للفتك بعضهم ببعض ، فالذين يحرمون مصر من الطيران لا يمنعونها فقط من الاستعداد للحرب ، ولكنهم يحولون بينها وبين أقوى أسباب الكرامة في العهد الحديث . ولتصور القارئ حال أمة مُنع أبناؤها من ركوب الخيل في القرن الثامن عشر مثلاً ، فإن الحرمان من ركوب الخيل في الأيام الماضية كان علامة على الذلة والخنوع ، وكذلك الحرمان من الطيران في هذا الجيل يقضي على النخوة والكرامة ويعرض الشبان المصريين للرضا بالهوان . فمن الواجب على من إليهم الامر في مصر أن يتنبهوا إلى هذه الناحية من الأخلاق ، وأن ينظروا إلى الطيران

نظرة تساوى على الأقل نظرتهن إلى التمثيل ، فأنى كمصرى لا أطرب كثيرا لانشاء معهد يتخرج فيه الممثلون والممثلات ، ولا أستطيع أن أتحدث بما عملته وزارة المعارف المصرية فى هذا الباب ولكن مما يشرف حقا أن تنشأ مدرسة للملاحة ومدرسة للطيران وأن تستغل حماسة الشبان استغلالا شريفا يفتح لمصر أبوابا من الفوز والمجد فى الحياة العلمية والاقتصادية. ولكن إلى من نتحدث وقد فتحت لنا ابواب من الفتن والمعاطب ، وأصبح أولو الأمر فى شغل بأنفسهم ومجدهم الشخصى الذى لو وضع فى الميزان لكان أخف من الهباء !

المصرى لا يعرف الطيران لأنه محروم منه ، ولا يعرف الملاحة مع أن البحر يواجهه من الشرق ومن الشمال ، وهو على الجملة محروم من المخاطر التى تخلق الرجال . وليس معلى القارىء بهذا الاستطراد اليسير فأنى أريد أن أقص عليه الحادثة الآتية :
كانت كلية الآداب بالجامعة المصرية قررت إيفاد اثنين من خريجيها إلى الحبشة لدراسة اللغة الحبشية . ثم عدلت عن ذلك . أتدرى ما السبب ؟ السبب بسيط ولكنه محزن : ذلك أن أحد الأساتذة بقسم الآثار أخذ يحرّض الطالبين على الاحجام ويقول « اوع يا واد انت وهو . والله إن قبلتم أملص أودانكم . حبشة ايه وسخام ايه ! روحوا لندرا ولا باريس . ! »

هذا استطراد ولكن لا أملك دفعه ، فقد كنت ليلة أمس
 في الجمعية الجغرافية أشهد محاضرة المسيو مارسل جريول عن
 رحلاته في الأقطار الحبشية . وكم كان أسفى شديدا حين سمعت
 المحاضر يتكلم عن الجهود التي بذلت لدرس اللغة الأتيوية ، مع أننا
 كنا أولى بالتوجه إلى تلك الناحية لمعرفة لغة الأحباش ودرس
 عقليتهم . فستكون بيننا وبينهم مشاكل جديدة خطيرة في المستقبل
 القريب . ولكن من الذي يهتم في مصر بالمستقبل القريب أو
 البعيد ، إنما يهتم المسيطرون بالتحكم في الشعب وإثارة حقه
 وغضبه شفاء لبعض الصدور . ولولا انعدام روح المخاطرة ما أحجم
 ذاك الفتيان عن الذهاب إلى الحبشة حبا في لندرا وباريس ،
 وأكثر الشبان يفكرون في أنفسهم ، ولا يعرفون ما يعود على
 أمته من الخير إذا آثروا الخشونة وانطلقو يدرسون الشعوب
 الافريقية التي أصبحت قبلة الباحثين والمخاطرين

كان صديق الذي ارسل إلى الدعوة لحضور افتتاح المعرض قال
 في خطاب له « احضر في الساعة الثالثة تماما إن كان يهملك أن ترى
 وزراء » فقلت في نفسي : « عارفهم ! عارفهم ! » ومع ذلك ثار
 تطاعى إلى رؤية الوزراء . فذهبت قبيل الساعة الثالثة وانتظرت
 قريبا من باب المعرض على أراهم ، ولكنهم لم يحضروا في الوقت
 المحدد لحضورهم ، فمضيت أشاهد العروض وأتلفت من حين

إلى حين أرقب قدوم أولئك الأعلام ، ولكنني لم أر أحدا ، وكنت أفهم أن حضورهم سيلفت الأنظار ، وسيكون في حاشيتهم من يعلن المتفرجين بقدومهم ؛ ولكنه لم يقع شيء من ذلك ، ثم دهشت حين علمت بعد نصف ساعة أنهم حضروا وشاهدوا مأهمهم من مختلف المعروضات وانصرفوا ولم يشعر بهم أحد ، فعرفت أنهم وزراء مختارون من الشعب لا يحيط بهم المخبرون ، ولا يحرسهم البوليس ، حيث لا بلطة ولا مسدس ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون !

المعرض كله خاص بما أنتج الفنانون متصلا بالطيران ، وليعلم القارئ أن هناك فنانيين ملحقين بالملاحة وفنانين ملحقين بالطيران . والغاية من اتصال الفن بالملاحة والطيران أن تُغرس في نفوس الشعب عن طريق الفن ثقافة البحر والهواء . والقوم هنا يعملون على أن تكون صلة أبنائهم بالسياحات البحرية والجوية صلة عشق وهيام لاصلة ألفة وقبول ، وكذلك نجد بين الشبان الفرنسيين من يُغرم بالملاحة والطيران غراما مبرحا يقض مضجعه ، ويكدر صفوه ويكاد يحول بينه وبين طعامه وشرابه

ومن أجل هذا أخبرني المسيو جاتجان أن وزير الطيران امتنع حين رأى في المعرض لوحات فنية تصور بعض الحوادث المزعجة في الطيران ، لأن هذا المعرض لم يقم لإعطاء الفرنسيين كل

المعارف الضرورية المتصلة بالطيران من نجاح وإخفاق ، ولكنه
أقيم للدعاية للطيران وترغيب الفتیان في ذلك العلم النبل ، فمن
الخطأ أن نفهم الشبان أن في عالم الهواء كبوات وسقطات ؛ وإنما
يجب أن نربي فيهم حب المخاطرة مصحوباً باليقين المطلق في الفوز
والتحكم في آفاق السماء

عدد العارضين ١٨٣ أما المعروضات فشئ يعجز عنه
الاستقصاء . فبعضهم عرض تماثيل صغيرة لمن ذهبوا ضحية الطيران
ومنها من عرضوا رسوماً مختلفة للطيارات . وبعضهم عرض صوراً
فتوغرافية عديدة لمناظر أخذت من الطيارات . وهذا نوع جديد
من التحف النفيسة التي تمثل المدن والمعالم التاريخية كما يراها من
يطل من جانب السماء . وفريق عرض أدب الطيران . وكلمة أدب
هنا يراد بها مجموعات المؤلفات التي أراد أصحابها أن ينشروا
ثقافة الطيران بين الجمهور ، ومن بين هذه المؤلفات روايات شائعة
جذابة وضعت للأطفال في حوادث متصلة بالطيران : بحيث
يشب الطفل وفي ذهنه صور عديدة للمخاطر الجوية التي يرجى
أن يكون له من مجدها نصيب .

ومن الجوانب الطريفة في هذا المعرض ما يراه المشاهد من الاواني
والادوات المنزلية حيث يسرح الطرف في طائفة كبيرة من
الصحاف والأطباق ، والملاعق والشوكات والفناجين والأكواب

والأُسرة والمخادع والوسائد ، وكلها محلاة بصور الطيارات
ومشاهير الطيارين ، كل ذلك لتدخل ثقافة الطيران في المنازل
والقهوات والدواوين ؛ وليصبح الناس ويمسسون وعيونهم شاخصة
وقلوبهم عالقة بذلك الفن المذكر الفحل فن الطيران
وهناك خاطر أعلنه المسيو جالير العضو في أكاديمية جوناكور
وهو إدخال رسوم الطيران في الأقمشة الصوفية والقطنية والحريية
بدلاً من الرسوم الطبيعية التي تمثل الأزهار والأشجار والطيّار
وشواطئ الأنهار والبحار ، بحيث تصبح ملابس السيدات وفساتينهن
ومعاطفنهن وهي تموج بالخطوط الجوية ومناظر السباق في الهواء .
وبذلك تبيد بدعة زهر الرمان مرسوماً على صدور الملاح ،
وتذهب علامة الاستفهام مرسومة تارة على عصابة الرأس وتارة
معقوفة في جدائل الشعر البراق ، وتصبح الزينة نهياً مقسمًا بين
صور الطيارات وصور الطيارين . والغرض من هذا واضح وهو
أن تصبح نفوس العشاق وقلوبهم وعيونهم محبوسة بين ذكريات
عالم الهواء . وللقارئ أن يدرك أثر ذلك كله وهو : رياضة العقل
والذوق والحس على عبادة الطيران

أما الجزء الخاص بالبريد الجوي فهو عبارة عن مجموعات كثيرة
مختلفة من الرسائل الجوية تمثل جميع الاقطار التي مرت بها طيارات

البريد . وقد حرصت على معرفة نصيب مصر من ذلك الجزء .
 وكنت استصحبت صديق محمود أفندي الخضيرى فقضينا نحو
 أربعين دقيقة نبحت عن رسالة مصرية بين ألوف الرسائل المعلقة
 هناك ، وأخيراً عثرنا على ثلاث رسائل مرت بمصر فى خط الهند
 ورسالة من القاهرة إلى الخرطوم فى الطيران الخاص مرسله منها رسالة
 من (أبو صير) ، وثلاث رسائل مرسله من الاسكندرية إلى باريس
 وكلها مرسله إلى يونان لا مصريين فوددت لو عرفت كيف نظم
 المعرض لأقدم إليه رسالة جوية وصلتني من صاحب البلاغ . وقد
 حداني حب اللغة العربية على تعقب الرسائل الجوية التى كتبت
 بحروفنا الجميلة فوجدت نماذج يحسن اثباتها هنا لما لها من الدلالة
 على نحو خاص من كتابة العناوين ، وأكثرها رسائل سورية من
 (رفاق) كتب العنوان فيها هكذا :

« لحضرة الخواجه الياس حجار دام بقاءه »

ورسالة من (دير الزور) كتب عنوانها هكذا :

« يحظى بمطالعة الشاب الاديب توفيق الشوتانى الأكرم »

ورسالة من اللاذقية كتب عنوانها هكذا

« سعادة الشيخ الجليل مولاي الأمير المعظم بدر الضحى

السلام عليه »

وهناك رسائل عربية كتبت بخطوط مغربية لم أستطع تمييز

ما فيها لبعدها عن خطوط الشرق ، وقد حدثنا ابن خلدون أن
خطوط أهل المغرب انحرفت عن الصواب لاتصالهم بالبربر .
وهناك رسالة واحدة تركية كتب عنوانها بخطوط عربية

إلى هنا عرف القارىء اهتمام أهل الغرب بالطيران فلا أضف
إلى ذلك أنهم لا يزالون يعترفون بأن الطيران لا يزال فى قوة
الطفل ولكنهم يبتهجون بالفروق العظيمة بين البداية التى قام بها
(آدر) فى أواخر القرن التاسع عشر حين كانت طيارته لا ترتفع
عن الأرض أكثر من بضع بوصات وبين ما وصل إليه كوست
وبلاونت من اجتياز الاطلانطيق ، وهم يتمنون أن ينقضى العهد
الذى يرغب فيه المسافرون بالطيارة على سدا ذانهم بالقطن فرارا من
وعورة أصوات المحركات ، ولكنهم يعودون فيقولون فى ابتسام :
إن أصوات المحركات أفضل ما تُقتل به وحشة السكون فى
فضاء الأجواء !

وقد سألتى الخضيرى أفندى حين خرجنا من المعرض : ماذا
يقدم الفنانون المصريون لو طلب إليهم أن يقيموا معرضا لفن
الطيران ؟ وللقارىء أن يجيب إن كان يحضره جواب . . ولكننا
سنصل بعون الله وعزيمة الأمة إلى مساماة من سبقونا إلى التحكم
فى ممالك الهواء

عودة الجنس اللطيف

الحمد لله والحب ! فقد عاد الجنس اللطيف . ومن أين عاد ؟
عاد منهزماً من حرب البدع الجديدة بدع الأعوام القرية التي
حاول فيها الفتيات أن يكون لهن أشكال الفتيان بلا فرق ولا تمييز
فقد مرت بباريس فترة كانت الفتاة هي الفتى في كل شيء : في
ترجيل شعره ، وتصفيف طرته ، وترتيب هندامه . وكان الفتى
في حيرة من أمره لا يدري ماذا يصنع ليتميز عن الفتاة . وليس في
مقدوره بالطبع أن يلجأ إلى الفارق الطبيعي يعلنه ليعرف الناس
أنه فتى لا فتاة !

عاد الجنس اللطيف إلى إرسال الشعر ، فانفتح باب الأمل
أمام الشعراء ليتغزلوا من جديد في الجداول الذهبية - فليس هنا
شعر فاحم مع الأسف الشديد - وعاد الجنس اللطيف أيضاً إلى
إعفاء النهود من الكبس والتجفيف ، فعادت الطبيعة ترينا رمان
الصدور بجانب تفاح الخدود . وغضت الفتاة النظر عن التمادى في
تلك الضلالة العمياء ، ضلالة الرجولة في جسم الأنوثة ، وصارت تمشي
وهي ضعيفة الخطو مكسالة ، فتنتقل القلب من مكان إلى مكان ،
وعرفت قيمة الحياء والخفر وتبينت أن سلاحها الحق هو نعومة

الضعف لا خشونة القوة ، فمضت تتشّى وتتكرّر في رقة دونها
أخواط البان

كانت مشكلة الأمس هي مشكلة الشعراء الذين حرمتهم
المرأة المترجلة من عرائس الشعر والخيال ، وقد فضت هذه المشكلة
والحمد لله ، ووجد الشعراء أما كن القول . أما مشكلة اليوم فهي
مشكلة الحلاقين ، فقد زاد هؤلاء زيادة غير معقولة بسبب إقبال النساء
والبنات على قص الشعر ، وقد مضت بدعة الشعر المقصوص ،
فمن أين يعيش جيش الحلاقين العرمرم ؟ هذه هي المشكلة ، أو
لك هي النقطة ، كما يقول لا فونتين . ولكن لا خوف ، فالله عز
شأنه يقول « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها - وكأين
من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم ، وهو السميع العليم » !

ليلة على شاطئ المانش

أخي الأستاذ أنيس ميخائيل

أكتب إليك هذه الرسالة من «روان» مدينة الماضي
والاحلام والفن الجميل ، ولعلك تسأل كيف هويت إلى هذه
البلاد . واني لمخبرك بأني ضجرت من باريس ، وفكرت في اختبار
الأقاليم الفرنسية ، لأرى كيف يعيش أهالي الريف . وأرشدني
أحد أصدقائي الفرنسيين إلى نورمنديا ، أغنى الأقطار الفرنسية
وأقربها إلى سحر الطبيعة ، وأحفلها بالغابات والحدائق والبساتين .
وهي سياحة فنية خالصة لا يشوبها إلا غرض واحد ، ولكنه غرض
عالمى ، هو زيارة المسيو ديموميين في هوتو ، وقد رأيت أن أمضى
أولا إلى الهافرثم أعود منها إلى روان . ولا تسأل كيف كان
جمال الطريق : فقد تأنقت الطبيعة تأنقا لا مثيل له في هندمة
نورمنديا وتتويج حُزونها وسهولها ووديانها بكل رائع شائق من
الأزهار والأشجار وخمائل الكروم : ففي كل واد ، وفي كل نجد ،
وفي كل سهل ، ترى المنازل الريفية الصغيرة منشورة في سحر
وروعة كأنها أمان مجسمة تركت مهادها من القلوب واحتلت
بساط الخضراء ، وحيثما ألقيت بصرك من نافذة القطار رأيت

الأهلالي ناعمين وادعين ومن حولهم مواشيهم وأطياريهم وما جمعوا
 من طيب المحصول . وقد عرفت بهذه السياحة النورمندية كيف
 اتفق لبرناردين دى سان بيير أن يكون شاعر الطبيعة ، وأن
 تراحهم مؤلفاته مؤلفات جان جاك روسو ، فان لمناظر الوطن
 الأول وذكرياته أثراً قوياً في تكوين العقل والحس والخيال
 لقد طال بي الطريق ووصلت المهافر عند غروب الشمس ،
 وكان أول ما فكرت فيه أن أبدأ بتناول العشاء ، وكنت سمعت
 أن أهالي نورمانديا يمتازون بالبراعة في طهي الطعام ، ومع أني قليل
 الاهتمام بهذه الشؤون المادية قد تعلمت من الفرنسيين كيف أتألق
 في تخير طعامي وشرابي ، فالقوم هنا لا يرون في الطعام والشراب
 ما نراه في مصر من أنه للانسان كالبنزين للسيارة يُتخذ لوجهة نفعية
 صرفة لا أثر فيها للذوق . كلا ، وإنما تمضي المطاعم والمشارب على
 أنها شئون ذوقية روحية يتدخل في تكوينها الفن والذوق
 والاحساس . وكلمة cuisine لها عندهم مدلول قلما نفهمه في الشرق
 عندما تذكر كلمة (طبيخ) التي تشير السخرية كلما جرت على اللسان .
 واسمح لي بهذه المناسبة أن أصرحك بأني كتبت لجريدة المساء
 مقالا عن أحمد بن يوسف المصري فلماذا ذكرت مؤلفاته لم أشأ أن
 أشير إلى كتابه في (الطبيخ) فراراً من سخرية القراء . ولا مانع
 أيضاً من أن أصرحك بأن الأقدمين كانوا يقولون: « قل لي من

تصاحب أقل لك من أنت « وعبارة أهل هذا الزمان في أوربا :
« قل لى ماذا تأكل أقل لك من أنت » لأن أثر الطعام في تكوين
العقل والحس والذوق أعمق من أثر الرفيق والعشير . وإني لأرجو
أن تصل إليك هذه الرسالة في لحظة تكون فيها « مفتوح الشهية » حتى
تتذوق ما أقول !

كانت أكلة لذيذة في مطعم المحطة بالهافر ، مضيت من
بعدها أبحث عن مأوى في أحد الفنادق ، ولكن كيف والفنادق
قليلة وليس فيها مكان واحد غير مشغول . لقد قضيت ساعتين
كاملتين أبحث عن مكان أضع فيه أمتعتي ، وأبيت فيه ، ولكني
لم أجد شيئاً ، فرأيت آخر الأمر أن أجا إلى البوليس أسأله كيف
ينام الغريب في ليلة مطيرة باردة على شاطئ المحيط . فأسرع
البوليس إلى التليفون وأخذ يستعلم من جميع الفنادق عن غرفة أى
غرفة يقضى فيها أحد القادمين سواد الليل ، فأجيب بأن الفنادق
كلها مشغولة وقد يرجى أن توجد أما كن خالية غداً أو بعد غد
إن كان هذا القادم من الصابرين . وهذا الصبر يا صديقي شيء
يتوصى به الناس ولكنهم لا يعرفونه ، وكيف يصبر من قضى نهاره
في السفر على قضاء الليل هائماً ينتقل من مشرب إلى مشرب ومن ناد
إلى ناد ! وقفت قليلاً أتدبر أمري في مثل هذه الأزمة المفاجئة
التي لا تمر ببال من يقدم إلى ثغر من الشغور الاوربية ثم رأيت أن

أضع حقيبة السفر في مكتب الأمانات بالمحطة ، وأن أعود إلى
المدينة أقضى فيها الليل ساهراً على أى حال

ولكن هذا الاخفاق لم يمنعني من المحاولة ، والمرء يعجز
لا المحالة ، فأخذت أسأل الناس في طريقى عن منزل آوى اليه
فساقتني المصادفة إلى سيدة عوان فقلت : هل من مأوى يامدام ؟
فأجابت : عندى إن شئت ! فقلت : بكم ؟ فأجابت : (المبيت
وكل شيء بمائة فرنك) فأطرقت استحياءً وقلت في نفسى :
المبيت مفهوم . ولكن (كل شيء) هذا ما معناه ؟

إن كل شيء اسم لمجلة مصرية ، ولكن يظهر أنه هنا اسم
لشيء آخر معلوم ! ثم رفعت بصرى اليها وقلت : المبيت فقط
يامدام ، والله الغنى عن كل شيء ! فقالت : من أين قدمت ؟ قلت
من باريس . فقالت : ولكن مع هذا يظهر أنك أجنبي عبيط !
فقلت : تشميننى فى بلدكم ! الله يسامحك يامدام ! وخليتها
وانصرفت

وبعد لحظات رأيت سيدة تتوجه الى جماعة فى قهوة وتقول :
إن سألكم سائل عن مكان للنوم فأرسلوه الينا فان لدينا غرفة خالية .
فتقدمت اليها وقلت : أنا ذلك السائل المنشود ! فأجابت على
الرحب والسعة . ومضيت معها بقلب فرح طروب . ولم أكد

أدخل تلك الغرفة حتي تقدمت إلي فتاة تسأل ان كنت أشكو
البرد وأحتاج الى وقود . فتلفت فاذا فتاة هيفاء ، ساحرة الطرف
أسيلة الخد ، واضحة الجبين ، لا أذكر اني رأيت مثلها في باريس .
فاندفعت في طيش ونزق أقيدها بأسباب الحديث . وقلت : أنت
نور مندية يامدموازيل ؟ فأجابت : لا ، ولكني بريتانية : فقلت :
ياللشرف ؟ أنت إذن بلدية إرنست رينان ؟ فقالت ومن هو إرنست
رينان ؟ فقلت : الفيلسوف الكبير مؤلف كتاب مستقبل العلم ،
وكتاب حياة المسيح . فقالت لأعرفه . قلت : عجبا ، إن الشيخ
بحيث يعرفه وقد نقض فلسفته في محاضرة ألقاها بالجامعة المصرية
سنة ١٩٢٤ ، فقالت : ومن الشيخ بحيث ؟ فقلت : تجهلين هذا أيضا ؟
هذا فيلسوف عظيم ، وهو صاحب كتاب (منحة العبيد في علم
التوحيد) وكتاب . . .

ولم أكّد أصل الى هذا الحد من المحاورة حتى سمعت الجرس
يدق دقا عنيفا متواليا وإذا ربة المنزل تصيح : مارى ! انزلى ،
مارى ! انزلى ، ليست هذه ساعة التلكؤ والفضول . . . ونزلت
الفتاة مسرعة ، وعرفت أن ربة المنزل لثيمة ، وأنها أبخل وأضن
وأحق من أن تسمح لزائر بمحاورة هذه الشقراء الهيفاء ، فأسررتها
في نفسي وأقسمت لا أتركن هذه الغرفة لتصرف فيها تلك العجوز
الشمطاء . . . ثم خرجت متعللا بأن الغرفة لا توافقني لأنها تطل

على الفناء، وكنت أحسبها تشرف على الميدان . . .
ولكن إلى أين أذهب والمطر ينسكب بشدة كأفواه القرب
بحيث لا تغنى في دفعه المطرية - ولا أقول الشمسية لأنها تنقى
بها المطر لا الشمس ! - إلى أين يذهب الغريب في هذه المدينة
الموحشة وقد انتصف الليل أو كاد !

إلى شاطئ المانش لأرى ما يفعل ذلك الأهوج المجنون
بالسفن. ولا تستكثر هذا الوصف فإن الذى لا يرى المانش
لا يعرف كيف يكون جنون البحر وهوج الرياح، وإن السفن
لتكاد تتحطم على الشاطئ من قسوة الأمواج. ولا تسأل كيف
قاسيت فى تلك الليلة، فإنى لا أذكر أنى قضيت ليلة أطيب منها
ولا آنس ولا أروح فى حياتى، وقد عذرت عشاق الطبيعة الصاخبة
وعرفت كيف يكون طعم الحياة فى مواجهة الأخطار، وعرفت
إلى أى مدى يجنى المترفون على أنفسهم حين يأبون إلا أن يعيشوا
فى كنف الطمانينة والهدوء.

وشد ما كان صدرى يشور بالنشوة والطرب كلما تصورت
أن الحياة أتاحت لى أن أعيش ليلة على النمط الذى كان يعيش عليه
شعراء الإغريق ! وكم خاطر شعري طاف بقلبي ! وكم أمنية عذبة
مرت بالنفس وكادت تحملنى على أن أتحوّل إلى بحار يبحث عن
أسباب رزقه فى مصاحبة ذلك العباب المجهول !

فلما كانت الساعة الثالثة صباحاً نزلت الى اليمّ أنظر ما يفعل
الصيادون . وهم هناك مئات بين رجال ونساء وصبية وكهول
يجمعون ما تسمح به الشواطىء من مختلف الأسماك . وساعة
واحدة بين أولئك القوم تشعر كبحمال النشاط والسعى في طلب
الرزق الحلال ، وحياتهم كذلك صورة صادقة للانسان القديم .
فقد تغير كل شيء إلا هذا النمط من استغلال شواطىء البحار .
فأى شيء هذه الحياة الوداعة التى نحياها فى سجن ما أبدعت المدينة
من ألوان التقاليد ؟ وأين نحن من ذلك المرح اللاجب الذى يحيا
فى ظلاله من يعيشون على سواعدهم من شياطين الصيد . لقد ظلت
فى هذه النزهة الطبيعية الى مطلع الشمس ، ثم عدت الى المدينة
فوجدتها لا تزال أمامى أضيق من سم الخياط ، فأخذت القطار
الى روان

اختيال الطاووس

خواطر عن عالم الطير وعالم الحيوان

ليس لدى ما يمنع من الاعتراف بأنني لم أر الطاووس وهو
ينشر جناحيه زهوا واختيالا الا منذ يومين . وللقراء أن يسألوا
أنفسهم متى رأوا مثل هذا المنظر الأخاذ بالابصار والقلوب، فقد
يكون فيهم ألوف لم يشهدوا الطاووس وهو يزهو ويختال

ولقد أحياني نفسي ذلك المشهد حسرة قديمة طالما غزتني
بصنوف الآلام لتقصيري في دراسة الطير والحيوان . ثم سكنت
قليلا حين تذكرت انني لم تفتني دراسة الحيوان جملة واحدة : فقد
اهتممت كثيرا بدراسة الحيوان الناطق الذي اسمه انسان ! واني
لأعلم عن ذلك الحيوان الذي يمشي على أربع وهو طفل ، وعلى
اثنين وهو شاب ، وعلى ثلاث وهو كهل ، ما يندر أن يعرفه
باحثٌ سوى . فقد عرفت من أشتات الأصحاب والآلاف
والزملاء والجيران والمنافسين والحاقدين والخصوم والأعداء
ما يكفي في مادته لوضع كتاب في خمسين مجلدا أو يزيد

على ان الأدب الذي شغلت بدرسه وقضيت فيه أنفسي
أعوام شبابي ليس شيئا آخر غير دراسة أوهام الحيوان الناطق

واحلامه وتصوراته ، وكيف يحب وكيف يحقد ، وكيف يخطيء
وكيف يصيب . وقد ابتلاني الله بطوائف كثيرة من الدسائس
والكائدين واللثام فكانت فرصة عظيمة لفهم غرائز هذا الحيوان
وطبائعه ونحائزه وميوله وأطماعه . ويظهر أن الله جلت قدرته قد
شاء أن أكون على شيء من العلم بطبائع النوع الناطق من الحيوان :
فأنا أستطيع أن أقرأ خواطر الناس في وجوههم وعيونهم ،
وأستطيع أن أفهم ما يضمرونه حتى عن أنفسهم ، وما يدسونه
بين السطور وفي ثنايا الحروف . وإني لأجد في درس بني آدم لذة
لا تعدلها لذة ، لأنهم قد يكونون أرقى أنواع الحيوان ، فإن لم
يكونوا أرقى فهم على الأقل يحسنون النفاق ، والنفاق دليل
الانحطاط ولكنه في الوقت نفسه دليل الذكاء

وأي لذة أطيب وأشهى من أن ينافقنا إنسان وهو يحسب
أنه أتقن دور الخداع . ثم ينصرف في اختيال الظافر في حين
اننا فهمناه ، وعرفنا ما كان من أمره وما سيكون !

على أنه ما الذي يفتننا ونحن ندرس الطير والحيوان ؟
أليس مرجع تلك الفتنة العامة ما نجد من الشوائب الانسانية
في عالم الطير وعالم الحيوان ؟
ما الذي يروقنا من البابل ؟

انه لا يروقنا منه إلا مظهر واحد هو قدرته على التلوين

والتنوع في أغاريده بحيث يمكن أن يقال انه فنان . فهو لا يسجع اتفاقا وعلى وتيرة واحدة كما هو شأن الطير المغرد ، ولكنه يفتن افتنانا شائقا ويتنقل من لحن إلى لحن ، ومن صوت إلى صوت ، وهو في ذلك كله يملك من أمره ما يملك الانسان ذو الصوت الحنون

وهناك حيوانات يفتننا درسها أشد الفتنة ، وهي الحيوانات الماكرة الخبيثة التي تذكر باخواننا بنى آدم ، عفا الله عنهم ! فهل رأيتم الدب يا حضرات القراء ؟

أما أنا فقد تشرفت بمقابلته اليوم وأنا أستعد لكتابة هذا المقال ، وأغرب مراقبي منه أنه يبسط كفه من بين قضبان الحديد يلتمس برّ الزائرين الذين عودوه قطع السكر والخبز والفطير ، وتظهر على وجهه أمارات القلق والحيرة والعتب كلما أخلفه الناس ما عودوه . وقد انتظر طويلا في صباح هذا اليوم عطف المتفرجين ولكنه لم يفز بطائل ، فضى الى الحوض يستحم ! وهنا أحدثكم أنه كان يضع رأسه تحت صنابير الماء ثم يمدّ يديه فيمسح شعره ووجهه وأنفه بطريقة انسانية محضّة كادت تحملني على الاقتناع بأنه آدمى ممسوخ !

وقد تحدثت مع صديق لى عن هذا الدب الألوف الذى يخطب وداد الناس فقال : ألوف؟ احذر أن تتوهم ذلك ، فقد قتل

اثنين من الجنود في العام الفارط. فقلت: كيف؟ فأجاب: سقط
 من أحدهما شيء في هذه الحفيرة، ونزل يلتمس عليه الدب
 واقتربه، ونزل رفيقه لا يتقاه ولكنه لم يسلم من مخالفه... وكانت
 لحظة فكرت فيها في هذا الدب الخائن الذي يبسط كفيه في ذلة
 يلتمس الطعام من أيدي الأدميين، حتى إذا كانوا عنده جزاهم شر
 الجزاء! أليست هذه شمائل انسانية؟ قولوا الحق أيها القراء. فكم
 ناس وفينا لهم وفديناهم بأنفسنا سرراً وعلانية، ثم كان مثلهم معنا
 مثل الدب مع الجندي المنكود!

وقد شغل العلماء أنفسهم بدراسة القرابة بين الإنسان والقرد،
 ومثل هذا الدرس جدير بأن يقدم للباحث أمتع اللذات، ففي الحق
 أن القرد يملك كثيراً من الشمائل والغرائز الانسانية، وتكوين
 وجهه وحاجبيه وعينه مما يقوى الشبهة في أن الإنسان قرد تطور
 إلى الرقي، أو أن القرد إنسان تطور إلى الانحطاط

واني لا ذكر أن أحداً الاصدقاء من أساتذة كلية العلوم في باريس
 حدثني مرة أنه لاحظ في إحدى سياحاته بالاصقاع الافريقية أن
 طائفة من القروء تنتظر شروق الشمس بما يشبه صلاة الصبح عند
 الإنسان: وذلك أنها تقف وأيديها مرفوعة إلى السماء بما يشبه القنوت
 أذكر هذا، وأذكر بجانبه أننا لا نعرف أشياء كثيرة عن
 الصلة بين القرد والإنسان، ولكننا لا نستطيع أن ننكر أن اهتمامنا

بدراسة القروود مرجعه إلى ما ندهش له من شمائها الانسانية ،
 وخاصة حين تتناول الطعام والشراب
 وهناك عالم الطير ، ذلك العالم العجيب الذى ملك أقطار
 الهواء

ومن ذا الذى ينكر أننا حين ندرس الطير انما نبحت عما
 بيننا وبينه من المشابهات والمقاربات ، ألم تجر الامثال فى جميع
 اللغات بما يمثل غرائز الطير تمثيلا يقربها كل التقريب من طبائع
 الناس ؟

ألسنا نستأنس حين نرى طبائعنا مصورة فى نحائز الطير:
 فهذا طائر جارح ينتزع غذاءه وهو يصول ، وذلك طائر وديع
 يطلب غذاءه فى رفق واحتيال ، وتلك أسراب تغدو خصا وتروح
 بطانا حيث يرزقها الله كما يفعل فريق من المتوكلين

تلكم أيها القراء خواطر عللت بها نفسى حين رأيت قصورى
 عن فهم عالم الطير والحيوان ، فالانسان فى رأى هو مجموعة كاملة
 لشتى المخلوقات ، وأنا قد عرفت الانسان وفهمت غرائزه وميوله
 وسجاياه. وما قيمة القلم ان لم نستطع الدفاع عن جهلنا بما فى هذا
 الوجود من طير أو حيوان أو نبات أو جماد ؟ لقد فتحت الباب على
 مصراعيه لمن يريدون أن يخذعوا أنفسهم ليقنعوا بوجه الظن حين
 يفوتهم علم اليقين !

وأعود فأتكلم عن الطاووس الذى حملنى على كتابة هذا
المقال .

الطاووس طائر ذو جناحين ، ولكنه لا يستطيع النهوض
لان ريشه عبء ثقيل . وهو طائر ذو كرامة ينفر من الابتذال .
وهو الطائر الوحيد الذى رأيت فى حديقة النباتات فى باريس
يتعفف عن هدايا الزائرين ، فقد تلقى اليه قطع الحلوى فيتعامى
عنها فى أنفة وكبرياء

وريش الطاووس مشهور بالحسن ، ويكاد صدره يفعل بالناظرين
ما تفعل الصهباء بالألباب ، وليس شئ يجلب عن الوصف بقدر
ما يجلب صدر الطاووس . والناظر الذى ألف ذوقه أن يقتات من
الحسن لا يدري كيف يواجه تلك الفتنة العجيبة التى وهبها الله
لذلك الطائر العزوف .

ولقد طال ارتيادى لوادي الطير فى حديقة النباتات ، وكان
الطاووس فى كل مرة هو أفن ما أرى ، ولكن كان يضيقنى منه
شئ واحد هو تعقله . والتعقل هو أشد ما يؤذينا من أهل الجمال
غير أنى دهشت فى الزورة الأخيرة : فقد رأيت الطاووس
كلها فى فرح يشبه الجنون لتوديع الشتاء واستقبال الربيع . ولأول
مرة رأيت كيف يعجب الطاووس بنفسه وكيف يفهم أنه من
أجل المخلوقات . رأيت وهو ينشر جناحيه فى زهو واختيال

ثم يدور على قدميه ليراه الزائرون من جميع الجوانب ، وفي هذا ما يدل على أنه يشعر بجماله ، وأنه بذلك مفتون
وله لحظات يقوم فيها برعشات كهربائية يُسمع لها صريرٌ
يشبه حفيف الريح بين الأوراق . وأقول يشبه فقط : لأن
تلك الرعشة الكهربائية التي يقوم بها الطاووس تعرض على
الناظرين ألواناً فتانة من ريشه الجميل . وهذا الجانب من زهو
الطاووس يدق عن الوصف والتمثيل ، ولا يدرك قيمته إلا من
يراه . ولا يملك جمهور المتفرجين إلا جملة واحدة يكررونها في
تواتر وانجذاب ، إذ يقولون : ما أجمله ! ما أجمله !

الطاووس طائر رقيق الذوق ، وله عواطف وأهواء ، وهو
في عالم الطير يشبه الشاعر في عالم الانسان
ليس للطاووس قلمٌ يستهوى به أهل الجمال كما يفعل فريق
من الكتاب والشعراء ، وليس لديه قيثارة يغزو بها القلوب كما
يفعل الموفقون من أهل الفنون ، ولكنه يملك تلك الرعشة
الكهربائية حين يبسط جناحيه : فهو يتقرب بها إلى من يهوى في
عالم الطواويس

فيآليات شعري وقد فهم كيف يكون الغزل ، أهو أيضا يفهم
كيف يكون الأسي وكيف يكون الأنين ؟ وهل كتب عليه
يوماً أن يرى كيف تكون حسناته ذنوباً عند بعض الأسراب ؟

انى لأحنو على الطاووس أيها القراء ، فهو فيما رأيت يعنى
نفسه فى نشر محاسنه ، وتظهر فى سيماء علام القلق فى سبيل
الوصل . فان كان هو أيضا يخفق كما يخفق بعض الناس فليست
الدنيا اذاً إلا دار شقاء للجميع !

بك بعض ما بى أيها الطائر الجميل ، وليس لدى بعض مالديك
من آيات الحسن والإشراق
أنت تملك ذلك الريش الأخضر البراق ، وأنا أملك ذلك
القلم الأسود المقصوف . فيا بعد ما بينى وبينك حين تقوّم النفائس
والأعلاق !

كلانا غريب فى هذه الديار ، ولكن الحسان تسعى اليك
أسراباً أسراباً فى الضحى والأصيل ، أما أنا فأتعقب الحسان من
ملعب إلى ملعب ، ومن بستان إلى بستان ، ثم أعود وليس لدى
ما أذهب به وحشة الليل غير ترتيل ما قال المعذبون من شعراء
الوجدان ...

وسلام الله على كل ساهر الجفن مفطور الفؤاد !

أول ابريل سنة ١٩٣١

نزهة في طيارة

وأخيراً طرت مع الطائرين !

في هذه الأيام افتتح معرض الطيران في القصر الكبير
بالشانزليزية، وكان لابد أن أزور ذلك المعرض لأرى الفرق بينه
وبين المعرض السابق الذي شهدته سنة ١٩٢٨ ولأعرف إلى أي
مدى تقدمت المعدات لامتلاك ناصية الهواء . ولكني رأيت من
القصور أن تظل صلتى بالطيران صلة ضعيفة لاتعدو مشاهدة
الطيارات وهي جاثمة في الجراج ، وكذلك صممت على أن أطيّر
أولاً قبل أن أزور معرض الطيران ، وتوجهت مسرعاً إلى مطار
بورجيه ، عليه تحية وسلام

ولا أدري كيف بدا لي أن أخبر بعض أصدقائي
من أساتذة السوربون عما اعزمته من تلك النزهة الجوية ، فقد
قال قائلهم في لطف : هل كتبت وصيتك ؟ وكان سؤالاً لا بد منه
في عهد لا يزال فيه الطيران طفلاً في المهد ولا يزال يتأثر بالجو ،
ويعيش في تقية من الأمطار والرياح فضلاً عن الزوابع والأعاصير .
من أجل هذا تخيرت يوماً مشمساً ضاحياً لاسحاب فيه ولا ضباب
وكان أمس الخميس ٤ ديسمبر من الأيام الساجية الضاحكة

في أرض قلما يبدو فيها يوم سحسج مقبول .

ان الفرنسيين يسمون المطار port وهو كذلك يشبه الميناء .
 وشعور القادم على مطار بورجيه يشابه شعوره حين يقدم على
 ميناء مرسيليا أو اسكندرية أو بور سعيد ، وليس بين المطار وبين
 الميناء من فرق إلا أن المطار يواجهك في هدوء وسكون ولا
 كذلك الميناء حيث تصطدم بصفير البواخر وأصوات الملاحين .
 ومطار بورجيه مطار فسيح جداً يمتد إلى أبعد ما تسرح العيون ،
 وفيه جراجات عديدة تأوى إليها الطائرات . وكان يوم أمس موعداً
 لقدم بعض الطائرات من لوندرا . فقدمت بلا لَجَب ولا ضوضاء
 ونزل راكبوها إلى المقصف في وداعة وهدوء كأنما قدموا من
 باريس

إن الطائرة التي ركبناها طائرة صغيرة تسمى Ajub ليس فيها
 مقاعد لأكثر من عشرة أشخاص ، ولم يفتنى أن أقول حين ركبت
 « بسم الله مجراها ومرساها ، ان ربي لغفور رحيم » ومرّ بالبال
 كل ما جرى لسيدنا نوح عليه السلام ، وأنا رجل كثير الذنوب
 كنت أخشى أن يكون حان حين التكفير ، ولكنني نجوت
 فاعتقدت بحق أن الله غفور رحيم !

كانت لحظة رهيبة حين أغلق الباب وحين أيقنت أننا صرنا
 في وديعة الهواء ، ومضت الطائرة على الأرض بضع لحظات تمنيتُ

أن تطول لنظل في رحاب الارض التي منها خُلِقْنَا وإليها نعود،
ثم أزت الطيارة أزيزا شديدا كاد يصم الاسماع فعرفنا أنها أخذت
تشق الهواء

لا تسئل كيف كان شعورى حين حُلِقْتُ بنا الطيارة، فقد
كانت دهشتي عظيمة جدا حين لاحظت أن الطيارة أرفق بركابها
من السيارة فوق الارض ومن الباخرة فوق الماء، فسير الطيارة
سير لين رقيق لا عنف فيه ولا اضطراب، وأكد أقول أنها أرق
وألين من المطايا الذلول التي تجوب البيداء. فما هو هذا الانسان
وكيف عقله وكيف خياله؟ انه لمخلوق عجيب!

لقد شعرت بالعزة الانسانية حين توغلنا في آفاق السماء.
وكننت من بين الراكبين كثير التلفت من النوافذ إلى ما نمر به
من المنازل والقصور والميادين والحدائق والبساتين. فراعني أن
شعورى بجمال الطبيعة كافى أعمق ما مر بي في حياتي. وايقنت أن
الطير أكثر نعيما منا، وأدق إحساسا، وأعمق شعورا، وأبصر
بمواقع الحسن، وأعرف بمواطن الجمال. وكيف لا وأنت على
الأرض لا تدرك من الطبيعة إلا بعض الجوانب، حتى إذا
أشرفت عليها من فوق رأيتها كاملة في زخارفها وتهاويلها ونقوشها
وصورها وجميع ما تتحلى به من الحسن المجلوب، والجمال الموهوب.
وإن نظرة إلى بعض مناظر باريس التي أخذت من الطيارة

لتريك الفرق البعيد بين المنظرين : منظر يؤخذ من مصور يقف
على الأرض ومنظر يؤخذ من مصور يطل من ناحية السماء
ركبنا الطائرة قبيل الغروب فتمتعنا بمشاهدة ما أشرفنا عليه
من بدائع الأرض دقائق معدودات ، ثم غربت الشمس وأسامت
إلى الظلمات ، وبقى القمر يساهرنا ونساهره فيما بقي من نزهتنا
القصيرة . والقمر في هذه البلاد قليل السلطان يبدو في غمرة من
النحول والشحوب . لأنه لا يصل إلى الغرب إلا بعد أن يضيئه
المسير ، كما أفترض أن يقول الشعراء ، وعدنا نتلفت إلى الأرض
فيروعنا ما في الشوارع من المصاييح ، وكان لذلك روعة في نفوسنا
لا تقل عما يشعر به المتطلع إلى نجوم السماء

لقد أفهمتنى هذه النزهة معنى قولهم « ساعة سعيدة » فقد
كانت لحظاتي فيها من أسعد اللحظات
ولكن خاطرا واحدا أزعجني وأثار قلبي من هدوئه وألقى
بنفسي في لجة من القلق والاضطراب . فقد تذكرت أن هذه
المحدثات العجيبة بأيدي أهل الغرب ومن صنع أهل الغرب . وأهل
الغرب لثام تطفيم القدرة ، وتعميم النعمة ، ولن تكون هذه
المبتدعات في أيديهم إلا وسائل إفناء وإهلاك وتخريب وتدمير .
وتذكرت الطائرة التي ألقت قذائفها فوق مدينة القاهرة أيام الحرب

والتي قال فيها حافظ ابراهيم خمسة آيات . وقد قيل يومئذ
إنها طيارة ألمانية . ولا أعرف لأى سبب افترضتُ إذ ذاك أنها
طيارة انجليزية أرادت أن تفهمنا أننا في خطر وأنه لا بد لنا من
حماية الحلفاء . ذلك كان افتراضى وقد أكون من الواهمين !

أهل الغرب لا يوفون إن عاهدوا ، ولا يصدقون إن وعدوا ،
ولا يبرون إن أقسموا ، وإنهم لمغرمون بنقض العهود ، وتمزيق
المواثيق . ولست في هذا المقام بحاجة إلى تذكير قرائى بالسبعين
وعداً التي ظفروا بها من ساسة الانجليز ، فقد يقال : إنهم سيصدقون
وأثمهم عما قليل ليصبحن راحلين ، ولكنى أذكر من شاء أن
يتذكر ممن خالطوا الأجانب في زراعة أو تجارة أو صناعة ، أو
شاركوهم في جد أو في هزل ، أو عرفوهم في صداقة أو في خصومة ،
إني أذكر من خبروا الأجانب بعض خبرتي لهم ، علمهم يتذكرون
جميعاً أن كل من يمت إلى أهل الغرب بصلة قريبة أو بعيدة إنما
هو إنسان خادع ، ماكر ، خبيث ، لا عهد له ولا أمان !

وقد شاع اعتقاد أن مطاعم الأجانب لا تتمثل إلا في
حكوماتهم ، أما الأفراد فهم ملائكة أطهار ! وهذا كلام لطيف
يصح أن يقال ويعاد في القهوات حيث يتكلم الفارغون عن كل
شئ ، ويخوضون في كل حديث ! والواقع غير ذلك ، الواقع أن

الأجانب نفعيون، وأنهم لا يتقدمون ولا يتأخرون إلا وفي
أنفسهم غرضٌ دفين

فهل من الإثم في شيء أن أروض قومي على أن يفهموا أن
لهذا العصر أخلاقاً وآداباً تغاير ما عرفوا من أخلاق وآداب، وأنه
لا بد لمن يريد أن يعايش أهل هذا الزمان أن يكون في مثل
لؤمهم وبغيهم، وأن يكون له ما لهم من قوة البر والبحر والهواء
إنني لأكتب هذا بعد ما عرفت عن قرب أن هذه السنوات
العشر، سنوات السلام، لم تكن إلا ضرورة قضت بها الظروف،
فإن الدول هنا يتقى بعضها شر بعض، ولولا تعادل القوى وتكافؤ
المعدات الحربية لكانت هذه السنوات أياماً لأواء.

كانت ساءة سعيدة لولا هذا الخاطر المزعج. ولكن من يدري
لعل هذا الخاطر كان أنفوس ما مرَّ في تلك الساعة، فقد آن أن نشبَّ
عن الطوق وأن نعبّر عن إحساساتنا بغير عبارة الأطفال إذ يقولون
حين يبتهجون: يا سلام! يا سلام!

عادت الطائرة إلى بورجه، ورأيت أن أرى ما هنالك من
مختلف الطائرات والمحركات. وصحبني صديق فرنسي من أعضاء
اتحاد الطيران ولسان حاله يقول: «تفرّج وشوف» فهذا فنار
في قوة عشرين ألف شمعة؛ وهذه طائرة تاكسي. وهذا دليل

الجو ، وهذا مرشد الطيار الحائر في الضباب ، إلى آخر ما رأيت
من تلك الأعاجيب

ثم رأيت أننى أمسيت ، فأخذت سيارة إلى باريس ، وأنا
أردد قول شوقي

أرى طوفان هذا الغرب يطغى وأهل الشرق سادته نيامُ
فإن لم يأتنا نوح بفلك على الإسلام والشرق السلامُ

٥ ديسمبر سنة ١٩٣٠

غمز لا يجدى

كان على يمينى فى إحدى المحاضرات الليلية، سيدة وكان بيدها ،
شهد الله ، قلم وقرطاس ، لتدوين ما يقول المحاضر ، ولكنها بعد
لحظات استسلمت لمغازلة النوم ثم أخذت تغط غطيظاً منكراً واصل
صداه إلى المحاضر حتى خفت أن يأخذه التهويم . ومن وقت إلى
وقت كانت تستيقظ على دوي التصفيق فتسرع إلى القلم وتشرع
فى تسويد القرطاس ، ثم تعود إلى النوم والغطيظ

وقد أزعجنى شخير تلك المرأة وفكرت غير مرة فى غمزها
لتصحو . ولكنها كانت عجوزاً فانية . ولا فائدة من (غمز)
العجائز الفانيات !

يوميات عيد الحرية

في باريس

كيف تدعى الامم إلى الجهاد - المراقص العمومية - أساس
الاخلاق - جنود الجزائر - حفلة الألعاب النارية على شواطئ
السين - الأمل في خلاص وادي النيل .

١٢ يوليه سنة ١٩٣٠

لقد شهدت مقدمات عيد الحرية : ففي كل شارع وفي كل
ميدان وفي كل مورد من موارد اللهو والقصف تقام شعائر الفرح
وبشائر الابتهاج ، وقد أعدت المراقص العمومية في الشوارع وفي
الميادين ، وأخذ الناس يرقصون ، ولا يمكن لم أشهد في المراقص غير
الأطفال ، فكما صدحت موسيقى الرقص انطلق الصغار كأسراب
القطا يرقصون رقصا ينقصه الفن ولكنه في سذاجته جميل جذاب .
ولعلمهم كانوا يعجبون كيف خلا الميدان من المنافسين الأشداء
الذين يعرفون كيف تكون المخاصرة ، وكيف يضم الصدر إلى
الصدر والساق إلى الساق ، ومثلهم في ذلك مثل الأطفال في مصر
تقام أمامهم الاعلام والاقواس في الموالد العمومية ، فيذهبون

فرحين مستبشرين ثم يرون المولد خلواً مقفراً إلا من وثباتهم
المرحة وجذلم الفياض ، ولو فهموا لعرفوا أن الكبار يشغلهم
المولد بأشياء أخرى ، فهذا تاجر ينظم عرائس الحلوى وذلك مهرج
يعد الألعاب والصواريخ وهذا شيخ يفكر في استقبال مريديه
وزائريه ، وتلك سيدة « تبين زين وتدق الودع » وتكون الخلاصة
أن الموالد فرصة تجارية عند الكبار ، والصغار لا يفهمون ذلك ،
فهم يعجبون كيف يلعبون وحدهم من دون الناس !!

وقد رأيت أن أختبر شعور الباريسيين نحو ١٤ يولييه
فعجبت إذ رأيت كثيراً منهم لا يأتون له ، ولا يحفلون بقدمه
فتذكرت الحكمة العربية التي تقول : « الصحة تاج على رؤوس
الاصحاء لا يبصره إلا المرضى » وكذلك يمكن أن نقول : « الحرية
تاج على رؤوس الأحرار لا يبصره إلا المستعبدون » فنحن
الشرقيين الذين كتب علينا أن نعاني أهوال الظلم والاستبداد ننظر
إلى عيد ١٤ يولييه نظراً مختلفاً أشد الاختلاف عن نظر الفرنسيين
الذين طال عهدهم بالحرية ، وألفوا استعباد الشعوب

قال قائل منهم : ما الفرق بين ١٤ يولييه و ١٤ يونيه ؟ انهما سواء !
وكتب أحد الصحفيين يقول : لقد أحسن محافظ المدينة في إعلان
إباحة الرقص العام ثلاثة أيام . فانتا سنرقص وسنرقص لننسى في
ساحات الرقص أثقال الضرائب !!

أما أنا فقد أعطتني هذه الشواهد فرصة للتفكير. وقد وصلت إلى أن معاني الوطنية والقومية تحتاج إلى وقود: فالشعب الذي يعاني أزمة اقتصادية أو اجتماعية غير مستعد للتصفيق والتهتاف لحادث تاريخي مرت عليه أجيال ، فمن شاء أن يحرك الشعب فليرفع عنه عبثاً ضاقت بحمله كواهله ، وليفتح أمامه باباً من أبواب الرجا، والرجل الذي لا يجد ما يشبع أمعاءه لا يهتز لما يغذى عواطفه. وأذكر بهذه المناسبة أن أحد الأساتذة قال لي مرة : لقد كان غذاء الجنود في الحرب الأخيرة أجمل غذاء شهدته الشعب الفرنسي فكان الجندي يجد من أنواع الشراب والطعام وأسباب اللهو والمجون ما يحجب إليه البقاء في الميدان

وكذلك كان الانسان كتلة من الاعصاب والحواس قبل أن يكون صاحب رأى أو مذهب أو عاطفة أو إحساس . ولست في هذا ممن يقدمون الغرائز الحيوانية على المعاني الانسانية . ولكني أحاول كشف الحقائق في صورها الواقعة . ليعلم من لا يعلم أن الوطنية الباقية هي التي تبنى على أساس المنافع والمصالح المادية . فالشعب الذي تدعوه إلى الدفاع عن الحرية لأنها فقط معنى نبيل لا يصبر طويلاً على الجلاذ والكفاح في تأييد المعاني الصرفة ، أما الشعب الذي تفهمه وتصل إلى اقناعه بأن الحرية غرض مادي صرف وأنه ينبغي أن يكون سيد نفسه وأن يفتح أمامه أبواب الرزق والغنى

فانه يستبسل ويستमित لأنه يسعى إلى عمل محسوس مأموس ، فمن
كان في ريب من ذلك فليذ كر كيف ساد المسلمون يوم كانوا يسعون
لفتح ممالك الارض وجنى ما فيها من الخيرات والثمرات ، فلما
شغلوا بالتصوف ورياضة النفس على الزهد خملوا وضعفوا وضربت
عليهم الذلة والمسكنة ، ولكن أكثر الناس لا يفقهون !

في ١٣ يوليه

ابتداء من الساعة الثانية بعد ظهر اليوم تغير الحال في باريس
ونشط الجمهور للتمتع بعيد الحرية ، وكانت موسيقى الرقص تصدح
في كل مكان ، وهي موسيقا لها جاذبية خاصة يرقص الناس
عند سماعها من حيث لا يشعرون . فلما جاءت الساعة السادسة
انصرف الناس الى منازلهم يطلبون العشاء ، وكنت على موعد من
صديق فرنسي ، فتعشنا معا وحضرنا رواية هزلية تمثل خيانة الأزواج
وخرجنا قبل منتصف الليل نشهد المراقص العمومية

فان كان القارىء المصرى لا يعرف ما هي المراقص العمومية
التي تسمح بها الحكومات الاوربية في أعيادها القومية فلنذكر له
أنها مراقص تقام في الشوارع والميادين ، ولها حرمة كبيرة لا تقل
عن حرمة الصلاة عند المؤمنين . فاذا صدحت الموسيقى وتخاصر
الراقصون كان حتما على مركبات الترام واللاتويدس والسيارات أن
تقف في خشوع حتى يتم الدور ، فاذا تم تحركت خطوط المواصلات

لحظة قصيرة ثم يستأنف الرقص فيخشع كل ما في الوجود. ومن
مزاي المراقص العمومية أنه لا يشترط تعارف سابق لمن تراقصها من
الفتيات : فلك أن تهجم متى شئت لتخاصر من تشاء من ناعسات
الجفون . ولا عيب في هذه المراقص إلا أن الرجال أحيانا يكونون
أقل عددا من النساء فترى مع الأسف الشديد فتاتين تراقصان ،
مع أن الرقص كالحب يحتاج الى رجال وحبال ! وهذا يذكرك بما
نراه في بعض مراقص القاهرة حين يكون النساء أقل عددا من
الرجال فنشهد رجلين يتراقصان ، والجمع بين النظيرين جميل إلا
في هذه الأحوال !

طفنا كثيرا حول المراقص وكان أبدع مرقص شهدته في
ميدان السوربون . كان الراقصون والراقصات يعدون بالآلاف ،
وكانوا يرقصون في زحام شديد جداً تنقل فيه الخطوات ببطء
شديد . كان هذا يجري أمام الجامعة حيث كان تمثال أوجست
كونت محور المرقص . ولا موجب للتفكير فيما يمر بذكر ذلك
الفيلسوف العظيم ، فهو أيضا بلا جدال قد أغرق شبابه في لجة
الفتون ، فمن العدل أن يغضى الطرف في عالم الأبدية عن ألعاب
الجيل الجديد

أتريدون الحق أيها القراء؟ أنا والله في حيرة مما أشهد في أعياد
باريس ، هذا الرقص العام هادم لصروح الاخلاق ولكن الناس

هنا لا يلتفتون الى ذلك . أف تكون الأخلاق أمورا نسبية ؟ أو
تكون كالنباتات لها أقاليم ولها أجواء : فبعض الاخلاق ينمو في
مصر ، وبعضها ينمو في الشام ، وبعضها يتحول لونه وطعمه إذا
نقل من أرض الى أرض ؟

« ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة
إنك أنت الوهاب »

في ١٤ يولييه

ماذا رأيت في يومى هذا ؟ ستمر الأعوام ولا أنسى
لقد شهدت استعراض الجيش ، ورأيت رئيس الجمهورية
الفرنسية وبجانبه سلطان مراکش ، وبأى تونس ، وشقيق امبراطور
اليابان : فرأيت كيف تكون عظمة الأمم التى قدر لها أن تملك
وتسيطر وتسود

وكان من أهم المناظر التى طرب لها أهل باريس استعراض
فرق الجزائر التى قدمت فى لباسها العسكرى القديم الذى كان
معروفا منذ مائة عام حين فتح الجزائر بمناسبة العيد المئوى لذلك
الفتح المشئوم

مرت تلك الفرقة الجزائرية بين الهتاف والتصفيق !
أما أنا فدارت بى الأرض ، وأظلم فى وجهى الفضاء
وغلبنى الدمع

ويلاه! هؤلاء بنو العم والخال كانوا أقطاب الأرض وشياطين
الصحراء، ملكتهم هذه الدولة العاتية فزقت شملهم، وفرقت
جمعهم، وأذاقتهم حلاوة الترف واللين فعادوا نبتاً يؤكل بعد أن
كان فتاهم يقول.

وكم عاجم عودى تكسر نابه إذا لان عيدان اللثام وخاروا
ومن أعجب العجب أن القواد الجزائريين كانوا يردون
تحية الجماهير كأنما يحسبونها تحية إعزاز، وكانوا كلما لوّحوا بإشارة
الرضا ازددت حسرة إلى حسرة ودمدمت

يقضى على المرء في أيام محنته حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن
كان أولئك الجنود يخطرون بحيولهم على شاطئ السين وهم
صاغرون، فأذكر أجدادهم الذين فتحوا أوروبا وأذلوها في القرون
الوسطى أشنع إذلال، وكادت فرنسا يوم ذاك تصعق تحت سنابك
خيالهم لو أمهلتهم المقادير. كانت خطواتهم يومئذ خطوات عزّة
وكبرياء، واستطاع شاعرهم أن يقول

سكنوا بأرض الزعفران وغادروا

أرضاً تربّ الشيخ والقيصوما

في الساعة الثالثة من صباح ١٥ يولييه

لقد نجوت بحمد الله من شر هذه الليلة فعدت سليم الجيب

والعرض، ولم أزعج الكرام الكاتبين بكثير من الذنوب

كانت الألعاب النارية على شواطئ السين تجمع إلى جمالها
 أكثر سكان باريس وكان فرح الجمهور فوق كل تقدير . وكان للحب
 والشيطان نصيب عظيم . استغرقت الألعاب النارية أربعين
 دقيقة مرت كأنها ثمانية واحدة . ولم يحشر الله جيوش الحسن والجمال
 والملاحه والرشاقة في أى بقعة كما حشرها في هذه البقاع السعيدة
 شواطئ السين

وقد قضيت نحو ساعة في اختراق المسافة من القنطرة الجديدة
 الى قصر المدينة وهي تقضى عادة في خمس دقائق . ولكن ازدحام
 الناس والسيارات أطال الطريق

قضيت أربع ساعات هائما بين اللاهين واللاهيات واللاعبين
 واللاعبات في ميادين باريس . ثم عدت الى المنزل وحدى في ليلة
 لا يبيت فيها وحده إلا كل صبور ، والنفس قد تطنى فتكون على
 صاحبها أشد خطرا من حكام الباستيل . وقديما كان النبي عليه الصلاة
 والسلام يقول عند الرجوع من الحرب «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى
 الجهاد الاكبر جهاد النفس» أفأستطيع أن أهنيء نفسي بهذا النصر
 المبين ؟ وما توفيق إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب

أما بعد فهذه هي المرة الرابعة التي أشهد فيها عيد الحرية في
 باريس ، فهل يقدر لى ان أشهد عيد الحرية الكاملة على ضفاف
 النيل ! لن يبعد هذا الامل وفي مصر رجال

عيد الملاح في باريس

شهدت اليوم عيد الملاح وهو عيد تأخر عن مواعده في هذا العام انتظاراً لصفاء الجو ، وهو في الاصل عيد ديني ، ثم تحول إلى عيد دنيوي ، لأن الدنيا غلبت الدين في جميع البقاع ، وتكاد أعياد العالم كله ترجع إلى أصول دينية ثم تحولت مع الزمن إلى أعياد دنيوية ، فان الانسان فيما يظهر يؤثر العاجلة على الآجلة ، ولا يدرك كيف يصح التفريط في الرغد الحاضر استبقاءً لما وُعد به من نعيم مجهول . ولسنا بهذا ندعو إلى إيثار الدنيا على الدين ، ولكننا نثبت هذه الملاحظة لنسجل بعض التغيرات العقلية والروحية التي أثرت عن إخواننا بني آدم الذين يزعمون أن الله شرف بهم الارض وفضلهم على سكان الماء والهواء

وما أنا منهمو بالعيش فيهم ولكن موطن الذهب الرغام

وبعد فما الذي رأيت في موكب الملاح ؟

رأيت الجمهور الباريسي وقد اصطف شبابه وكهوله من رجال ونساء على جانبي الجران بلفار . وازدحمت الشرفات والنوافذ والسطوح بالمتطلعين المترقبين لمفاتيح الحسن وملاعب الجمال .

وما هي إلا لحظات حتى علا الضجيج والهتاف في استقبال

الموكب المرموق

هذه إذًا ملكات الجمال؟ إى والله، هذه ملكات الجمال،
وتلك هي الأذرع البضة، وتلك هي القامات الممشوقة التي تفضح
الغصون الرطاب، وتلك هي البسمات العذاب تُلقى في سجناء لجميع
المتفرجين في عدل وانصاف، فلا ظالم ولا مظلوم في هذا اليوم المشهود!
أى جمال هذا يارباه!

لقد كنت أتهم فرنسا بالإقفار من الحسن فمن أين ظفرت
بكل هذه الظباء؟ ومن أى واد من أودية السحر استطاعت
باريس أن تقنص كل هذه الشوارد لتعرضها على الناظرين في مثل
هذا العيد؟

لقد كنت أعرف أن الحسن في فرنسا شخت ضئيل،
وكننت أرثى للمرأة الفرنسية حين تمدد على السرير كعود الخلال
أو كالدمية المسخوطة، أو كالومياء تتقدم إلينا من وراء التاريخ!
فما الذى جدّ في مظاهر التطور حتى رأينا في باريس فتيات
لهن معاصم ونحور، وقدود ونهود؟

ما الذى جدّ في عالمكم يا أهل باريس، لقد أثرتم أشجاني بما
عرضتم في هذا اليوم، وأنا رجل طالما نعت عليكم فقركم إلا من
بوادر الظرف والذكاء، وطالما أسيّت لبؤس فتياتكم كلما تخطرت

في شوارعكم عذارى فينا وبرلين !

أفي الحق أنكم تملكون مثل هذه الكنوز ؟ وهل في منازلكم
ومقاصيركم وملاهيكم أمثال لهذه الاجسام الفينانة التي ترد الحليم
وهو غوى أثيم ؟ أأنتم إذا تفهمون كما كان يفهم العرب والمصريون
واليونان والرومان أن المرأة يجب أن لا يقل حظها من جمال الجسم
عن حظها من جمال الروح ؟

ويلاه ! ما هذا الذي تراه عيناى في موكب الملاح ؟

هؤلاء صبايا يخطرُن في نضرة الزهر ، ورقة النسيم ، ولكنهن
جميعا مسوقات للإعلان ! فكل سرب منهن قد قُرُن الى سيارة
مزدانة بالأزهار والتصاوير في سبيل التنويه بالتاجر العمومية ،
فهذه سيارة اللوفر ، وتلك سيارة البون مارشييه ، وهاتيك سيارة
السماريتين ، وهذه عجلة سينما مونج ، وتلك عجلة مسرح بيجال !
أ كذلك يُعرض الحسن في سوقكم يا أهل باريس ؟

وقفت أتأمل هذا الحسن المعروض في حشرات وزفرات ، لأنى
أعلم أن كل معروض مهين ، والحسن أجدر بأن يرفع عن مواطن الهوان
ثم مرّ بالنفس خاطرٌ بدد من آفاقها سحائب الحزن : ذلك
أن الجمال لثيم ، ومن ذا الذى يجهل لؤم أهل الجمال ؟

الجمال لثيم ، لانه لا يؤمن بغير الجاه والمال ، ونحن قوم لم

نرزق غير الشعر والأدب والخيال ، فلا حظ لنا ولا خلاق في دولة
الجمال ، فليخضع الحسن صاغراً لأصحاب المتاجر والملاهي لأنهم
يمسكون منابع الثروة ، ولننظر إليه لاهين شامتين بمارزىء به من
التسخير الشائن في شوارع باريس
أيها الجمال !

أنت لا تعرف من يعبدك ، ولكنك تعرف من يملكك ،
أنت لا تعرف من يسهر ليله ويشقى نهاره في التسبيح بحمدك ،
والثناء على لألائك . ولكنك تعرف من يملأ جيبك ثم يسوقك
في مدارج الذلة بلا رحمة ولا إشفاق

أنت لا تعرف من ينسج في سديك روائع القصائد والرسائل
ولكنك تخضع في ضراعة لمن يحوِّك لك مبهرج الأثواب ، فامض
في هوان أيها الجمال اللئيم إلى حيث يشاء اللئام من أرباب المال
أنت لئيم أيها الجمال ، ونحن مع ذلك نعبدك في لوأمك ، وكم
على ظهر الأرض من لئيم معبود !

أيكون معنى هذا أننا نعبد اللؤم طائعين ؟

هيهات نحن نعرف أن الحياة قست عليك ، ونعرف أن
المال صير الأردال آلهة يعبدون ، ومن أجل هذا نرحمك ، ونرتى
لك ، لأن من حَقَّ أن تعيش ، وعواطف الشعراء لن تعود عليك
بنفع جزيل ولا ضئيل

وهؤلاء الفرنسيون الذين عرقوا برقة الطبع معذورون حين
يرون الجمال سلعة تباع في الأسواق لأن الحياة قست عليهم كما
قست علينا وعليك ، فليغفر الله للجميع !

عدت إلى المنزل الذي أقيم فيه بعد شهود موكب الملاح ،
وكان هي أن أسأل معبودتي هناك كيف تخلفت عن ذلك الموكب
المشهود ، ولكنني رأيت في المنزل عجوزا فانية لم أرها قبل
ذلك ، فما كدت أفتتح الحديث عن الحسن حتى ابتدرتني قائلة:
أين أنت يا بني من حقائق الحياة ؟ أتحسب باريس هي كل ماشهدت
ورأيت في الجران بولفار ؟ إن في باريس عالماً آخر : هو عالم الجد
أو عالم الحزن إن شئت ، فليس في باريس غير قسوة الجد
ومرارة الأحران

صدمتني تلك العجوز بهذه الكلمات ، غير أنني تجللت واقبلت
على معبودتي أداعبها في نرق وطيش ، فعادت العجوز تقول :
دع هذا يا بني ، واستمع الى حديثي فقد عركت الزمان ،
وعرفت ماستعرف من احوال الوجود . ان الحسن الذي تتغنى به
باب من ابواب الشر ، وانه ليجنى على اهله قبل ان يجنى على الناس
واؤلئك الفتيات اللاتي سحرن لبك في موكب اليوم ستكون لهن
هموم واشجان (وعما قليل ليصبحن نادمين) فلا تحسب ان الدنيا

ستبقى على تلك البسمات ، أو سترحم سحر تلك العيون . إنها أيام
ثم تصبح كل جميلة سيدة مسئولة ، بين طفل يتدلل ، وزوج يتحكم ،
ودهر يطغى ويجور !

ثم زلقتى تلك العجوز ببصرها وقالت : أمتزوج أنت ؟
فأجبت : لا ، يا سيدتى !

وهنا انبرت تلك الصغيرة الفتاة وقالت : اخذع سوانا يا ماسيو
مبارك ! لقد سألت عنك مواطنيك فأخبروني أنك متأهل وأن
عندك خمسة أطفال ! فلا تقل إني خطيبتك بعد اليوم
فتراجعت وقلت : إنها دسيسة يا معبودتى ، وما أشنع ما يكيد

المواطنون بعضهم لبعض حتى فى بلاد الغرب !
ثم صعدت إلى غرقى وقد اقتنعت أننى فى باريس أشد جنونا
من أهل باريس . فليرحم الله ذلك العاقل المجنون

٢٣ أبريل سنة ١٩٣١

قلب المرأة

في أكثر الشوارع في باريس توجد مقاعد عمومية يجلس عليها السائرون إذا أجهدهم المشى واحتاجوا إلى الراحة بضع لحظات. لهذا الغرض وضعت تلك المقاعد ، ولكنها تستعمل في بعض الأحيان لأغراض ثانوية ، فمن العشاق من يستفيد من تلك المقاعد إذا جن الليل وأسدت عليها ظلال الأشجار . ومن الفقراء من لا مأوى له فيتخذ منها مأواه ويظل جالسا عليها بين النوم واليقظة حتى مطلع الفجر ، وليس له أن يرقد وإلا طرده البوليس . وقليل ما تكون تلك المقاعد موعداً للصديقين يفضلان أن لا يكونا ملتقاهما في قهوة تكلفهما بضعة فرنكات على شرط أن يكون ذاك الصديقان من الجراة وفهم حقائق الواقع بحيث لا يهتمهما الاتهام بالفقر والافلاس . فقد رأيت من الأساتذة المحترمين من ينتظرون زملاءهم على تلك المقاعد في حين أنه يندر أن يوجد من الطلبة والشبان من ينتظرون رفيقا له هناك ولهذا المقاعد مظهر آخر من الساعة السادسة إلى الثامنة مساء ، فعندها يلتقي العمال الذين امتد بهم الزمن وطالت عليهم الحياة ، ومع كل عامل كيس كبير فيه الخبز والجبن ، وفيه كذلك كأس

وسكين وشوكة . وبجانبه قارورة كبيرة فيها لتر من النبيذ الأحمر ،
ثم يجلسون فرادى وجماعات وقد طالت لحاحم ، واغبرت شعورهم ،
وعليهم خرق بالية قدرة قد تكون كل ما يملكون لدفع غوائل
البرد الشديد

وما هي إلا لحظة يفتح العامل فيها كيسه ، ويكسر خبزه ،
ويملاً كأسه ، حتى تدور به الأرض ، وينقله الشراب إلى عالم
الأحلام . إذ ذاك تراه يسمر مع رفاقه في لطف ودعة وانسراح ،
كأنه رئيس الجمهورية ، أو كأنه لم يقض يومه في حفر الأنفاق ،
ونقل التربة ، وحمل الأحجار .. ولبعض هؤلاء العمال خيليات
مساكين صح فيهن قول الشاعر

لكل ساقطة في الحى لاقطةٌ وكل بائرة يوماً لها سوقٌ

فتراهم أحياناً وقد جاس الرجل الاشمط الى خيلته الشمطاء
يبادلها أطيب الأحاديث ولكن للهرم والشيخوخة حكم قاهر في
مثل هذه الظروف ، فقد يندر أن يجري الضم والعناق بين العشاق
الكهول مهما بعثهم الراح ، وهي تبعث الأموات . وكثيراً ما ترى
رجلاً وامرأة يتطارحان الشعر ويتحدثان عن كورنى وراسين
وموليير ، فتحكم بأنه كان لهما شأن في العالم المذهب ، ثم طاحت بهما
الأيام .

وما أنس لا أنس عجوزاً فانية جلست الى رفيقها على مقعد

في ميدان (نوتردام) جلست قريبا منهما أسترق السمع وأختلس
بعض أطايب الحديث ، فامحت المرأة مكاني وأقبلت تسأل :
أنت اسباني يامسيو ؟ فقلت : لم تبعدى يامدام ، فقد كان لي في
اسبانيا أجداد ، وأنا اليوم مصري . فاندفعت تتكلم بحماسة ولباقة
عن الفراعنة وتاريخ قدماء المصريين ، ثم سألتني عما أحفظ من
الشعر الفرنسي فاجبتها بأنني حفظت كثيراً ولكني لا أستطيع في
اللحظة الحاضرة أن أنشدها إلا مقطوعات قليلة ، وكذلك كنت
أنشد البيت الاول من القصيدة وأقف فتمها هي بلا تحبش ولا
توقف كأنها تغرف من بحر . ولكن المسكينة كانت تخلط ذلك
بخطرات من الجنون حملتني على الانصراف قبل منتصف الليل ،
وكانت مستعدة الى المضي في الانشاد حتى الصباح !

وفي مساء الامس بجانب السين وبالقرب من قنطرة سانت
جنيفيف رأيت الناس مجتمعين حول مقعد من تلك المقاعد ،
فنظرت فإذا امرأة تناهز الخمسين لا يزال شعرها أصفر وفيه بريق ،
وإن سقطت أسنانها جميعاً وظلت أشداقها خالية كثيرة التلايف .
وهي واقفة يهاجمها الناس وتهاجمهم ، ولكنها تخلط جداً بهزل ،
وتنتقل في حوارها من فن إلى فن . وكلما فرغت من شوط من
أشواط لجأها مدت بصرها وعنقها وهي تقول : لقد دفعت ثمن

ما شربت . فماذا تريدون ! عجيباً لكم ، لقد دفعت ثمن ما شربت ، أنا
أنا ، من دون أن أحتاج إلى مساعد ولا معين . فذكرتني بذلك
المتحذلق الذي كان يقول وهو من غروره في مثل سكرها : مالكم
تكا كاتم على كئا كئا كئكم على ذى جنة ، افرقعوا . أو كما قال !
وفي لجة تلك الفورة كانت تتقدم المسكينة الى بعض الشبان
فتناوشهم في شيء من اللطف ، فمنهم من كان يثبت ومنهم من كان
يفرّ ، وفي النهاية صمد لها شاب يقارب الثلاثين وأخذ يلاعبها في
جدّ يشوبه هزل ، ومضت الملاحاة بضع دقائق والناس ينظرون
لاهين ضاحكين ، والمرأة تهزم حيناً وتنتصر حيناً ، وبين الهزيمة
والانتصار تستسلم الى أحلامها وهو أجسها فتتغنى وتمايل وهي
تدمدم : لقد دفعت ثمن ما شربت فماذا تريدون ؟

وأعجب ما في الأمر أن تلك المرأة كانت تتجنى على ذلك الشاب
فتذكر أنه من بلد منحط وضع وتصارحه بأنه من الجزائر . فكان
الفتى يشور ويقول : إن بلادي أقدم حضارة ومدنية من بلادكم ونحن
خير منكم . وكان ذلك يجري ونحن نظن أن الأمر مزاح في مزاح
وماهى إلا لحظات حتى اشتد اللجاج . وكانت المرأة تقول : أنا أرى
الجزائر في وجهك . أنا أرى الجزائر في وجهك ! ثم غلبت على
أمرها وفاضت عيونها بالدمع السخين

وفي سورة تلك المعركة تقدمت سيدتان محتشمتان كل

الاحتشام حتى لتحسبهما من عقائل القاهرة ، وليس على وجههما
 أى أثر من آثار التلوين والتزيين ، إن كان بقى فى باريس امرأة لم
 تعرف تلوين الجباه والشفاه والحدود ، فنظرت فاذا تانك السيدتان
 تخطوان خطوات حذرة هيوب نحو تلك المرأة التى بدد رشدها
 الشراب وهما يقولان : هلمّ الينا يامدام ، أين منزلك يامدام ، يامدام
 أين تسكنين ؟ فى أى شارع ومن أى حى ؟ حديثنا ، أجيبي ، نحن
 معك حتى تصلى هادئة مطمئنة . . . كل هذا والمسكينة لا تغيرهما
 التفاتة واحدة لشغلها الشاغل بتلك الحرب الشعواء . وفى النهاية تغلبت
 السيدتان وانتزعتا المرأة من أنياب اللجاج والخصام ، ومضتا بها
 إلى حيث تقيم . . . فعدت أتأمل كيف يتكون قلب المرأة وكيف
 تحنو على بنات جنسها فى ساعات البأساء والضراء ، وذكرت أن
 باريس مهما استسلمت واستسلم أهلها إلى الترف والفساد ستظل
 تحفظ فى أعماقها بقايا الرفق والعطف والحنان ، وأن العواطف
 الانسانية ستبقى سليمة فى صميمها مهما طغت عليها المظاهر وأخفاها
 لتمدن المصنوع .

وذكرت تلك القصة القديمة التى تحدثنا أن ملكا زعم أنه
 يستطيع أن يحول الخصال والطباع من حال إلى حال بالتربية
 والتعليم ، وإن وزيره كان يخالفه فى ذلك الرأى ، ويحكم بأن الطبيعة
 هى الطبيعة لا تتحول ولا تتغير مهما لوّنتها ظروف الزمان والمكان

وكان من ذلك أن عُني الملك بتربية القط الذي كان يداعبه تربية خاصة حتى كان القط يحمل الشمعة ويقف بين يدي سيده وهو خاشع مطيع ، واستقدم الملك الوزير ليريه أن التربية والتعليم يغيران الطباع ، ولكن الوزير كان أدهى وأمكر حيث وضع في جيبه فأراً صغيراً ، فلما كانت المحاورة بينه وبين الملك بشأن القط الذي يحمل الشمعة ألقى الوزير الفأر على البساط ، فرمى القط الشمعة وانطلق يعدو خائف عدوه الذي أعدته له الطبيعة !

مضت السيدتان بالمرأة إلى حيث تقيم ، إن كان لثلاثها منزل تأوى إليه ، ولكن الحادث تفرعت عنه مشكلة : ذلك بأن الشاب الذي كان يلاحى المرأة عربى من الجزائر ، والمشاهدون للنزاع أكثرهم عمال فرنسيون ، والعربى الجزائرى فى زعم هؤلاء منحط وضع ، فكيف يتسنى له أن يلاحى امرأة أثقلها السكر وفارقها الوقار ؟ وكذلك برز له اثنان يناوشانه بقارص الكلام ، وهو يلاحيهما ملاحاة الأكفاء ويهاجمهما بمثل ما يهاجمانه : ذم بدم ، وسباب بسباب . لكن هؤلاء جماعة وهذا واحد فرد ، وهم فى بلادهم وهو غريب ! فوقف أنتظر ما سيكون على أقف فى صف ذلك العربى المغترب إن جد الجد واحتدم القتال . وما هى إلا دقائق حتى فاض الشر فتقدم الفتى إلى خصومه وفى عينيه نار تتقد وقال لهم : إن كنتم تريدون الحرب فانا عند ما تريدون

وفوق ماتظنون، وان كانت عزائمكم لا تتخطى السباب والفحش
والاقتداء فأنا أنصح لكم بالاعتصام فان هذا سلاح النساء
والضعفاء

كنت أظن عند هذا أن ستقع الحرب بالفعل، ولكني
لمحت المال الفرنسيين تراجعوا وتقهقروا وقال قائلهم: نحن
نلومك على أن تتعرض لامرأة في سن الخمسين، هذا ينافي الذوق،
هذه وقاحة، شاب مثلك لا يحسن به أن يهاجم امرأة في مثل تلك
السن. أما الحرب فأنت تعرف اننا لا نجبن عنها. ولكن...
ولكن...

وكذلك وقفت المشكلة عند هذا الحد وانصرف الفتى الجزائري
وهو يقول: لعنة الله على الجبناء!

وبهذه المناسبة لا يفوتني أن أذكر للقارئ أن العمال التونسيين
والجزائريين والمراكشيين لهم في باريس تفوذ رهيب، ولهم في
كل حي عصابات تشبه عصابات الصعايدة في الاسكندرية،
أفأستطيع أن أقول بأن هذا النوع من التشرد الخفيف يشبه أن
يكون عدواناً بعدوان واحتلالاً باحتلال؟

معرض الازهار في باريس

تفضل المسيو بلانشو فارسل الى دعوة الى حضور معرض
الازهار في الشانزايزيه على شاطئ السين ، وكتب مع تذكرة
الدعوة كلمة رقيقة جاء فيها : « ولكن أسرع يا صديقي فان الازهار
سريعة الذبول » ؟ .

أى كلمة هذه ؟ وأى قوة سحرية ثار بها قلبي حين قرأت هذه
الكلمة ؟ لقد كنت أعرف كما يعرف سائر الناس أن الازهار
سريعة الذبول ، وكنت أعرف فوق ذلك أن هذا معنى قديم لم
ينفرد بآثاره كتاب الغرب وشعراؤه ، فقد أثاره أحد شعرائنا
الأقدمين حين قال :

عهدتك ذا عهد هو الورد نضرةً وما هو مثل الورد في قصر العهد
ولكني تلفت إلى قلبي أبحت عما كان ثار فيه من أمان وآمال
كانت أندى وأعطر من الازهار الغضة في أسجار الربيع ، ثم
ذبلت وذوت قبل أن تعمر أعمار الازهار . فكم من وعد جذاب
اخلف قبل أن يمضى عليه يوم أو بعض يوم ! وكم من لقاء حلوة
حسبتها مشرق وصال فكانت مغرب وداع ! وكم برق من بروق
الحب تألق ثم غاب ! وكم حلم من أحلام الصبا بددت غفواته

صروف الحياة ! وكم لحظة من لحظات العتاب شهدها القمر وغاب
عنها الرقيب ، ثم عصفت بها الدهر فأدرجها في أكفان الفناء ! وكم
غفلة من غفلات العيش أويت إلى ظلالها في طمأنينة الطفل ثم
ثارت من حولها العواصف فألقتني في وادي الخطوب !

ويحك يا قلبي ! تعال أقاسمك العزاء . فقد كنت نعم الصاحب
ونعم الرفيق ، وإنك لتذكر كيف كنت أحنو عليك فأطوف بك
بين سعي الحب ونعيم الجمال ، وتذكر كيف بكيتك يوم قلّ خفوقك .
وخفّ وجيبك ، وإنك لأهل لذلك ، فقد عرفت بك معاني الحب
والعطف والشوق والحنين ، فلا أقف بجانبك أشاطرك ما جنت
عليك الملاحاة من ألوان العناء

« أسرع يا صديقي فان الأزهار سريعة الذبول »

اني لأعود إلى هذه الكلمة فأذكر أن لي في دنياي معارض
من الأزهار تختلف عن معرض الشانزليزيه على شاطئ السين : فان
هذا المعرض يقع في أسبوع من بعض الفصول ثم يمضي وله في
نفوس مشاهديه ذكرى طيبة ، ولكنها سريعة الزوال ، فقد تطغى
عليها حفلة راقصة من حفلات المساء ، والأزهار على جمالها لا يعرف
الناس مالها من الأنفس والأرواح ، فهم يشهدون ذبولها في حشرات
خفيفة لا يمكن أن تقارن بحشرات من يشهدون أنات العليل . والأزهار
أضعف من أن تهتم بقبيلات النسيم ، وضمت التوديع ، وهي بعد

ذلك حُسنٌ مكرر تجود به الطبيعة ويسمح بلقائه الزمان .
 أما معارض الأزهار التي يسوقها إلينا الحب ، وينظم أحواضها
 وعيونها في أودية الذكريات فهي فُرَص تعرض في جميع الفصول ،
 ومن عجب أنها تكثر في فصل الشتاء . وهي معارض تثير جوى
 القلب لأنها في الأغلب تقيم دقائق أو لحظات ثم تغيب فلن يقال
 فيها « يقام معرض الأزهار من ٢٦ أكتوبر إلى ٣ نوفمبر » حيث
 تمكن المشاهدة مرة وثانية وثالثة ، كلا فقد تكون لحظة مخطوفة في
 المترو ، أو في المسرح أو في الملعب ، ثم لا يمكن بعد ذلك قرب أو لقاء
 ولهذه الأزهار الحسن والصباحة أنفس وأرواح ،
 فهي إلى نفوسنا أقرب ، وإلى أرواحنا أسرع ، وقد تتلاقى النظرتان
 فيكون فيهما من التناجي والتشاكى والتعاطف معان دقيقة
 تلقيها العيون وتفهمها القلوب ، ثم يفرق المتلاقيان وقد نهلت
 قلوبهم من نير الحب في حال لم يقع فيها تعارف ولا يُرجى معاد ،
 إلا أن يقدر التلاقي في عالم الأرواح

وأنت في معرض الأزهار قد تشتري لوحة فنية تذكر بها
 ما يفوت من أريج الزهر النضير ، ولكنك في معارض الجمال
 لا تملك شيئاً من ذلك ، أو لا تملك إلا الحسرات الباقية في حنايا
 الأحشاء . . وفي معرض الأزهار قد تقول : إلى اللقاء ! لأن كل
 وردة وكل بنفسجة ، وكل قرنفة تلهي النفس عن نظيراتها في عالم

الأزهار ، ولكنك في معارض الجمال لا تقول : إلى اللقاء ! لأن
 النفس التي ألقت دراسة الجمال تعرف أن كل وحدة من وحداته لا تغنى
 عن نظيراتها في عالم الجمال : فلكل عينٍ سحر ولكل ثغر فتون
 ومهما تعشق الناس الزهر فلن يأرق لهم من أجله جفن ،
 ولن يقض لهم مضجع ، لأنه إن مات فسيبعث من جديد ، أما
 الجمال فلم مشرد يذهب فلا يعود . ولقد أعذر من قال
 قالوا عشقت فقلت كم من فتنة لم تغن فيها حكمة الحكماء
 إن الذى خلق الملاحه لم يشأ إلا شقائى فى الهوى وبلائى (١)

معذرة إليك أيها القارئ : فقد شغلتك بنفسى وإني لعائد
 إلى موضوع الحديث

أول ما يلفت النظر في معرض الأزهار أنه أقيم في اللحظة
 التي يفصل فيها بين الخريف والشتاء . فكأنه تذكرة لما مر من
 أيام الصحو ، وتوديع أيام الشعر والخيال . وكأن الذين أقاموه
 أرادوا أن يحشروا في صعيد واحد ما تفرق من بقايا الزهر
 ليستطيع شعراء الطبيعة وعشاقها أن يصافخوا للمرة الأخيرة من
 هذا العام على شاطئ السين

وهو كذلك دلالة على مهارة الجنان الفرنسي ، فهو يعرف
 كيف يغرس الأزهار وكيف يعدها لمواجهة الزائر في يوم

معلوم . وغرسُ الحدائق وتنسيق البساتين فن من الفنون العالية
التي يشغل بها أصحاب الأذواق في الغرب . وحسب القارىء أن
يعرف أنه كان في هذا المعرض مئات من الكتب القيمة في
تربية النحل والطيور والأزهار والأشجار ، وليس من الحرج في
شيء أن أقول إن ما ألفه الفرنسيون في هذا الباب يربى بكثير
على ما ألفته أى أمة من أمم الشرق الأدنى في أهم ما يعينها من
الآداب في نحو قرن من الزمان . وليسمح لى أن أقول إن كلية
الطب المصرية لم تنتج في نيف ومائة عام عشر ما أنتجه البستانيون
الفرنسيون في نحو عشرة أعوام

ولست بهذا أريد الغرض من الجهود المصرية ، ولكننى
أريد أن أوقف من طال عليهم السُّبُتات ، فقد أصبح من العار أن
نعلل أنفسنا بأننا أمة صغيرة العدد وأنه يكتفى منا بالقليل . هذا
خطأ فان الجمهور المصرى كاد يقارب نصف الجمهور الفرنسى .
على أن الأمم لا يقاس جهدها بالعدد . ولكنه يقاس بالحذر
والحرص واليقظة والطمع في امتلاك نواصى المجد . ونحن نملك
أخصب الأراضى في العالم ، ولكننا حين نقيم معرضا للأزهار
يكفيننا بهو من أبهاء فندق سميراميس ، على أن فينا مع الأسف
الشديد زهادة تامة في استغلال الأرض ، ولا نكاد نعرف من
أنواع الفواكه والأزهار والبقول غير أنواع معدودات ، ولا

يهوى الى مدرسة الزراعة إلا الطلبة الذين عُرفوا بالتخلف في الحياة المدرسية، مع استثناء من أعرف من الشبان الأذكياء، وفي هذا دليل على أننا نُقبل على الطبيعة بقلوب تُعوزها الحرارة وسواها ينقصها النشاط. والشعر العالى الذى يوجد في عوالم الزراعة بعيد من أذهاننا، فقليل من طلبة الزراعة في مصر من يدرك أن ليلة مقمرة في سهول الريف أحفل بالشعر والموسيقى والغناء من ليلة صاخبة في ملاهى القاهرة. وما أريد أن أزيد!

يرى الزائر أول ما يرى في ذلك المعرض أودية مهندمة من الأشجار المثمرة ولكل طائفة منها وضع خاص يروع الذوق وهى تريك مبلغ مهارة الانسان في تهذيب الطبيعة، وكيف يمكنه أن يروض الأشجار على مسامرة الأوضاع الهندسية بحيث يصبح الشجر مخدع زينة ومجنى فاكهة. والقوم هنا يريدون أن يملؤوا الصور المادية بالحقائق المعنوية، ففي كل شجرة سرٌّ، ولكل حوض روح.

وقد صُفّت الفواكه من كل نوع على جانبي كل ممر من ممرات المعرض بطريقة مغرية فاتنة تقنعك بأن من الضعة أن يعيش الانسان على الخبز والماء، على حين أنه لو جدَّ ونشط لعرف كيف يحيا من فضل ما تنتج الحدائق والاعناب.

وفي كل ركن من أركان المعرض تقوم مدارس صغيرة تعلمك

كيف تصنع بنفسك مربيّات الفواكه ، وكيف تربي النحل والطيور
 وكيف تقي الزهر آفات الجو ، وكيف تحرث الارض بمحاريث
 دقيقة ، وكيف تبجني ، وكيف تحصد ، وكيف تنقل الماء إلى
 المشاتل والاحواض

وكم تمنيت لو أتيح لي أن أرى كيف صُفّت أزهار المعرض، فإنها
 وضعت بحيث يظن الرائي أنها هكذا خلقت ، وأنه لم يقم بتنسيقها
 إنسان ، فحينما تلفت فسهول مبسوطة قام فيها البنفسج والقرنفل
 والشقيق ، أو نجود عالية تسامت اليها الأزهار فكستها في
 رفق وحنان

وما أنس لا أنس كيف لاحظت أن الحظوظ تصيب الأزهار
 كما تصيب الرجال ، فمن الأزهار ما كان حظه ان لا لمس الارض
 فوجد بذلك سبيلا إلى النضرة والتماء ، ومنها ما كان حظه أن يوجد
 في تربة صناعية مجتلمبة فكان يجاهد في مطاردة الذبول .

كان معرض الأزهار شعراً كله ، وما كان ينقصه إلا الندى
 فقد وضعت من فوقه سقيفة من الزجاج حالت بينه وبين أنداء
 السماء: فصار بذلك كالعروس بين الستائر والحجّال

ولقد رأيت أن أتأمل ما يصنع المشاهدون في مثل هذا الجو
 العطر ، ورأيت الرجال يكثرون فخص الاشجار المثمرة ويجمعون

ما تنثر حولها من الاعلانات ، ويوغلون في الأبراج المشيدة لتربية
النحل والطير ، ويقبلون على الكتب التي وضعت في أروقة المعرض .
أما النساء فكن يجتمعن حول الفواكه في حماسة دونها حماسة الفتيان
في تعقب أسراب الفتيات ، وكن يكثرن فحص الزهريات وأدوات
صنع المربى . ومنهن من كانت تقبل على مشاهدة ما كان هناك من
صغار التماثيل

وقد رأيت ثلاثة رجال يدرسون المعرض بعناية فسألتهم
السماح بمصاحبتى لهم لأرى كيف يدرسون وكيف يفهمون ، فانا
رجل فلاح ولى حديقة مثمرة ، ولكن الجنان المتواضع الذى أقمته
فيها يستفيد من غربتى فيقيم المواشى فى جانب ويبذر البرسيم فى
جانب ! وكذلك يكون الفلاح ابن الفلاح

ولكننى لم أستطع الصبر أكثر من ساعة . ثم انصرفت عنهم
بعد التحية والثناء ، وعدت أتأمل وحدى خمائل الأزهار . وبعد
لحظة عدت على نفسى باللائمة . ولكنى اقتنعت بأن الآثار الأدبية
والفنية والطبيعية لا تعطى سرها إلا للرجل المنفرد ، وهى أشبه
بالغواى تنفر من صاحب والشريك

وقد أعيانى التعب من فرط التأمل ، فاكثفت فى النهاية بنظرة
باكية ودعت بها الزهر المهدد بأرواح الشتاء ، وخرجت أتأمل
المعارض الحية فى أحياء الشانزليزيه بقلب مقسم محزون

وإني لأكتب هذه الرسالة في نفس اللحظة التي تقوِّض
 فيها خنائل المعرض ، وأكاد أشهد من وراء حجاب كيف يُقبل
 العمال بسواعد قوية فيجمعون الأزهار أ كداساً أ كداساً بالارحمة
 ولا حنان إلى حيث تلقى ذابلة في تيار السين
 فإليك يا مرتع النواظر بالأمس أقدم التحية ، تحية شاعر
 مغترب ، مفطور القلب لمصرع الزهر النضير ، ولو ملكت في
 تكريمك غير هذه السطور لقدمت نفسي فدية خالصة في عالم
 قل فيه من يفدى الجمال

باريس في أول نوفمبر سنة ١٩٣٠

من غربة الى غربة

بين القاهرة وباريس

صديقي فؤاد

كتبت إلىّ تقول : « في مصر فراغٌ لغيابك . وفي قلوبنا شوقٌ لحديثك » فهل لك أن تيرني قلبك لحظة واحدة لأحدثك عما فعل في نفسي خطابك الجميل ؟

إنك لتذكر كيف كنت أعيش في مصر، وتذكر كيف كانت تمضي الأيام والشهور ولا تُتاح فرصة صغيرة أتحدث فيها إلى صديق أو أذهب إلى حفلة ساهرة، أو أشهد منظرًا من مناظر اللهو والطبيعة على ضفاف النيل. وأصدقائي الذين يرسلونني في باريس هم أنفسهم الذين كنت أرسلهم في القاهرة على قرب المزار، يوم كانت أعمالي لا تسمح بملاقة من في طريقى منهم بالقاهرة أو من يجاورني في مصر الجديدة، ويوم اطرّدت الشواغل اطرادًا مزعجًا لا يترك فراغًا في صباح ولا هدوءًا في مساء .

ولكن هل من الحق أن ضرورات العمل والجدهى وحدها التي كانت تجبسنى في قفص من حديد ؟

ما أظن ذلك ؛ فقد كانت هناك ساعات مختلصة أقضيها على

الشواطىء ، وفي الحداثق ، وكانت هناك لحظات يومية أقضيها في
المترو صباحا ومساء ، وكان في هذه وتلك ما يكفي لمتعة النفس ،
وطمأنينة القلب ، وراحة الروح . فهل أجدى ذلك على شيئا ؟
وهل غير من قلقى واضطرابى ؟ وهل نقل نفسى إلى قرار
أوسكون ؟

الحق أن المشكاة الباقية الخالدة هي أزمة القلب . فاني لا أعرف
أشقى من ذلك الصاحب الذى يسكن بين الضلوع ، إنه صاحب
ولكنه في الوقت نفسه عدو وحبيب ، قد سعدت به وشقيت ،
ومتّ وحيت ، وأنا به بين حزن دائم وفرح مخطوف . ولا
أستطيع أن أصف لك كدر الساعات التى كنت أقضيها على شاطىء
النيل في هدآت المساء ، ولا تستطيع أن تقدر كيف كان انقباضى
وضجرى من مناظر الرائحين والرائحات ، والغادين والغاديات ،
على ذلك الشاطىء الخالد الذى شهد ما شهد من وثبات النفوس
وخفقات القلوب في مدى ما لا يعلم إلا الله من طوال الأجيال
فهل يمكنك أن تقدر أن ذلك كان مرجعه إلى خذلان في
الحب أو إخفاق في المجد ؟

أنا لا أحسب ذلك : فاني رويت من الحب رياء لا ظمأ بعده ،
ولم أترك لغيرى غير أو شال ، وكما أرسلت الخاطر لأشهد ما كان
من غفلات الصبا وغوايات الشباب عدت وأناقرير العين ، جذلان
الفؤاد

والمجد؟ أنا لم أخفق في سبيل المجد يوماً من الأيام حتى أقول
مع الطغرائي .

ما كنت أحسب أن يمتدّ بي زمني حتى أرى دولة الأوغاد والسفل
تقدمتني أناس كأن شوطهم وراء خطوي لو أمشي على مهل
وأوضح من ذلك أني أخطو في سبيل العلم والأدب خطوات
هادئة طبيعية ، لم يلهبها حقد ، ولم تشعلها منافسة ، ولم يجر في
خاطري يوماً أن أسرع الخطأ لأسبق هذا أو أخلق ذاك . وما
شعرت — يشهد الله — بالحق على متقدم أو الشماتة بمتخلف
وقد تدهش إن حدثت أنك أني أنظر إلى الشهرة وبعد الصيت
بعين يسودها الحياء منذ جئت إلى أوروبا في سنة ١٩٢٧ فوجدت
الدكتور سنوك قد نشر عني رسالة باللغة الهولندية ولقيني المسيو
ماسينيون فهأنى وأخبرني أن الدكتور سنوك قلما يفعل ذلك ،
فوقفت أختبر نفسي وأمتحنها لأعرف إلى أي حد وصل بي
الارتياح ، ثم لم أجد إلا فراغا مطلقاً . وفي كثير من الأحيان يلقي
أفراد من الأجانب الذين يهتمون باللغة العربية فينشدونني شعري
فأقف أتأمل أثر ذلك في نفسي ثم لا أجد أيضاً إلا فراغا مطلقاً .
وقد اقتنعت بأن الصيت والشهرة لا يعدوان أن يكونا من الخرافات
فإنه لا أثر لهما في نفسي وأناحي ، فكيف أهتم بما يكون لهما
من الأثر بعد الممات !

أضف إلى ذلك أنى مقتنع بأنه لا يشق نفسه فى سبيل الشهرة
والصيت غير صغار الناس ، فهناك أفراد لا يتقدمون ولا يتأخرون
إلا حيث ينتظرون الجزاء . وكم شهدت من أناس يقتتلون حول
الشهرة ، وإن الرجل منهم ليصفر وجهه وتأخذه الرعدة والقشعريرة
حين تقع عينه على كلمة هوجم بها أولوم وجهه إليه . وكم رأينا من
أذلاء لم يذلهم غير حاجتهم إلى ثناء الناس ، وكم رأينا من أذعياء
فى عالم الشعر والكتابة والتأليف يستجدون الصحفيين استجداء
ليقال هذا مؤلف بارع ، وذاك كاتب مجيد ، وذلك شاعر بليغ !
وأنت تعرف أنى نشرت طائفة من المؤلفات ، وتعلم أن الصحف
لم تعرها ما تستحق من نقد أو تشجيع : فلتعرف إذن أنى كنت
أهدى مؤلفاتى إلى محررى الجرائد فكانوا يقولون فى لطف :
اصنع معروفًا واكتب لنا كلمة فى تقريرك كتابك لننشرها فى أقرب
فرصة ، فكنت أبتسم ثم أنصرف ولا أعود . ومنذ ذلك اليوم
أنظر إلى تقرير الكتب نظر السخرية : إذ أعرف أن أكثر
التقارير من وضع المؤلفين

أنا قليل الرغبة فى سماع الثناء وقليل الاهتمام بما يوجه إلى من
نقد ، وإنى لأعرف أن هناك ناسًا ينبجوني كلما ذكرت عندهم أو
جريت فى خواطرهم كما تنبج الكلاب القمر حين ترى خياله على
صفحات الماء . وفى يقينى أن الرجل كل الرجل هو الذى يهتدى
بوحى ضميره غير مأخوذ بلوم أو ثناء

فما عسى أن تكون تلك الوحشة القاتلة التي لا تفتأ تغزو قلبي
وتفتك بأحشائي؟ وما مصدر تلك الأشجان التي لا أتذكرها
إلا فزعت يوم كان المترو يشارف محطة الحمامات ثم يغادرها إلى
كوبرى الليمون، وأروع ما كنت أقاسي في تلك المنطقة كان يقع
في الاحظات الدامية لحظات الغروب حين تواجهني الشمس بتسليمة
التوديع، والشفق من حولها يشبه الحدود الداميات، إنها لحظات
مفرعة مخيفة كان قلبي يجتازها في وجيب وخفوق، وكنت فيها
أشعر الناس إن كانت حقيقة الشعر أنه وجد وإحساس لا قوافٍ
وأوزان.

ولست تلك الاحظات على قسوتها بأقلّ خطراً من الساعات
التي أقضيها بعد العشاء على شواطئ السين في هذه الأعوام، وإني
لأشعر أن هذا النهر يدرك ما بيني وبينه من علائق وصلات: فأنا
في باريس غريب، وهو فيها كذلك غريب، فقد يندر أن يرى هذا
النهر ساهراً غيري يمشى وحده في سكون الليل من قنطرة إلى قنطرة
ومن شاطئ إلى شاطئ كأنه موكل بمراقبة السفن وعدّ الأمواج!
وما أحسب نهر السين رأى قبلي من يتلمس روحه وأسراره
فيصغى إلى خريره في قنطرة أوسترليتز ثم يسافر لسمع هديره
في روان. على أنني لم ألق منه شيئاً من الجزاء: فقد كنت ولا أزال
أسايره بنفسي حيرى وقلب محزون

ماهى إذن أسرار الغربة التى أعانها فى القاهرة وأقلسيها فى
باريس؟ انها لا ترجع إلى خذلانٍ فى حب ولا إخفاق فى مجد،
أتظنها ترجع إلى غدر الأصدقاء؟
اللهم غفرًا، فأنا لا أحفظ عن أصدقائى غير الجميل . ويضاف
إلى ذلك أننى لم أقدر فى حياتى أن الصداقة مما يوضع فى موازين
المنافع، إنما الصداقة علاقة روحية تُبنى على أساس الصدق والاخلاص
ونسيان النفس، ولم يقع ما يكدر صفوى غير أحداث صغيرة مرت
بالقلب ومضت كما تمضى آثار النسيم على وجه المحيط، وكان مبعث
الأسى أننى كنت دائماً أفترض أصدقائى من الملهمين الذين يعلمون
ما كان وما سيكون من أسرار النفوس، ثم كنت أتلفت فجأة فأجدهم
كسائر الناس يستمعون للغو ويصدقون الأراجيف. هنالك كنت
فأحزن وآسى، ولكن حزنى ما كان يقع لآنى علقت بأصدقائى أملا
ضائع، إنما كان حزنى وأسأى لشعورى بالغربة فى عالم الأرواح،
فأنا رجل أفهم أن الصديق ينبغى على الأقل أن يُوفّر عليه أتعاب
المحاماة فى الدفاع عن نفسه لدى الأصدقاء، وأفهم أن الصديق
لا ينتظر منه فقط أن يتغاضى عن هفوات صديقه، إن كان له هفوات،
بل يجب أن تعمى عينه وتضمّ أذنه ان وجد ما يوجب تعقب
الأصدقاء المختارين

وأشد ما يزعجنى أننى مريض بالوفاء، وأرى من النذالة والخسة
وحقارة النفس أن تكون الصداقات كالأثواب تغير تبعاً للأيام

والفصول؛ ويتخذ بعضها للأفراح وبعضها للأحزان، وأربأ بنفسى
أن يقال: هذا صديقٌ غدرٌ وصاحبٌ خان !

ويعز على أن يحرم صديقي من مناصرتي ووفائي ، ولكن
كيف وأنا رجل لا عمّ لي في الحكومة ولا خال ؟ ألا فلتعلم أنني
أعتقد أن البر لا يوجد إلا حيث أوجد ، وأن الصداقة لا تكون
إلا حيث أكون .

وأعتقد فوق ذلك أن الصداقة الصحيحة هي النعمة الباقية ،
والعز المقيم ، من أجل ذلك يعز على أن يحرم صديق من وفائي
وإن تغير وحال . ولم حملني الواشون على مهاجمة بعض الناس ، ثم
عزّ على أن أكون أقلّ رفقاّ وعطفاً من كثير بن عبد الرحمن
إذ يقول :

وما أنا بالداعى لعزة بالجوَى ولا شامتٌ إن نعلُ عِزّة زلت
فلا يحسب الواشون أن صبايتي بعزة كانت غمرة فتجلّت
وإني وتهيامي بعزة بعد ما تخلّيت مما بيننا وتخلّت
لكا لرتجى ظل الغمامة كلما تبوّأ منها للمقيل اضمحلت
كأنى وإياها سحابة ممحل رجاها فلما جاوزته استهلت
وعسالك تذكر أنى كنت في صف الحزب الوطنى حين كان
يهاجم سياسة سعد باشا طيب الله ثراه ، ألا فلتذكر أن حماسى
كانت تفتقر في مهاجمة ذلك الرجل حين ألمح فهمه للصداقة وحرصه

على الأصدقاء ، فقد كنت أرى في ذلك الجانب كل معاني النبل
وجميع دلائل الرجولة والإخلاص ، فإن الرجل الذي لا يخلص
لصديقه لا يعرف كيف يخلص لوطنه ، لأن العواطف متشابكة
الأصول والفروع يمدُّ بعضها بعضاً . وقد عابوا عليه رحمه الله أنه
صرح بحرصه على إظهار الأقرباء . وأنه قال : لو استطعت لأقت
دولة زغلولية لفظاً ومعنى ودماً . وفاتهم ما في الصراحة من
معاني الشمم والشجاعة والإباء فإن كل رجل في الدنيا يتمنى
لو استطاع أن يكون من أقربائه أمةً موحدة ، ولكن أين من
يجد من قوة نفسه وصراحة يقينه ما يساعده على مثل ذلك التصريح
والرجل لم يكن طاغية حين قال ما قال فإنه علل فكرته تعليلاً
يقره العقل والذوق حين صرح بأنه يقرب من يشق به ويعتمد عليه
والذين عابوا على سعد باشا إشارته لأصدقائه وأقربائه لم
يستطيعوا إقناع أحد بأنهم بررة أطهار . فقد كانت لهم مآرب
وأغراض ، ولم يكونوا يؤثرون من يؤثرون وفقاً للنزاهة
الأفلاطونية . بل التبس عليهم الأمر فكانوا لا يفرقون بين
العدو والصديق ، لأنهم لم يصادقوا غير أنفسهم ومنافعهم ، ولم
يقربوا من أحد أو ينفروا منه إلا وفقاً لما لهم من كيد مدفون ،
أو حقد مكنون

وأعود إليك يا صديقي فأخبرك أن الأزمة الباقية هي أزمة

القلب: فقد فهمت كل شيء ، وعرفت كل شيء ، وبقي قلبي كالغابة
المجهولة في ضمير الظالماء ، فان قلت لك إني أشكو خيبةً في الحب
أو إخفاقاً في المجد ، أو غدرًا من الاصدقاء ، فاعلم أن هذه كلها
مخرجات هيئة تزعج النفس لحظة ثم تزول ، وأكاد أحسب أن
الناس يتخذون من الحب والصدقة والمجد علامات لقلوبهم
وأرواحهم ، وأظنهم كذلك ينزعون إلى الأحزاب السياسية
والدينية والاجتماعية لينسوا ما في أنفسهم من القلاقل والثورات
وأنا لم أنجح في شيء من ذلك ، لأن استقلال إرادتي حال
يبنى وبين الاندماج التام في هيئة من الهيئات أو حزب من الأحزاب:
فأنا عند أنصار الحزب الوطنى شعبى ينصر الوفديين ، وعند
الوفديين خيالى يتشبهت بالملاحقات من زيلع إلى جغبوب
وأنا بين المؤمنين ملحد ، وبين الملاحدين مؤمن ، وأنا برّ
عند الفجار ، وفاجر عند الأبرار ، فأنا فى كل بيئة أجنبيّ وفى
كل أرض غريب
وهنا يكون الفرع الأكبر إذ أعود إلى قلبي وجها لوجه ،
وهو قلب خطر. والموت عندى أهون من مواجهة ما فيه من أهوال
وخطوب فليت شعري أين المفر؟ ومتى يكون القرار؟
ويرحم الله المتنبي إذ قال:

يقولون لي ما أنت في كل بلدة؟ وما تبتغي؟ ما أبتغي جل أن يُسمى

٥ ديسمبر سنة ١٩٣٠

ذكرى الزهراء

كتب مراسل (الأمي دي بيبيل) في مدريد رسالة عما شاهدته في معرض الفنون هناك؛ وقد دارت بينه وبين أحد الأسبانيين محاورة عن مناوشات الملكيين والجمهوريين فجاءت في حديث الأسباني الكلمة الآتية:

«ولكن برشلونه ليست كل اسبانيا وليست قهوة الزهراء

كل مدريد»

قهوة الزهراء! أي ذكرى تثيرها كلمة «الزهراء» من معالم الفردوس الاسلامي المفقود! ومن العجيب أن كلمة «الزهراء» في نطق الفرنجة أوضح من كلمة «الحمراء» عند بعض المصريين الذي يسمون بعض معالم الغناء في القاهرة والاسكندرية «الهمبرا» مجازاة لتحريف الاوروبيين، وكان أولى لهم لو نطقوها «الحمراء» ولكنهم لا يعرفون!

لقد مضى كثير من العهود القديمة، والناس يذكرون فقط أن ملك العرب بالاندلس كان عهد عظمة للاسلام، ولا يذكرون بجانب ذلك أنه كان متنفساً للشرق كله بدون نظر إلى الديانات والاجناس، فمن لأهل الشرق من يغنيهم هذا البيت الحزين:

لم أبكِ أطلالك لـسكني بكيت عيشي فيك إذ ولّني

أيام البحر ولياليه

باريس في ١١ يونيه سنة ١٩٢٨

صديقي ...

أيدهشك — وقد تغير ما بيني وبينك وعصفت العواصف
بذلك الود الوثيق — أن أكتب اليك من هذا البلد النائي البعيد؟
لا تدهش يا صديقي ، فأنت تعلم أنني رجل لا أستطيع الحياة
إلا إذا وجدت قلباً يخفق بجانب قلبي ، ولست والله بناس أيامك
وعهودك : حين كنت تفيض بالبر وتذخر بالحنان . واني لعاذرك
فيما اجتاحت من القطيعة وما جنيت من التغاضي ، فقد تغير أو
كاد من كنت أحسب أن ستغيب البهار وتزول الجبال ، قبل
أن يغيب الود من صدره ، وقبل أن يمر بياله أن ما بيننا عرضة
للزوال

واني لأحمد الله على أن وجدت أصدقائي لا يعدمون المعاذير
حين يقدمون على هدم ماشقيت في بنائه من صروح الوداد ، فإن
أشد ما أخافه وأخشاه أن يتبينوا أنهم أساءوا إلى بغير حق ،
فيجدوا في قلوبهم مسَّ الحزن ومرارة الندم الوجيع ، واني

ليسرنى أن تهدأ حرارة الاخلاص فى صدور الذين أعزهم ، وأحنو عليهم ، وأضمر لهم أجمل الود وأصدق الوفاء ، فليس يرضينى أن يقاسوا الذى أقاسى ، وأن يديتوا معذنين بفضل ما قدموا من صدق الولاء ، فقد علمتني الأيام أن الاخلاص قد يكون جريمة ، وأن الوفاء قد يفتح لصاحبه باب الخيبة والحerman

فان كنت فى ريب من ذلك فاذا ذكر كيف يؤول النبل وكيف تُفسر السماحة عند بعض الناس ، فقد رأيت من يعد الحياء ضعفاً ، ومن يرى ضبط اللسان حصرأً ورعياً ، ومن يضيف المجاملة إلى التملق والرياء ، ورأيت من يحسب أنك لا تقى له — حين يكون الوفاء من سجايك — إلا لأنك ترى أسباب رزقك تحت رحمة رضاه ، وبفضل هؤلاء فهمت لأول مرة قول أبى فراس : وفيتُ وفى بعض الوفاء مذلةٌ لانسانة فى الحى شيمتها الغدرُ ومالى أبعد وفيك وحدك أصدق الشواهد وأصرح الامثال ، أفستطيع أن تخبرنى ماذا تملك من ضرى ونفعى وأنا أحفظ عهدك ، وأنسى غدرك ، منذ عقدت بيننا أو اصر المودة طوال مالا أدرى كم أعد من السنين ؟ انك تعرف انك لا تملك لى ضرأً ولا نفعاً ، ولعلك تجد كثيراً من الجهد والمشقة حين تحاول تعليل ذلك العطف من رجل لا يخشى بأسك ، ولا يرجو خيرك ، ولا ينتظر أن تغير الايام من طبعك فتكون من الصادقين

وكل ما أرجوه أن لا تذهب بعيداً في جورك وظلمك ، فان
لك ساعات من النحس تحملني فيها عامداً على مخاشنتك وتكاد تفلح ،
ولك الويل إن أفلحت في إثارتى إلى سخطك ، فإن لحظة من بوارق
الغضب إن غضبت لكافية لسحقك ومحقك وتبديد ما انتظم من
أحلامك حين آثرت أن تجنى على من لا ذنب له ولا تفريط فيه ،
اعتماداً على أنك فلان بن فلان !!

وما أنس لا أنس تلك اللحظات المظلمة التي تثور فيها نفسى
وأكاد أعم بالبطش بك وأرمى بأيامك وعهودك في هاوية من
العقوق ، ثم يترأى وجهك المشرق وكأنه لبغية سماء شاتية مثقلة
بالسحب السوداء ، أو قلب جاحد رماه الغي بأوزار الضلال !

ومهما يكن من شيء فقد ابتليت بك في دنياى ، وأبى وفائى
إلا أن أظل أسيراً يمتك الحرية ويفزع من التفكير في يوم
الخلاص ، فاستمع إذا حديثى إليك فقد يكون فيه عزاء لقلبي أو
عطف لقلبك ، وسبحان من لو شاء لفجر الصخر بالماء النير

خليت مصر منذ أسبوع وخليت ورائى فيها هموماً مريرة
أثقلت كاهلى وأمضت عيشى وراضتني بعد الجموح ، وكنت
أحسبني أقسى وأصلب من أن أعترف بأن في الحياة غيوماً تحجب

شمس النعيم من حين إلى حين ، ثم قامت بنا الباخرة فلم تطرف
 عيني لفراق الاسكندرية ولم يخفق القلب لفراق الوطن العزيز
 ومرت بالنفس طوائف من الذكريات الحزينة تمثلت فيها كيف
 شقيتُ بأهلي وأصدقائي ، وكيف ضنَّ وادى النيل بنفحة من
 نسيمات البر على من يشقى ليسعد ، ومن يفنى ليقدم له أسباب
 الخلود . ثم أخذ قلبي يذخر ويفيض بألوان من الحزن الشائر العنيف
 إلى أن غابت معالم الاسكندرية وشيعتها بهتاف الوداع ، وكم في
 الدنيا من ظالم محبوب !

ثم ماذا ؟ هذا جرس يصلصل ، وهذه أفواج من المسافرين
 تمضي إلى الغداء ، وأنا كذلك أمضي إلى حيث يمضون بين الفتور
 والنشاط ، ولكنني ألفت منذ أزمان أن أهتم بغذاء عيني وقلبي وروحي
 ووجداني ، قبل أن أهتم بماتطاب الامعاء ، فأخذت أترقب وأنتظر
 حتى أعرف من جليسي المختار على المائدة ، ووقفت بعيدا ادرس
 الوجوه والسمائل ، وأتعرف مواقع الحسن في اعطاف من تقل
 السفينة من أسراب الطباء ، وما هي الالحة حتى وقع طائر قلبي
 على فتاة جسمها ريان فينان كأنها من صبايا دمياط ، وبالوعة القلب
 من صبايا دمياط ! وما كادت تختار مكانها من المائدة حتى رأيتني
 أمامها وجهها لوجه وكأنا رفيقان يلتقيان

لا تسئل كيف طارت هموم صدرى في تلك اللحظة ، وكيف

محاذك الوجه كل ما خُط بقلبي من سطور الشجون ، وكيف
 تناسيت ما رمانى به اصدقائى من سهام العقوق ، وكيف اقبلت
 أسألها من هى ، وفى اى عش درجت ، ومن أى نبع رويت . وقد
 عرفت انها فرنسية نزلت إلى مصر ، فأقسمت لها ان خصوبة
 جسمها هبة من هبات النيل ، وان مصر لذلك جديرة بالتقديس
 ثم كانت فى البحر ليال وایام استطعت فيها ان استبد بذلك
 الغصن الرطيب ، واستطاع شيطاني ان ينفرد بها فى ساعات الرقص
 فلم يخاصرها أحدٌ سواى ، ورأيت بعيني كيف يكون الحب
 والعذاب فى حياة قصيرة لا تزيد عن خمسة ايام فوق بحر الروم
 ولكن أتدرى ما الذى وقع بعد ذلك ؟ لقد وقع ان اخذنا
 نتناجى فى اليوم الخامس ، ونراجع ما كان من حياتنا وما نرجو
 ان سيكون ، فعرفت ، ويا هول ما عرفت ، انها ليست حديثة
 العهد بالنضال ، وانها صرعت بمصر كثيرا من النواب والوزراء ،
 فانقبض صدرى ، واستطير فؤادى من الفزع . فجذعت وقالت :
 ما خطبك ياسيدى ؟ فأجبت فى هدوء مصنوع : لاشئ يامولاتى
 ولكن لا يرضيني فى هوائك ان اكون الشهيد الأخير ، وان كان
 فى ميدان الضحايا متسع للجميع !

أرواح الذكريات ؟!

صديقي ...

أنت تحيا حياة طيبة في دنيا فاتنة مملوءة بالرغد والرفاهية وطيب العيش ، ولك من شبابك ومالك وجاهك ما كان لعمر بن أبي ربيعة ، طيب الله ثراه ، ومنحه في أخراه ما منحه في دنياه ! لذلك يقل اهتمامك بالذكريات ، والتطلع إلى مافات . أما أنا فرجل مكدود لا يتاح لي طيب العيش إلا بمقدار ، لذلك تراني أبدى وأعيد ما لقيت من الطيبات في اللحظات الخالية ، ولا أقول في الايام الخالية ، لاني لا أذكر يوما طاب لي كله ، ولا اذكر اني عرفت كيف يكون الصَّبوح والغَبوق في يوم واحد أو ليلة واحدة . ولعل هذا هو السر في أني أعرض أحيانا لبعض الجوانب الحسية من معة الحياة فأصفها بِشَرِّهِ وافتراس كما يسطو المحروم على لقمة سائغة فيلتهمها مرة واحدة كأنها آخر ما سيلقى من طيبات دنياه ! فلا تعجب إذن يا صديقي إن رأيتني أعود إلى ماضيا من أيامي فأتذكر ما وقع فيها من الغفلات الحلوّة العذبة التي يمر طيفها بالقلب فيبدد ما فيه من سحب الهم والاكتئاب . وعساك تذكر تلك

الايام العصبية أيام الدراسة حين كنت توصيني بأن أضع في كل ركن من أركان غرفتي خريطة وافية لأجزاء العالم القديم والجديد حتى تنطبع في ذهني صور العالم بمجباله وأنهاره وبلدانه ، وحتى لا يحد أستاذنا اسماعيل رأفت بك ، يرحمه الله ، مقتلا يأخذني منه إذا جلست أمامه أؤدي الامتحان في الجغرافيا ووصف الشعوب . أنت تذكر ذلك ، فيما أظن ، فاذكر بجانبه إن شئت أنني عُنيت بعد ذاك بطائفة أخرى من الخرائط ، علقته كل خريطة منها في زاوية من زوايا القلب

وهنا تستطيع أن تفهم معنى قولهم : كم في الزوايا من خبايا . وهذه الخرائط متعددة الاشكال والالوان ، ففي كل خريطة نقط عديدة منها السوداء والبيضاء والحمراء ، وفيها نقط خفية لا أدرى ما لونها لأنها تمثل بعض جوانب من النفس يغلب عليها الشك والارتياب . وهذه المجموعة من الخرائط فيها دائي وفيها شفائي ، وإليها المرجع كلما جن الليل واطفأت المصباح ونظرت من النافذة أتأمل من خلف ستار ما يصنع جيراني : فهذا شاب يقضي سهرته وحيدا في غرفته ، ولكنه ليس بوحيد لأنه مشغول بتمرينات مهمة في ضرب العود حتى لا ألمح العرق يتصبب من جبينه ، وهذه فتاة تغازل صورتها في المرآة ، وهذان قرينان يتناولان القهوة ويسمران بعد العشاء

أما أنا فوحيد وحدة كاملة لا رفيق لها ولا أنيس ، أقرأ
ما أقرأ حتى تصرخ جفوني من الألم ؛ وأعود إلى مذكراتي أرتبها
في رفق ، ولكن ذلك كله لا يمنع من أن أنظر الساعة فأجدها لم تتخط
العاشرة ، وأنا لا أصافح النوم إلا بعد نصف الليل ، فإذا أصنع
إذن ؟ لا شيء إلا أن أعود إلى تلك الخرائط التي علقتها في قلبي فأراجعها
واحدة واحدة في غبطة وارتياح لا يعدلها شيء من طيبات الحياة .
وهذه المراجعة لذينة جداً ، لأنها ليست من تلك المراجعات
المملة المضجرة التي يضطر اليها المتقدمون إلى الامتحانات العمومية
من طلبة المدارس والمعاهد والجامعات ، هي مراجعة لطيفة خرائط
وجدانية ، يترأى في بعضها الشيخ زكي مبارك بعمامته البيضاء ،
وفي بعضها الآخر يترأى زكي أفندي مبارك بطربوشه الأحمر .
وفي جوانب أخرى يترأى المسيو زكي مبارك في قبعته الرمادية .
ومن العجيب أن هؤلاء الأشخاص الذين يختلفون في ملابسهم
وازيائهم يلتقون عند نقطة واحدة هي الحظ العاثر والفؤاد الخفاق
إن الذي رزقك رغد الحقائق هو الذي رزقني لذائذ الخيالات
والأحلام ، فلا تحسب أنك أسعد مني حين تمتطي سيارتك
وتصاحب شيطانك من ميدان إلى ميدان ، فإن لي من أحلامي سعادة
باقية دائمة تتجدد نضارتها كلما نفضت تلك الخرائط بين يدي
لأذكر متى نعمت ومتى شقيت ، متى فرحت ومتى حزنت ، ومتى

طربت ومتى جزعت ، أما أنت ففي دنيا صاحبة تحسبها شيئاً
 وليست بشيء ، وليست لك قدرة مع الأسف على تذوق الذكريات
 لأن النعيم طغى بك ، وأنساك ما في الماضي من متع كانت جديرة
 بالحياة لو وقعت لرجل حساس من الذين رزقوا قوة الخيال وعرفوا
 كيف يكون استحضار الأرواح : أرواح مادفنا على الزمن من
 ذكريات الحب والوجد والوفاء . أفتحسب يا صديقي أن ابن زيدون
 كان يخادع نفسه حين قال

يدني خيالك حين شط به النوى وهم أكاد به أقبل فاك
 هيهات ، هيهات ! ان ابن زيدون لم يخدع نفسه بذلك .

فالواقع ان نعمة الخيال من اعظم النعم التي من الله بها على عباده
 الشعراء . إن احلام اليقظة أوفى وامتع من احلام النوم : لأن اليقظة
 املك لنفسه ، واعرف بخواطره ، واقدر على تمييز ما يترأى له من
 اشباح النعيم ، وانت لا تنكر ان الاحلام حياة ثانية تنعم بها وادعين
 ولكل دور من ادوار الحياة احلام خاصة به ، فالطفل حين يحلم
 يفتح فاه ويطبقه في رفق وحنان ، لانه يحلم بشدى أمه الرءوم ، وأمّه
 في ذلك الحين هي كل شيء في دنياه ، وذلك الشدى المعسول هو
 كل ما يملك ذلك الوليد الغرير . أما نحن فأحلامنا معقدة أشد
 التعقد ، ونكاد نزعج في النوم ، لأن أعباءنا ثقيلة ، ولا ترينا
 الاحلام غير صور مرعبة مخيفة من صور التكاليف والفروض .

وبهذه المناسبة اخبرك ان أحلامي المزججة في باريس ترجع في
 صورها المختلفة إلى أصل واحد : هو الذهاب لاططاء درس أو
 إلقاء محاضرة بعد مضي ربع ساعة من الوقت المحدد . ويرجع هذا
 الفرع فيما أظن إلى اني كنت دائماً احرص الناس على التبكير ،
 حتى لا أذكر اني كنت أصل دائماً قبل الميعاد بنصف ساعة .
 وهذه الوسوسة في المواظبة تجلب لي الآن احلاما مزججة
 لا يذهب شرها عنى إلا إن قت فأوقدت المصباح وقلت بصوت
 مسموع : أنا في باريس ! أنا في باريس ! فلينتظر تلاميذتى ماشاءوا
 في القاهرة ، فاني لست هنالك ، ولست عن انتظارهم بمسئول !
 الاحلام لا تجمل إلا في الطفولة ، من اجل ذلك كنت
 اقول لك حين تأوى إلى مضجعتك : نم هنيئاً . واحلم أحلام
 الاطفال !

أما قوة الخيال وجبروته في استحضار أرواح الذكريات
 فنعمة عجيبة أنعم الله بها كاملة على أخيك ، فانا أرد كل غائب ،
 وأبعث كل ميت من ذكريات الماضي ، وأتمثل كل شيء حين
 أشاء ؛ وأنت الآن أمامي بحوادثك اليومية ، وأكاد أراك تنتقل
 من قهوة إلى قهوة ، ومن مرقص إلى مرقص ، ومن ملعب إلى
 ملعب ، في حيرتك الدائمة تبحث عما لا تجد ، وتجد ما لا تريد ،
 وأكاد أرى صديقنا (١) يخرج من الفصل فيقال له : كيف حال

الطلبة؛ فيجيب «جتهم داهية دأشء يطلع الروح» او صديقنا (ح)
 ذلك الاديب الالوف المولع بقتبع سقطات الشعراء والكتاب
 من بين الناس ، لا أزال أراه مهموما محزوناً يبحث وينقب عساه
 يظفر بخبر طريف يطالع به اخوانه اذا تلاقوا في المساء في ملهى
 من ملاهى الجزيرة ، أو التقوا مصادفة في الطريق ، وهذا
 النوع من تلمس هفوات الادباء شر لا بد منه ، أو هو شر جميل
 عاش بفضل كتاب الاغانى على مر الاجيال

الاحلام هى التى جعلت المتنبي يظفر بأنس من لا سبيل
 إليه حتى استطاع أن يقول فى نشوة الظافر الطروب .
 بتنا يناولنا المدام بكفه من ليس يخطر أن نراه بباله
 وقوة الخيال فى بعث الذكريات هى التى جعلت أحد
 الشعراء يتغنى ويقول

ترينيك عين الوهم حتى كأننى

أناجيك من قرب وان لم تكن قربى
 وهى كذلك التى تخيبنى حياة صادقة كلما تمثلت ما طاب
 من غفلات الماضى ، أو تمثلت ما سيطيب من غفلات المستقبل
 القريب والبعيد ، وثمراتها أشهى وأطيب وأمتع من ثمرات
 الامانى الشاردة التى أقنعت جحدرا فى سجنه ، وحملته على
 الاطمئنان إلى الرضا بأن محبوبته تشاركه فى رؤية الليل والنهار
 والهلال، إذ يقول:

أليس الليل يجمع أم عمرو وإيانا فذاك لنا تدان
 نعم وأرى الهلال كما تراه ويعلوها النهار كما علاني
 ونحن بالاحلام والخيال نحيا حياة طويلة مملوءة بالانس
 والرغد، ولنا من ذكرياتنا الحلوة ما ندفع به مرارة الساعة الحاضرة،
 ولنا من الامل في طيبات المستقبل ما نقتل به جيش التشاؤم
 المضجر الذي ينتابنا في ساعات السأم والملال
 إلى هنا تحسبني يا صديقي أثراً لأحب إلا نفسي فالذكريات
 كما ترى حياة وبعث للأيام السوائف والليالي الخوالي، وهي كذلك
 وقود من اللذات أقدمه لتلك النفس القلقة الخيرة الموهبة، التي
 لا تهدأ، ولا تقف عند حد من حدود المطامع، أو رسم من رسوم
 الاهواء، وهي فوق ذلك كله غذاء شهى لنزوات القلب، ونزغات
 النفس، ووثبات العقل، وهفوات القلب
 ولكن رويدك، فاخوك أطيّب من ذلك نفساً، وأعف
 ضميراً، وأكرم قلباً. إن لي من تلك الذكريات أنصبة روحية
 صرفة لا يشوبها طيش ولا نزق ولا جموح، وفي تلك الذكريات
 جوانب طيبة لم أرد بها غير وجه الله، ولم أبتغ منها غير جمال
 الصدق وعذوبة الوفاء

انني ما رجعت إلى تلك الخرائط الوجدانية إلا تمثلتُ فيها
 صوراً ورسوماً وأشباحاً لصداقات قديمة، وعلاقات ماضية أراد

الزمن أو شاءت تقلبات الناس أن تضاف إلى غيابات التاريخ :
 فأولئك قوم كانوا في صداقتهم كراما بررة ، ولكن الموت قضى
 عليهم ، وهؤلاء قوم لا يزالون أحياء ، ولكنهم كذبوا بعد صدق
 وخانوا بعد وفاء . فإذا ترأى أصنع في ذكريات أولئك وهؤلاء ؟
 أما الذين قضى عليهم الموت فلي في ذكرياتهم شئون غريبة
 تستثير الدمع ، وأعزهم على المنسيون منهم الذين ما عادوا يمرون
 بخاطر أو يجرون على لسان . فذلك الطفل (عبد الحسيب) الذي
 اختطفه الموت بعد عام من حياته لا يزال يتمثل إلى قلبي وروحي
 في عقله وورزاته ، وتلك الطفلة (سُكينة) التي سمينها بهذا الاسم
 لصباحة وجهها راجين أن تذكر بسميتها الجميلة الحسناء سُكينة
 بنت الحسين ، سُكينة هذه لا تزال تطفر أمامي وتثب على سريرها
 الصغير ، ولا أزال أتمثل كيف كانت تعالج سكرات الموت في
 نبرات حلوة عذبة حسبتها لغفلى تغريدات طائر لا تأوهات عليل .
 وأخي سيد ؟ ويلاه ! ماذا أقول ؟ لقد شهدت أيام مرضه
 وحضرت لحظاته الأخيرة ورأيت كيف قام فزعاً فقبل يدي ليغمض
 بعد ذلك عينيه أبد الدهر ، وقاسيت أهول منظر شهادته في حياتي
 حين كفنته بيدي وأسأمته إلى الفناء

أفتحسب من المروءة والنبيل أن نبخل على هؤلاء بنفحات
 الذكري ؟ هؤلاء بذلوا في برناكل ما كانوا يملكون ، فالطفل

كان يسخو بنظراته الرقيقة ، والطفلة كانت تجود بيسماتها العذبة
الحلوة التي تفيض بنورها على حنايا القلب والأحشاء ، وذلك الشاب
اليافع كانت مخايله تعد بأشرف أنواع البطولة لو أمهلتها الأيام ،
وسبحان من تفرد بالبقاء

أما أصدقائنا الذين غدروا بنا وتناسوا ولاءنا وإخلاصنا فلي
معهم شأن آخر : هم لا يزالون أحياء ولكنى أرحمهم فوق ما أرحم
الموتى ، ذلك بأن الموتى مضوا وراحوا قبل أن تمتحنهم هذه
الدنيا الغادرة وقبل أن ترغمهم ضرورات الحسد وحاجات العيش
على قطع ما وصل الوداد ، وفصم ما ربط الولاء ، وهؤلاء أيضا
مقابر تزار . لكن كيف ؟ لا تسأل عن ذلك ، فليس عندي
جواب ويكفى أن تعرف انى أميز بين الوجهين للشخص الواحد :
فهذا وجه قائم وهذا وجه مضى ، وما لقيت صديقا غدر إلا كدت
أستوقفه وأقول له : ما أشبهك بصديق فلان ! لقد كان له وجه
كوجهك ، واسم كاسمك ، وعمل كعملك ، وجاه كجاهك ، ولكنه
رحمه الله كان لا يغدر ولا يخون !

هؤلاء أيضا بذلوا فى برنا كل ما كانوا يملكون فى اللحظات
التي كانوا فيها أوفياء ونبلاء ، أفترأتى أنساما وكانوا قرة العين ، ومنية
النفس ، وبغية القلب ، وقبلة الروح ؟ هيهات ، هيهات ! فلقد
فطرت على البر والوفاء والإخلاص ، وبغض الله إلى تقائص

القطيعة والجحود والعقوق .

وبعد فهذه رسالة كلفتني قطرات من الدمع في باريس ، ذلك
البلد الذي لا يعرف أهله ما البكاء إلا في الروايات والاساطير .
وكل ما أرجو لك ، أيها الصديق العزيز ، أن يبارك الله في
نضارة شبابك ، وطهارة وجدانك ، وأن لا تحملني الظروف على أن
أترحم عليك وأنت حي تغدو وتروح . والسلام

٥ أكتوبر سنة ١٩٣٠

هادم الذات

لنا صديق في باريس مفتون بالجلوس في بول ميش ، وتلك
أكبر مئمة أن يشهد الغادين والغاديات ، والرأئحين والرأئحات ،
في حي الشباب

وهو في أغلب الاحيان يجلس وأمامه كأس وفي يده
سيجارة ، ثم يرمي بعينه وبفؤاده الى اقتناص ما يري وما يدرك
من أسرار الجمال ، وهو في تلك اللحظات أشعر الناس : لأنه
يتحول الى جذوة من الشعور والاحساس

وقد جلس في صباح اليوم كعادته وكان قد أجهد نفسه بالليل
في دراسات مضجرة تقتل الأعصاب ، فرمى ببصره عليه يشهد
من روائع الحسن ما يذهب السامة عن عقله المكدود . ولكن

نظره اصطدم بمنظر السواد على باب المنزل الذي يواجهه ، فعرف
أن هناك مأتما وأن هذه ساعة بكاء وانتحاب عند الجيران المجولين
وهنا استولى عليه الخوف ، ومرّ بخاطره الحديث الذي

يقول : تذكروا هادم اللذات

ولكن ذلك الصديق عاد فألقى على دنياه نظرة ساخرة .

ثم ألقى على نفسه هذا السؤال :

إذا كانت دنيانا ستُنقضى بمثل ما انقضت به دنياء هذا
الميت فلم نتحفظ وتبليد وتوقر فراراً من سفالة المنافقين الذين
يأمرون بما لا يأثمون به ، وينهون عما لا ينتهون عنه ؟ أليس
الحزم أن نغم دنيانا قبل أن تقوت متأسين بأبى الحسن التهامي
إذ يقول :

فاقضوا ما ربكم عَجَلاً إنما أعماركم سَفَرٌ من الاسفارِ
وتراكضوا خيل الشباب وبادروا ان تُسَرِّدْ فلهنَّ عوارِ
وما كادت تفرغ الكأس حتى نُقل الميت ونُزع السواد وعاد
الشارع والسابلون إلى الجذل المألوف . وبذلك اطمأنَّ صاحبنا إلى
أن الحياة أقوى من الموت ، كما أن الصراحة أشرف من النفاق ،
ولكن أكثر الناس لا يفقهون !

الآن فهمت

كنت في حداثتي فلاحاً مقسماً الجهد بين الفأس والمحراث ،
وكان لا يغيظني من حياة الريف غير فصل الشتاء . وكنت
أسمع أهالي سنتريس يقولون (لما يخضر التوت ، البرد يموت)
وكذلك كنت أتأمل اشجار التوت وأتربخ اخضرارها لابشر
نفسى بالربيع ، ولكنني كنت أجد الاشجار الصغيرة تسرع الى
الاخضرار وأجد الاشجار الكبيرة تخضر في ببطء قريب من
الجمود . وما أذكر أنني شغلت نفسي بفهم هذه الظاهرة الطبيعية
وقد غاظني شتاء هذا العام في باريس فما كاد ينتصف مارس
حتى أخذت أتربخ اخضرار الاشجار في حديقة النباتات .
ولاحظت أيضاً ان الاشجار الصغيرة هي التي تسرع الى
الاخضرار ، فتذكرت أيام الحداثة في حقول سنتريس يوم كنت
أتربخ اخضرار أشجار التوت

ومع اني لم أكن بليد الذهن بدليل أن اسمي (ذكي) - بالذال
لا بالزاي في هذه المرة ! - لم أفهم السر في تبكير صغار الشجر الى
الاخضرار الا في هذه الايام :

ذلك بأنها في ميعة الشباب ، والشباب أكثر إحساساً

بنضارة الربيع

أعاذنا الله من كهولة القلوب ، وشيخوخة الأرواح !

نجوى القلب على شواطئ السنين

تصارعُ في سَلَمِ الجَمالِ وَحَرَبُهُ
فِيالِكَ مِنْ صَبٍّ عَلَى الْبَيْنِ مُوَلِّعٌ
رَشادُكَ لَا تَجْزَعُ فِكمْ مِنْ صَبَابَةٍ
سَتَأْسُو عِذارى النِّيلِ آثارَ ما جَنَّتْ
رَعَى اللَّهُ فِي الْوَادِي الْعَزِيزِ عَقِيلَةً
تَذَكَّرُهَا الْأَصَالُ مَا كَانَ بَيْنَنَا
جَنِّتَ عَلَيْهَا ما جَنِّتَ مِنَ الْهُوى
وَكَمْ مِنْ أَمَانٍ لِلشَّبَابِ تَقَطَّعَتْ
أَتَمَضَى لِيالى الصَّيفِ لَا تَنْقَعُ الْجوى
وَيَدْرُجُ فِي مَغْدَاهُ أَسْوانُ صَادِيًا
وَتَخْلُو مَغَانِي النِّيلِ مِنْ لَهْوَ فَاتِكِ
وَيَحْيَا أَسِيرَ الْحَزَنِ فِي مِيعَةِ الصَّبَا
سَيِّدُ كَرْنِي النَّاسُونَ يَوْمَ تَشْوَ كَهْمٌ
سَيِّدُ كَرْنِي النَّاسُونَ حِينَ تَرْوِعُهُمْ
فَوَاللَّهِ مَا أَسْلَمْتُ عُهْدِي لَغَدْرَةٍ
وَلَا شَهِدَ النَّاسُونَ مِنِّي جَنائَةً
مَخاطِرُ مِنْهَا طارِفٌ وَتَلِيدٌ
أَثارتُ شَباحَهُ أَعْيُنٌ وَخُدُودٌ
تَحْمَلُ عَنْهَا الْقَلْبُ وَهُوَ عَمِيدٌ
عَلَيْكَ عِذارى السَّنينِ حِينَ تَعُودُ
عَزِيزٌ عَلَيْهَا أَنْ يُقالَ بَعِيدٌ
فَتُرْعَدُ مِنْهَا أَذْراعٌ وَنُهودٌ
وَخَلَّيْتُهَا تَقْنَى أَسَى وَتَبِيدُ
مَرائِرُ مِنْ أَحْداثِها وَعَقُودُ
مَباسِمُ بِالْعَذْبِ النَّميرِ تَجُودُ
فَوادٍ بِأَثقالِ الشَّجونِ يَمِيدُ
لَهُ مِنْ رُبَّاهَا جَنَّةٌ وَخُلُودُ
فَتِي مَرِحٌ طاغى الشَّبَابِ مَرِيدُ
شَمائِلُ مِنْ بَعْضِ الْخِلَاقِ سُودُ
صِنائِعُ مِنْ ذِكْرِى هَوَاى شُهُودُ
وَلَا شَابَ نَفْسِي فِي الْغَرَامِ جُحُودُ
عَلَى الْحَبِّ إِلَّا أَنْ يُقالَ شَهِيدُ

بين الرشد والغواية

صديقي عبد المجيد

أكتب إليك هذا وقد قهرني البرد على المكث في غرفتي،
 فان الجليد يتساقط على الناس وهم سائرون في الطرقات ، وليس
 لدى من مرافق الحياة ما يتمتع به أكثر الجيران ، فنحن في يوم
 أحد ، ولكل جار فنو غراف يستمع إلى أناشيده وموسيقاه ،
 أو أهل يعظفون عليه ، أو أصدقاء يسألون عنه ، في حين لا أجد
 ما أدفع به السأم والملال غير ثلاثين كتابا أو تزيد ، مبعثرة في
 أرجاء الغرفة في اضطراب له روعته وجماله في ساعات النشاط ،
 ولكنه في ساعات السآمة ثقيلٌ ممجوج ؛ أضف إلى ذلك أن هذه
 الكتب قلتني وقلّمتها لطول ما اصطحبنا وتجاوزنا الأحاديث في
 الضباح والمساء ، وهي فوق ذلك متنافرة الطباع ، متباينة الأشكال ،
 فمن لغة إلى أدب ، ومن فلسفة إلى تشريع ، ومن جد إلى هزل ،
 حتى لا أحسب أنه لا يمنعها من العراك غير خوف البوليس !
 وقد فكرت فيما أقتل به هذه الساعات الباردة فلم أجد غير
 الكتابة إليك ، ولكن ماذا أكتب ؟ أتريد شيئا جديا ؟ هيهات

فان الجِد في هذه الساعات أقسى من البرد ! فلم يبق إلا أن أحدثك
عن بعض الغوايات التي تقع في باريس ، ثم نظرت فرأيت أن هذه
الرسالة ستتصل اليك في شهر الصيام ، وهو شهر له حرمة وكرامة
فمن الخير أن نباعد بينه وبين جميع ألوان الرفث والفسوق . والغواية
في مجلتها ترجع إلى الدنيا التي عنها الشاعر حين قال :

إذا ما المرء صام عن الدنيا فكل شهوره شهر الصيام

ولكني تذكرت أن هناك مخرجا من هذا المأزق : فقد كنت
أرى ناسا يقتدى بهم ، وينعمون بجميع مظاهر التبجيل والاحلال
كنت أرى أولئك الفضلاء المبجلين يعرضون لمحارم الله في غير تورع
ولا تخرج ، وينالون من اعراض الناس بلا توقر ولا عفاف ، فاذا
نالوا من شهوات اللسان والزهو والخيلاء ما يبتغون رفع الرجل
منهم بصره إلى السماء وقال : اللهم إني صائم ! اللهم اني صائم !

وكانوا يقولون ذلك في ضراعة وخشوع ، بحيث لا مجال
للشك في انه قد غفر لهم ، فان وصلت اليك رسالتي بخير فاقرأها
كلها . ولا تنس أن تقول في ختامها : اللهم إني صائم ! اللهم إني
صائم !

أما أنا فسأقول عند الفراغ من تحريرها : اللهم إني في
باريس ! اللهم اني في باريس ! وأنت تعلم معنى ذلك ، فان رحمة

الله وغفرانه يشملان هنا سكان الأرض والسماء ، وما ظنك بمدينة
 اللهو في عرف أهلها لباقة والوقار عندهم جمود ، أول ما تقع عليه
 عين الوليد فيها أكوأب الشراب وأول ما تسمع أذنه أغاني
 الفتك والمجون . والله حكمة في كل ذلك فلو مشينا هنا على الصراط
 المستقيم كما تمشون في مصر لهلكنا ، ان كان صحيحا ما نسمع
 من أنكم تمشون على الصراط السوى في شهر رمضان ، ولو شاء
 ربك لهدى الناس أجمعين .

بسم الله أفتح الحديث

لى صديق فرنسى يحمل أكبر الدرجات وأعظم الألقاب
 مضت به الايام حتى ألقته فى حدود السبعين ولكنه كشاعر ناشوق
 قد بقيت فى وجهه بقايا من عهد الشباب ، فان الذى يري شوقى حين
 يتسم يقدر أنه كان جميل الملامح فى صباه ، وكذلك صديقنا
 الاستاذ (ب) قد بقيت فى وجهه على الزمن آثار ملاحه وصباحه
 بحيث يقدر الرأى أنه كان من أجمل الشبان فى هذه القديم

جلسنا مرة نتحدث فى حفلة ساهرة ، وكان الراقصون
 والراقصات يتناهبون لذات الوجد المكبوت ، فسألنى : أتجيد
 الرقص ؟ فأجبت : لا أحسن منه غير الجنجلة ! ثم قلت : وأنت

ياسيدى الاستاذ؟ فأجاب: كنت قديماً أرقص ، ثم تركت الرقص
منذ ثلاثين سنة !

— ياساتر ! ثلاثين سنة !

— نعم ثلاثين سنة ، فقد تركته فى حدود الاربعين
وهنا دفعنى الفضول فقلت : لقد بقيت فى وجهك ياسيدى
الاستاذ علام وسامةٍ وجمال ، فكيف كان حظك عند النساء ؟ .

— النساء؟ ماذا تريد؟ أنا طول عمرى رجل مستقيم !

— العفو ياسيدى الأستاذ ، إن كنت وجدت فى سؤالى
ما يُخرجُك ، وأنا فى بساطة أسألك : هل كانت لك وقائع تشبه
وقائع ألفريد دى ميسيه ، أو كانت لك صبوات تذكر بصبوات
لامرتين ؟ ؟

— الآن فهمت ما تريد ، ويظهر أن سمعة فرنسا فى الخارج
سيئة جداً من هذه الناحية ! وأحب أن أجيبك بأنه لم يقع لى
من حوادث الحب ما يذكرك بـم تعرف من شعراء الوجدان .
الحب صعب المرام جداً يا صديق . فما رأيك؟ إن الرجل المحترم
لا يتاح له الحب إلا فى حالين : أن يحب فتاة ، أو أن يحب امرأة
والرجل لا يحب فتاة إلا إذا كان يريد الزواج . وما عدا ذلك من
حب الفتيات خطرٌ لا يقدم عليه رجل يحسب حساب العواقب

أما حب المرأة - المرأة المتزوجة - فهو من كبريات المشاكل
 في هذا الوجود، وذلك أن الحب لا يراد به ذلك العبث الكلامي الذي
 يجري في الأندية والحفلات، فإن هذا حب الأطفال، والمرأة
 لا يرضيها ذلك. والعاشق الذي يكتفي بمعسول الأمانى والأحاديث
 عاشق أحمق مأفون لا تحبه النساء، فلم يبق إلا العشق الجدى
 الرصين الذي يتغلغل في المشاعر والأحشاء، وهذا العشق كثير
 التكاليف، لأن المرأة عندنا حين تحب تعصف بكل ما يملك مجها
 من عقل وثروة وجاه. وانت تعرف أن العشق لا بد له من
 ساعات خلوة. وغير معقول أن يكتفي العاشقان بغرفة في فندق
 فإن هذا ابتذال، فلا بد إذن من جناح خاص في منزل مقبول.
 ولا بد إذن من أثاث ورياشن وطعام وشراب. وهذا كله ماذا
 يتكلف؟ رباه! إن العشق شيء ثقیل! ولنفرض أننا وجدنا السبيل
 إلى المغارم المادية. فكيف نجد الوقت، أتحسب أنه تكفى ساعة
 أو ساعتان؟ هذا عندكم يا أهل الشرق، أما العشق عندنا فحسابه
 طويل! وكيف تنتظر أن يجد رجل مثلي فرصة للحب، وهو
 يكدح من الصباح إلى المساء؟ ومن هي المرأة المتزوجة التي تستطيع
 الفرار من تكاليف الزوجية لتسعف عاشقها بما يحتاج إليه قلبه
 من عطف وحنان؟

ثم سكت الرجل فجأة وقد علت وجهه غيرة الحزن والقنوط

وما هي إلا لحظة حتى قال :

— وأنت ما شأنك؟ وكيف حالك في الحب؟

فأجبت في ابتئاس :

— لم يكن لي من الحب نصيب غير الخيبة والاختناق ،
والآن عرفت سبب شقائي ، فقد كنت أحسب أن حرارة الوجد
كافية لامتلاك القلوب ، وفي ذلك السبيل ألفت كتاب « مدام
العشاق » وزاد حزني حين رأيته لم يقدمني خطوة نحو « تلك
النفس » التي أوحت إلى قلبي فصوله الطوال ، وفي هذه اللحظة
فقط عرفت أن العشق كثير التكاليف ، وأن القلب وحده لا يغني
في امتلاك المرأة ، وأن عالم العواطف إنما هو عالم قلوب
وجيوب . . . ! ويرحم الله من قال :

إذا اجتمع الجوع المبرح والهوى

على الرجل المسكين كاد يموت

والله المستعان على الغربة والحب والإفلاس !

*
* *

وعلى ذكريات الحب أذكر لك الفكاهة الآتية :

أكثر الاجانب المقيمين في باريس لا يعرفون غير النساء
العموميات ، ومن النادر أن يتصل رجل أجنبي بامرأة فرنسية
شريفة لان المرأة الشريفة هنا لا تقع إلا حين تحب ، وهي لا

تحب بسهولة كما يتوهم أكثر الناس ، وقول شوقي :
 نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء
 لا يمثل غير الفتاة الساقطة التي تنتظر أول قادم ، أما المرأة
 الشريفة فالوصول إليها من أعسر ما ينال ، على أن الفتيات
 الساقطات لا ينلن أيضا بتلك السهولة التي يمثلها بيت شوقي ، ومن
 هنا يقع ذلك المنظر المضحك حين تجد جماعة من الشبان المصريين
 يجلسون في قهوة من قهوات الحى اللاتينى ثم يتشاكرون ويتباكون
 لتعاسة حظوظهم فى الحب والسعيد منهم من يختلق قصص
 الحب اختلاقاً ليغيب بها اخوانه ، ويوهمهم أنه من دونهم سعيد
 على حين لا يعرف من فصول الحياة غير فصل الجفاف !

وقد حدث مرة أن وجدت فى بعض المكاتب كتاباً عنوانه
 « الحب الأثيم » فاشتريته فى الحال على أجد فيه وصايا مفيدة
 أنفع بها أولئك الاخوان المحرومين وقد كنت أختلق لهم حكايات
 أوهمهم بها أنى أعيش فى باريس عيشة همر بن أبى ربيعة فى المدينة
 وكانوا ينتظرون أن أعود عليهم بشيء من الفضل ، والمحسنون قليل !
 أتدرى ماذا وجدت فى ذلك الكتاب ؟

وجدته أولاً يصور الحب بصورة الشيء الممنوع . ورأيته يشترط
 فيمن يؤهل نفسه لخاطر الحب أن يحسن الرقص ، وركوب
 الخيل ، ولعب السلاح ، إلى غير ذلك من الشؤون الدقيقة

التي يجب أن يبرع فيها المتأفقون ، ورأيته في النهاية يبحث عن
الاماكن الخالية المأمونة التي يذهب إليها العاشق مع معشوقته .
وهي في رأيه تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : الأماكن المأمونة أمنًا مطلقًا لا ريب فيه .
ثم قال : وهذه الأماكن كضرورات الشعر لا سلامة منها ، فمن
الحمق أن يأمل العاشق في الظفر بمكان خال بعيد عن أعين الرقباء
وأهل الفضول

القسم الثاني : الأماكن التي اشتهرت بكثرة الزائرين ،
مثل متحف اللوفر ، وسان كلو ، وفونتيبلو ، وهي أماكن لا يليق
بعاشق يحترم معشوقته أن يصحبها هناك وإلا عرضها للقليل والقال
القسم الثالث : الأماكن التي اشتهرت بالهدوء وقلة الواردين
وفي رأى المؤلف أن هذه الأماكن خطيرة جدا : لأن العاشق
جميعا يتوجهون إليها معتقدين أنها خالية ، وأنها مأمونة الجوانب
فلا عاذل ولا رقيب

لكن أتدرى يا صديقي ما هي تلك الأماكن المشهورة
بالهدوء والسكون ، التي تصالح لمواعيد الحب ؟
إن المؤلف لم يذكر إلا موضعا واحدا ، أتدرى ما هو ؟
وأين يقع ؟

إن ذلك الموضع هو : « قسم الآثار المصرية في متحف اللوفر » !

قسم الآثار المصرية ؟ غضبة الله على باريس ، وعشاق باريس !
 أهكذا يكون احترام ما ترك الفراعنة من معجزات الفنون ؟ ألا
 يخشى أولئك الداعرون أن تحل بهم لعنة خوفو ورمسيس ؟
 كذلك ثارت نفسى حين وصلت إلى هذه النقطة من ذلك
 الكتاب ، ثم عدت فذكرت أنه لا ضير على التماثيل المصرية أن
 تشهد انحلال الأخلاق في مدينة من مدن الطغيان ، فإنه لا يذهب
 هناك للغزل والعبث إلا رجل يخون زوجته أو خطيبته ، أو امرأة
 تدوس على ما في ضميرها من بقايا كرامة الزوجية ، أو فتاة تعق
 أباه وأخاها وخطيبها حين تنسى حرمة العرض في سبيل الغواية ،
 إنه لا ضير على التماثيل المصرية أن تشهد نزق العابثين والعاثات
 في المدينة التى تسمى « مدينة النور » فستظل التماثيل المصرية هى
 هى خالدة ، وستفنى كل هذه اللذات المخطوفة فى أقل من لمح
 البصر حيث لا بقاء إلا للحق ، ولا كرامة إلا للخلق الجميل

١٥ يناير سنة ١٩٣١

ألوان من اتجاهات الأذواق

صديق ...

تذكر أنني أرسلت إليك رسالة عن الرشد والغواية ، وتذكر
 أنني وعدتك بالعودة إلى مثل ذلك الحديث ، فالآن أوجه إليك
 القول مرة ثانية على شريطة أن تفهم أنني لا أدعوك إلى ترك
 التحفظ والوقار ، ونبذ ما أنت عليه من ايثار الصمت والتورع
 عن الفضول

أنت تعرف ما بيني وبين صديقنا « ب » وتعرف أن إخاءنا
 بنى على أساس المجاملة ، وترك ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله ،
 وتعرف أن لدينا من التسامح ما يكفي لإغضاء العين على بعض
 الأخطاء ، فلست منه وليس مني ، ونحن مع ذلك إخوان في
 السراء والضراء .

غير أنني لا أنكر عليك أنني أحب أن (أنكد عليه) ولو
 مرة واحدة ، وهو انتقام طفيف ترضاه نفسي ، ولا سبيل إلى
 ذلك إلا إذاعة بعض ما يلهو به في باريس .

وقد تسأل : وما موجب ذلك ؟ وأجيبك في صراحة: إنني
 أحقد عليه لأنه يجد من الفراغ ومن المال ما يمكنه من إحياء عهد

عمر بن أبي ربيعة ، وكنت أحب أن أكون ذلك الرجل لو ساعفتني
المقادير . وهو فوق ذلك ينغص على تلك المتعة العقلية التي شاء الله
أن تكون أجمل ما أطمح إليه من طيبات الأرزاق

واني لا أذكر أنه صادفني مرة في حديقة لكسمبور ومعى
كتاب موضوعه « روح القرن السابع عشر » فأخذ يندد بأقبالي
على الماضي ، وإغفالي مافي العصر الحاضر من مفاتن ومغريات . .
وكان (المضروب) يقول ذلك ويده في خصر فتاة لو وقعت عليها
عينك لدارت بك الأرض وتخاذلت من عزمك الأوصال !

وله من نوع هذا الجنون منا كر كثيرة حملتني على مطاردته
والتصميم على هتك ستره لدى قراء (المساء) وقد أنذرتة بالفعل
فهو منذ ثلاثة أشهر يصباح موزع المساء في باريس ويماسيه ، وأنا
أقسم أنه سيلقى مني مايكره . ولكن ما الذي يكره هذا
الخيث ؟

انه لا يخشى إلا خطرا واحداً ، ذلك ان له أبا صالحا يصلي
الفجر في سيدنا الحسين ، والظهر في السيدة زينب ، والعصر في
السيدة فاطمة النبوية ، والمغرب في السيدة سكينة ، والعشاء في
مسجد قاضي الشريعة الامام الشافعي الذي قضى بين أمه وأبيه ،
رضوان الله عليهم أجمعين ! وهذا الأب الصالح يرسل الى ابنه في
باريس ثلاثين جنيه شهريا وهو مبلغ ضئيل لا يتناسب مع ثروة

ذلك الشيخ الجليل ، ولكنه يؤثر التقدير على ابنه لئلا يفسد في بلاد الفساد ، والابن من جانبه لا يزال يكتب أباه شاكيا باكيا ، لأن الثلاثين جنيها لا تكفي للخبز القفار ! والوالد يقرأ تلك الرسائل في اطمئنان ، لأنه يعلم أن الثلاثين جنيها كافية ، وأن عيشة الخشونة أنفع له ، وأجدر بأن تحمله على الانقطاع للدرس ليجتاز امتحان السنة الأولى في كلية الحقوق بعد أن قضى فيها أربعة أعوام ! وهذه الإشارة كافية لأن تقدر كيف يضطرب كلما هددته بالكتابة عنه ، وهو هده الله يقول في خشوع : إن حالي يشبه حال فلان ! وفلان هذا الذي يعنيه شاب مصري تعجزه الامتحانات لأنه لا يتاقى الدروس الا في قهوة دار كور : وهو يخشى أن يستقدمه أبوه الى مصر ، فهو لذلك يقول لمحدثيه وهو يتوجع :

أنا جالس على تل من البارود ، وهناك شرارة نار تقترب ثم تبعد ، وتقترب ثم تبعد ، وأخشى أن تمس البارود ؟

وهذا كما ترى من الخيالات الشعرية البديعة ، وأستبعد أن يكون تلميذ قهوة دار كور هو صاحب هذا الخيال

وقد صممت أخيرا على الكتابة عنه ، ولكني سأطوى اسمه عن القراء لئلا يكون فيهم من يصلح مع أبيه في السيدة زينب أو سيدنا الحسين ، وبذلك تظل شرارة النار بعيدة عن تل البارود إلى حين !

ولست أرجو بذلك أن يقلع عن الغواية ، فذلك شأن لا يهمني
على الإطلاق ، وإنما يهمني فقط أن يكف عن مغايظتي فلا يقرأ
على رسائل الحب التي تصله من خليلاته ، ولا يأتي لزيارتي ومعه
ثلاث بنات من الكواعب الملاح ، كبراهن رفيقته ، والوسطى
بنت عمته ، والصغرى بنت خالتها . فتلك أشياء تذهب بالرشد
وتغري بالجنون

وهذا إنذار لا يغني فيه أن يعتذربأنه يقرأ على تلك الرسائل
الذنسة لأشرح له بعض ما يخفى عليه من التعابير التي تدق عن
فهمه ، لأنني لست مترجماً في دائرة أيه حتى يضطرني الى توضيح
تلك المشكلات ، وان كنت أعترف بأنني أستزيده أحيانا من تلك
الرسائل التي كان مدادها من ألعاب إبليس ، والتي تحمل القارئ
والسامع على تصديق من يقول :

أرى طيب الحلال على خبثا وطيب العيش في خبث الحرام

*
* *

لصاحبنا هذا طرق كثيرة في الصيد ، فلنذكر بعضها هنا
تمهيداً للمفاجآت التي سنكف بها من طماحه اذا مضى يتلمس
أسباب اللهو في باريس

وأخبث طريقة كانت له ما وقع منه يوم نشر في إحدى
الصحف الأسبوعية اعلاناً هذه ترجمته :

(شاب مصري مستقيم يقضى نهاره في الدرس ويحتاج إلى

فتاة مقبولة الصورة متينة الأخلاق ترافقه في بعض السهرات
لتذهب وحشته وتعينه على فهم الروايات الكلاسيك التي تمثل
في الأوديون وفي الكوميدي فرانسيز)

وقد أطلعني على هذا الاعلان قبل نشره وكلمة (مستقيم)
أضيفت باقتراحى ؛ وقد كاد يرفض لظنه أن هذه الكلمة قد تنفر
بعض الملاح . ولكنى أقنعتة بأنها ضرورية . على الأقل لحفظ
سمعة مصر في الخارج ، ولأنها فوق هذا كلمة طالما انتفع بها المنافقون
الذين يضمرون الإفك ويظهرون الصلاح ، وهى بعد ذلك كانه تنفى
عن الاعلان صبغة المجون ، وتضيفه إلى الشؤون الجدية ، وتلك
تحفظات قد يحتاج إليها بعد حين

وفي صبيحة يوم دق التليفون فاستمعت ، وإذا صاحبنا يقول :
احضر حالا فقد تسامت اليوم أكثر من خمسين رسالة ؛
وأحب أن أدرسها معك فلا تتأخر ، أرجوك
خمسون رسالة ! يا ابن الخنزير ! « أستغفر الله ، فان أباه
من الصائمين القائمين »

وما هى إلا لحظات حتى كنت عنده وقلت : (هات يا ولد ،
هات ، حتى نشوف الخبر ايه !)

وفي مثل هذه المواقف تظهر براعة الفتيات الفرنسيات ، فان
اللغة الفرنسية من أغنى لغات العالم بالأوصاف ، والمرأة الفرنسية
من أعرف النساء بالصياغة الفنية لعبارات التودد والتلطف والاقبال

وقد جلس صاحبنا بجانبى وأنا أقرأ بصوت مرتفع ، وهو
يقاطعنى من لحظة إلى لحظة قائلا : « يعنى إيه ؟ » أو قائلا :
« وإيه رأيك فى البنت دى ؟ » أو قائلا فى لؤم « دى مش قد
كده ، خليها لك ! »

وكانت الرسائل تختلف اختلافا ظاهرا فى مراميها وأغراضها
باختلاف الكاتبات . وقد وجدت فى بعضها نوعا من الصدق . لأن
هناك فتيات محرومات من نعمة الألفة ومرافقة الفتيان ، هؤلاء
كتبن فى صراحة أنهن فى حاجة إلى الرفيق ، ولا يشترطن إلا
العفاف ، وكتببت إحداهن تعان رغبتها فى مصادقة (صاحبنا)
حبا فى مصر ذات النخيل ! ومنهن من قالت انها تود أن ترافق
فتى مصر ياشاء له حسن الطالع أن يركب الجمل فى صباه !

وهناك بنت ملعونة كتبت رسالة فى غاية من الخلاعة ،
وقد زعمت أنها أجمل مخلوقة مشيت فى شوارع باريس ، وأنها
بالرغم من جمالها الساحر لم تخضع لخلق ، ولم يذق شهدها أحد
من العالمين ، وقد ختمت الرسالة بقصيدة من نظمها فى وصف
عفافها الفائق وجمالها الفتان ، وهى قصيدة تتوافق كل التوافق مع الأغنية
المصرية التى تقول :

ايه رأيك فى خفافتى	ايه رأيك فى لطافتى
مُسْ خِفّه شربات	مُسْ رِقّه دلكات

ايدِ تَسْوَى الجَنَهَاتِ جنب البرلنتى
دا جمالى ما وَرَدَشِي ومثالى ما صدقش
حورية م الجنة هربانه بالعنيه
لناس تَهْنَأْ لوصالى تمنى

حبيبه باليه تعجبني الحريه
يدوبو اما أسألش بوصالى ما سمعش
على نارهم خليهم بدلالى أكوهم
من صغرى الاموده لجمالى معبوده
عشاق تترلل عن ثقل ما اتحول
كده طبعى يا لطافه كده ذوقى يا خفافه
مش خفه شربات مش رقه دلكات

ومن أغرب ما جاء فى تلك الرسائل ما كتبتة إحدى
البنات تسأل صاحبنا عن مستقبل وزارة صدق باشا ، وعن
رأيه فى الدستور الجديد . وقد قررنا فى الحال إبعاد صاحبة هذه
الرسالة لأنها « غلباوية » ولأنه يحتمل أن تكون من الجواسيس
وصاحبنا كما تعلم جالس على تل من البارود ، وقد يرسل إليه صدق
باشا بعض الصوراريخ جعل الله كلامنا خفيفاً عليه ، آمين
قرأنا الرسائل بعناية ، وميزنا ما رأيناه جديراً بالجواب ،

وأجبنا على سبع وعشرين رسالة من بين ثلاث وخمسين
ولكن ما الذى وقع بعد ذلك ، انتظر انتظر ، إن الله مع
الصابرين .

باريس في ٢٥ مارس سنة ١٩٣١

الرسالة العذراء

لابر هاسيم بن المدبر

مصححة ومشروحة مع مقدمة مفصلة بالفرنسية عن فن الانشاء
ومذاهب الكتاب فى القرن الثالث

بقلم

الدكتور زكى مبارك

تطلب الرسالة العذراء من المكتبة التجارية الكبرى

بأول شارع محمد على بالقاهرة

وثنى النسخة ثمانية قروش

وهى مطبوعة فى ورق جيد جداً بمطبعة دار الكتب المصرية

على اطلال الجمال

ولّى شبابك لم ننعّم بنضرته ولم نفرز من تمنّينا بمأمول
فإدّ كارعهودٍ منك ماظفرت فيها الأمانى بوعدٍ غير ممّطول
أيامَ تعصيفٍ بالأحشاء داميةً بناظر من بقايا السحر مكحول
وتستطيل عاينا في صبابتنا بمائسٍ مُترَفٍ الاعطاف مطلول

يا قلبُ هذى رسوم الحسن موحشة

في مهمّةٍ طامسٍ الاعلام مجهول فاندب رجاءك في دنيا وعدت بها
أحالتها الدهر مغنى غير مأهول لا تلمح العين في شتى جوانبه
إلا نوازى قلبٍ فيه مكبول ولا ينال المعنى من مشاهد
إلا عوادي حزنٍ جدّ موصول

يا من تشفع ماضيه لحاضره ليغفر الحب ما أسلفت من صلف
إلى محبٍ معنى القلب متبول فقد نعيمنا على ذكراك آونة
بسائغ من نيمير الوصل معسول واليوم نعبد في نجواك وادعة
أطلال حُسنٍ لمن يهواك مبذول

٢٥ أغسطس سنة ١٩٢٧

في ليلة العيد

صديقي

لست أكتمك أني شرعت أتزود لهذه الليلة منذ أسابيع
وزادى كما تعرف هو اجترار الأشجان ، فقد مرت سنون وأنا
أنتقل من شجن إلى شجن ، وكادت تمحي أوقات السرور من ألواح
الذكريات . وكان الخيال الذي تشبثت به وأعدته لهذه الليلة هو
ذكرى تلك الفتاة التي رحلت عن سنتريس في يوم عيد ، فقد أذكر
أنها خلتنى غريباً بين أهلي ، ولم تترك لي ما أوقد به نار الأسي
غير تقليب صفحات البحري فقد انقطعت إليه يوم ذاك وأخذت
أنشره وأطويه بين الجوى والبكاء

وكذلك مضيت فاستعرت ذلك الديوان من أحد الأصدقاء
في باريس ، وأقبلت عليه أتصفحه لا تذكر به ذلك الغرام المفقود
فماذا وجدت ؟ وبم شعرت ؟

لقد وجدت شعر البحري خالياً من المعاني الوجدانية ، وكنت
أؤمن بأنني خلقت لنفسى ذلك الشاعر يوم كنت أحب ، فلما

انقضت اللوعة مضي معها سحره ، وعادت قصائده وكأنها أبدان
بلا أرواح

أهذا هو البحترى الذى كنت أحب لأجله كل من اتصل
بالبلاذ السورية وأعبد من أجله ساكنى منبج والشهباء ؟
أين شعره ؟ وأين روحه ؟ وأين غرامه ؟

لقد كانت كل كلمة فى ديوانه تفعل فى قلبى ما تفعل النار فى القصبة
فألى أقرؤه فأراه خامدا لا روح فيه ، وأبحث عن بيت يروقى
فلا أجد ، وتشقى عيناى فى البحث بين ألفه ويائه بلا طائل ولا غناء ،
ثم كان صباح هذا اليوم فذهبت الى الكوليج دى فرانس
لأسمع محاضرة المسيو ماسينيون عن الهوى العذرى ، وانطلق
الرجل يتكلم بلغة عذبة تغلب عليها النبرات الباريسية الجذابة التى
يعرف سحرها من عاشر أهل باريس الأصلاء ، وكانت بداية
الحديث خاصة بالمحبين الذين زعموا أن هواهم باق لا يزول وكيف
كانوا فى دعواهم كاذبين ، فكدت أذوب من الخجل وأحسست
جيبى يتندى من الحياء ، فقد أقسمت ألف مرة أو تزيد لأحفظن
ذكريات فتحية على مر العشى وكر الغداة ، ثم قهرتنى الأيام على
تناسيها ، فلم أذهب لزيارتها منذ تسع سنين

ولكن المسيو ماسينيون عاد فأشار إلى أن أكثر المحبين
يظلون أسرى لذكريات النظرة الأولى وأنهم ينسون ما ينسون

ثم بهتاجون لأطيايف الماضي البعيد ، ويعودون فيقاسون لوعة الحنين
وهنا غلبني الدمع وكدت أفزع إلى النشيج . ولكن كيف
والمسيو ماسينيون يوجه إلى نظره وحديثه في عناية والتفات ؟
وكذلك أخذت أحول نظارتي وأدارى دمي متمثلاً بقول ابن
الأحنف

كم من صديق لي أسا رقه البكاء من الحياء
فإذا تلفت لأمنى فأقول ما بي من بكاء
لكن ذهبت لأرتدى فطرفت عيني بالرداء
ولم تكذنتهمى المحاضرة حتى اطأنت إلى أن القلب لا تزال
فيه بقية من الجوى ؛ ومضيت فصاغت المسيو ماسينيون وذكرته
بقول البحترى

وأودأنى ما قضيت لبائى منكم ولا أنى شفيت غليلي
وأعد برئى من هواك جناية والبرء أعظم غاية المخبول
والرجل لا يدرى ما أريد لأن صباة البحترى لم تخطر له
على بال ، ولأن الشاكي من السلامة لم يكن رجلاً سوى !
ثم انطلقت أهيم في شوارع باريس وأنا فرح جذلان ، لأنى
عرفت أن فتحة لاتزال تثير دمي ، وأننى خليق بأن أراجع
معالم النظرة الأولى ، يوم كنت أقول فيها :

يا طفلة الحسناء والدرة العصماء

ما خدك الفتانُ وطرفك الوسنان
إلا بقايا الأمِّ ذات اللثات الحُمِّ
أشبهتها في الدَلِّ وجفنها المعتلِّ
وخدها الأسيلِ وخصرها النحيلِ
فاستوصفها الحبا واستودعها الربا
فقد تنهى العمرُ ونال منها الدهرُ

يا زهرةً في العينِ ونعمةً في الأذنِ
وطفلةً في المنظرِ وغادةً في المخبرِ
لامسك الغرامُ فإنه ظلامُ

ثم تناولت غدائي في طائنة الحب الموصول ، وإن كنت
لأدري أين تكون اليوم فتحية ، وكيف حال أجفانها السود ،
وكفها المخضوب ، وحديثها المعسول

لقد كنت سمعت أنها تشكو مرض القلب ، فكيف حالها
اليوم ، وكيف أهلها الأعراء

ومن بينات الحب أن كان أهلها أحبَّ إلى قلبي وعيني من أهلي
إني لأغدر الناس إن لم أختص هذه المظلومة بما أملك من رفق
وحنان ، فقد مر عهد كنت لها كل شيء ، وكانت لي كل شيء ،
ولا يعلم إلا الله كيف أضاعت هذه الفتاة قلبي وحياتي مدةً من الزمان

ثم تناسي كلانا صاحبه ، منذ تبدى لنا الدهر وهو أضنّ وأبخل من
أن يهجع عن المحبين السعداء

صديقي

ذلك هو حديثي عن ليلة العيد ، فقد تناسيت أشجاني ، وقصرت
ليلي على التسبيح بذكرى فتحية ، فليت شعري أيمر بخاطرها في
هذه الليلة طيف ودادنا القديم ؟ أم تراها فتحت قلبها لشواغل
الحياة ، واطمأنت الى أن عهدنا كان حلماً فذهب ، وكان أملاً فضاء ؟
ولنعد الآن إلى البحري لئرى كيف راجعت الحياة ، حين
راجعنا الشوق ، ولننظر كيف يقول

أنبيك عن عيني وطول سهادها ووحدة نفسي بالأسى وانفرادها
وإن الهموم اعتدن بعدك مضجعي وأنت التي وكلتني باعتيادها
خليلي إني ذاكره عهد خلّة تولّت ولم أذم حميد وداها
فواعجي ما كان أنضر عهدها لدى وأدنى قربها من بعادها
وكنت أرى أن الردى قبل بينها وأن افتقاد العيش دون افتقادها
بنفسى من عاديت من أجل فقده بلادى ولولا فقده لم أعادها
وهذه يا صديقي آيات لم أبحث عنها. ولكنها واجهتني صارخة

حين فتحت الديوان ، ولننظر كيف يقول من قصيدة ثانية
ضمان على عينيك أنى لا أسلو وأن فؤادى من جوّى بك لا يخلو

ولو شئت يوم الجزع بل غليته

محب بوصل منك إن أمكن الوصل

ألا إن ورداً لو يزداد به الصدى وإن شفاء لو يصاب به الخبل

وما النائل المطلوب منك بمعوز لديك بل الاسعاف يعوز والبذل

أطاع لها دك غرير وواضح

شتيت وقد مرهف وشوى خذل

والحاذ عين ما علقن بفارغ نخلينه حتى يكون له شغل

وعندى أحشاء تساق صباية إليها وقلب من هوى غيرها غفل

وما باعد النأى المسافة بيننا فيفرط شوق في الجوانح أو يغلو

هذا هو البحتري الذى قضيت أسابيع ألقب ديوانه فلا أرى

فيه غير أشباح. فيأعجبا كيف عاودته الروح وكيف عاد إليه سحره

القديم! إن في ذلك لدليلاً على أن الشعراء لا يمحيون إلا على السنة

القراء، والشاعر الذى يجد قارئاً يفهمه كالمغنى الذى يجد سامعاً

يتذوق أغانيه، ومن هنا كان الشعراء يتفاوتون في حظوظهم عند

الناس، فهذا يثير عاطفة طال غزوها للقلوب، وذاك يثير خالجة

لا تطيف بالنفوس إلا لماماً، وبقدر تغنى الشعراء بهواجس

الأحاسيس يكون نصيبهم من الخلود

صديقي! لقد غفت العيون، وطوى الليل تحت سدوله أرباب

النعيم وأنضاء الشقاء ، فكم من قلب يتذوق أكوام الحب ، وكم
من كبد تنزى فوق جمرات البؤس ، وأنا في دنيا صاحبة من
أشجاني وأحزاني : فهذا وجدٌ قتيٌّ ، وذاك وجدٌ قديم ، وتلك صباية
دفنتها منذ عشر سنين وبعثتها ليلة العيد ، كل أولئك يغزو قلبي في
قسوة دونها قسوة الحظ العائر على الرجل النحيل ، وأين أنا يارباه
ممن أحنو عليهم وأذيب في حبههم لفائف الفؤاد ؟

وما يدريني لعل منسى من جميع من أشتاق إليهم وأبدد بذكراهم

لجلب النهار وهدوء الليل !

لاتزال عندي من الشوق بقايا ، فهل عند من أهواهم من

العطف بقية ؟

أم كتب عليّ أن أقضى العمر في التغنى بقول بعض الشعراء :
سيد كرنى الناسون يوم تشوكمهم شمائل من بعض الخلائق سود
سيد كرنى الناسون حين تروهم صنائع من ذكرى هواى شهود
فوالله ما أسامت عهدى لغدرة ولا شاب نفسى فى الغرام جحود
ولا شهد الناسون منى جناية على الحب إلا أن يقال شهيد
وإليك يا صديق أقدم أطيب الأمنى بأن يعيد الله عليك
أمثال هذا العيد ، وأنت على ما أحب لك من عافية البدن ، ونعيم
القلب ، وهدوء البال . والسلام

فهرست

صفحة	صفحة
١٣٧ ويل الشجى من الخلى	٣ الاهداء
١٤٩ حديقة النباتات	٤ تمهيد
١٥٥ الادب والحياة	٧ بين الحب والمجد (شعر)
١٦٤ جواب الأستاذ السباعى	٨ ثورة الوجد (شعر)
١٧٠ حياة العمال فى باريس	٩ إلى باريس
١٧٧ مرسليليا	١٥ الحب الاثيم فى باريس
١٨٤ الشيخ عبد الباقي سرور	٢٢ الحب فى باريس وفى ليفربول
١٨٧ كوست ويلمونت	٢٨ صيد القاهرة أم صيد باريس ؟
١٩٤ انتحار شاعر مصرى	٣٥ شهداء السين
٢٠٠ الحديث ذو شجون	٤١ حديث المائدة
٢٠٣ المعرض الدولى	٤٢ ماذا يملك رئيس الجمهورية
٢١٢ عودة الجنس اللطيف	٥٠ كان ياما كان
٢١٤ ليلة على شاطئ المانش	٥١ زفرات (شعر)
٢٢١ اختيال الطاووس	٥٢ سهرة فى قهوة الجامع
٢٢٩ نزهة فى طيارة	٦٣ (فكاهات مختلفة)
٢٣٦ يوميات عيد الحرية فى باريس	٧٠ جواب الأستاذ السباعى
٢٤٤ عيد الملاح فى باريس	٧٥ ثورة على الوجود (شعر)
٢٥٠ قلب المرأة	٧٨ الابداء وأساتذة الآداب
٢٥٧ معرض الازهار فى باريس	٨٨ ذكريات حى الشباب
٢٦٦ من غربة إلى غربة	٩٨ كيف النجاة (شعر)
٢٧٦ أيام البحر ولياليه	٩٩ غريب فى باريس (شعر)
٢٨١ ارواح الذكريات	١٠١ ملاهي طلبة الطب
٢٩٠ هادم اللذات	١٠٨ غايات الحى اللاتينى
٢٩٢ الان فهمت	١١٤ صلاة الجمعة فى باريس
٢٩٣ نجوى القلب (شعر)	١٢٠ بين فصول الكتاب
٢٩٤ بين الرشد والغواية	١٢٦ محمود بيرم
٣٠٣ ألوان من اتجاهات الاذواق	١٣٠ لطفك (شعر)
٣١١ على أطلال الجمال (شعر)	١٣١ هذه باريس وهذا باريس
٣١٢ فى ليلة العيد	١٣٦ الطلبة عندنا وعندهم

i 15043241
b13202236

DATE DUE

DATE DUE

DC
705
Z4x
1931

زكى ه مبارك
ذكريات باريس

Iman El Kaffas 78/841

DEC 17 1981

Nawal El-Bachy Part T. teaching
ALL

MAR 1 1982

Muchsim Jada 81/533

OCT 21 1982

DC
705
Z4x
1931

1974

MAR



